الملكيـة الهلينية والانسـان

الحضارة الهلينية (من القرن الثالث حتى القرن الأول)

هزمت المدينة الجمهورية وانتصرت الملكية . فقامت دول واسعة الارجاء كثيرة السكان على انقاض مقاطعات صغيرة ارتفعت فيها النتوءات ومزق البحر شطآنها، لم تكن كافية لاعالة بضع عشرات الالوف من السكان . وانتقل مركز الثقل في العالم اليوناني نحو الشرق . وانتظم نوع من التعايش الخالص بين اليونان الاوروبية والشرق .

غدا تطور الحضارة اليونانية امراً واجباً ، ولكن في اي اتجاه ياترى ؟

لا ترتضي الملكية بمبدأ الحرية السياسية : فأصبح المواطن تابعاً ، وحل القصر الملكي محل جمعية الشعب . اضف الى ذلك ان الشرق قد ناء على الحضارة اليونانية بجماهيره الغفيرة وثرواته وتحقيقاته الضخمة ودياناته الجذابة وكافة تقاليده التي تخنق الفرد خنقاً .

بيد ان الحضارة الهلينية حققت معجزة الترعرع والنمو في العالم اليوناني – الشرقي تحت حماية الملكيات ، مستمرة ، في الوقت نفسه ، في تسهيل تفتح الانسان .

الفصل الأول

الاسكندر
باعث حضارة جديدة

فتح الاسكندر الشرق ، ويغلب على الظن انه كان يستعد ، عند موته ، لفتح الغرب : ومن الجائز جداً ان تقاس الامبراطورية العالمية وحدهـا بمقياس روحه الفائقة الطبيعية واقتناعه الوطيد بان زفس يعاون ويلهم ابناً بشخصه هو . بيد انه اذا لم يكن لا اول ولا آخر من دغدغه مثل هذا الحلم ، فليس لعمري من فاتح غيره ترك عمله اثراً يمثل هذا الاستمرار ، وفي نطاق جغرافي يمثل هذا الاتساع ، وعلى نواح من النشاط البشري يمثل هذا التنوع ، على الرغم من انها ، في طبيعتها ، قليلة التأثر جداً بحولة خاطفة يقوم بها قائد عسكري . فهو ، بنتائج فتوحاته غير المباشرة قبل الفورية منها ، باعث حضارة جديدة تقوم اهميتها ، في نظرنا ، على ميزتها المسكونية او بالاحرى على طموحها المسكوني .

ركاكة الامبراطورية السياسية

تقسمت امبراطوريته سياسياً. فقد توفق بعض قواده الى تأسيس ملكيات متميزة ، واضطر ابناؤهم الى التخلي عن الامل الذي راود رفاق القائد العظماء ، الواحد بعد الآخر ، في استعادة الوحدة الاولى لمصلحتهم . وقرّضت رقع هذه الملكيات منافساتُ المنافسين على انواعهم ، والانتفاضات القومية التي نهضت بها شعوب بلدية عاصية اصلا او ثائرة على اسيادها ، والنزعات الجائشة في المدن اليونانية الى الاستقلال . وينتهي تاريخ سلالات عديدة ، لاسباب مختلفة ليس اقلها المنازعات العائلية ، في حالة من الفوضى يرثى لها . ومن ثم فان تفكك امبراطورية الاسكندر ، الذي بدأ غداة موته ، يستمر ، دونما انقطاع تقريباً ، حتى قيام السيطرة الرومانية .

بيد ان هذا المظهر السياسي في التطور يضل ويخدع لانه يخيب الامل بخطه المنحني العام ويولد الاشمئزاز بما يستلزمه من بلبلة متزايدة . وان حصر البحث فيه يؤول الى تتبع ازدياد

الخراب ، في حال ان هذا العهد ينهض بعمل بناء ، والمعنى الحقيقي للبناء الذي يخرجه من الارض وتعجز قواه عن اتمامه اعظم ما يمكن تصوره .

مسكونية الحضارة الهلينية

ان الاهمية الحقيقية لحملة الاسكندر تقوم في انها تدفع ، بقوة وجزم ، حركة بدأت قبلها ولكنها انحصرت حتى ذاك العهد في دائرة ضيقة ، اعني بها انتشار الاغريق وحضارتهم خارج العالم اليوناني القديم . ونحن ننعت « بالهليني » العهد الذي يبتدىء بانتصار مقدونيا على الجمهوريات البلدية في اليونان القديمة ولا يلبث ان يتوسع بضم الامبراطورية الفارسية . وتشتق هذه التسمية من اسم « الهلينيين » الذي اطلق على الشرقيين ، ولا سيما اليهود منهم ، الذين اقتبسوا الثقافة اليونانية . فهي تشدد اذن ، وبحق ، على الفوز في استمالة الشعوب التي كانت موضوع الفتح العسكري . وللمرة الاولى في التاريخ بدأ البشر وكأنهم يسلكون طريق وحدة عظيمة في الحياة والاخلاق والاذواق والاعتقادات ، على الرغم من تعدد التخوم التي ما لبثت ان عادت الى الظهور مرة اخرى . ليس من ريب في ان الاسكندر اراد هذه الوحدة ، فجاء خلفاؤه ، عن قصد او عن غير قصد ، تلقائياً او بقوة الاستمرار ، يسلكون الاتجاه نفسه او يوجهون سواهم فيه .

ليس من ريب ايضاً في ان الحضارة اليونانية ، في نظر الاسكندر ، يجب ان تؤمن لهذه الوحدة عناصرها الجوهرية . فالاستشراق الذي عيره به بعض رفاقه بكل مرارة ، وتبعهم التقليد القديم في ذلك ، لم يكن الا سطحياً . فهم قد اغتاظوا بنوع خاص من تصميمه على تحقيق الصهر العنصري الذي نفذه عملياً بزواجات فخمة وانعامات اغدقها على من انضم اليه من الايرانيين : فمهما كانت الديانة التي اراد ان يحلها المربية الاولى ، فان هذه التدابير كانت ضرورية لخلق الوحدة البشرية التي بدونها يضيع كل امل بالوحدة المعنوية . ولكن الاسكندر الذي تتلمذ على ايدي ارسطو لم يخن الحضارة اليونانية ؛ فهو قد اكتفى بأن يطرح عنها ما يثقلها ، مطبقاً على الظروف الجديدة ما كان منها وثيق الارتباط باشكال سياسيه اعتبرها هو باطلة بسبب قدم عهدها . وكانت الملاحم الهوميروسية ، في نظره ، كافية للدلالة على ان الملكية ، شأن « البولس » ، تؤلف جزءاً من الارث الذي آل امره اليه . ومن ثم فان التربية اليونانية هي التي فرضها على ابناء الاشراف الايرانيين المدعوين ، شأن ابناء الاشراف المقدونيين ، لان يكونوا رجال الغد في جيشه وامبراطوريته . وقد خضع للنزعة نفسها خلفاؤه اليونانيو الاصل والمفاخرون بيونانيتهم حتى انقراض سلالاتهم . ولكنه كان من المحتم على الحضارة اليونانية ، بفعل توسيع نطاقها الجغرافي واتصالها اتصالاً متزايداً بحضارات سبقتها بزمن طويل وتكيفها وفاقاً لبيئات جديدة ، ان تتطور وتتسرب اليها التأثيرات الاجنبية . وهكذا نشأت وترعرعت الحضارة الهلينية ، اقل نقاء يونانياً من الحضارة الكلاسيكية واقل سمواً ايضاً واقل قوة منطقية ، ولكنها اكثر مرونة وانطباقاً على انسانية متنوعة وواسعة طمحت هي الى استجابة حاجاتها المشتركة .

النتـــائج

من نافل القول ان محاولة هذه الوحدة الادبية ، ينهض بها الاغريق ، قد عرفت غير النجاحات . فان الحركة ، المنطلقة من بلاد صغيرة جـداً وقليلة السكان ، قد تناولت على غير تساوٍ وبصورة سطحية عمومـاً ، كتـــلاً بشرية متراصة مرتبطة بحضاراتها القديمة ومتأثرة بها الى حد بعيد . ولذلك فكثيراً ما استمرت هذه الحضارات القديمة ، على الرغم من انها لم تحرز تحقيقات هامة . فهي قد برهنت منذ زمن متفاوت القدم انها عاجزة عـــن اي تحقيق جديد . اضف الى ذلك انها ، بحرمانها من قادة الفكر والمجتمع الذين تواروا او انضموا الى الفاتحين ، قد اضطرت الى البقاء مغمورة ، برواسبها القديمة ، في ظلام الطبقات الشعبية ، لا سيما الريفية منها ، المتدنية الثقافة التي لم يعرها الاغريق اهتمامهم ولم يريدوا ان يروا فيها سوى يـدٍ عاملة احتياطية يمكن الاستفادة منها في اعمال استثمارية مجدية . فكان من المحتم ان تبوء المحاولة بالفشل ، ان هي لم تقم بانقلاب جذري . وهي لم تنج قط من هـذا المصير . فبعد قرون مـن الخضوع الظاهر ، ستبرز قوميات محلية بلغاتها واخلاقها ودياناتها الخاصة .

بيد انه من الزيغ ان لا نقر بضخامة مجهود الاغريق وبواقـع بعض النجاحـات المحققة . وتبرز هذه النجاحات داخل الاراضي التي اشرف الاغريق عليها سياسيـاً : فالمكاسب في بعض الطبقات الاجتماعية على الاقل ، ولا سيما في الطبقات العليا وفي المدن ، لا محاجة ولا جـدال فيها ، وهي تزداد كلما اقتربت من الساحل المتوسطي حيث تجري وتستمر الاتصالات المجيبة . وتبرز ايضـاً نجاحات اخـرى خارج هـذا النطاق مردها جـوار احـدى الحضارات العظمى وجاذبيتها الطبيعية . فهنالـك سلالات شرقية المنشأ ، كسلالة « المتريـدات » في كبادوكيا البونتية او سلالة الارساسيين عند الفارتيين مثلا ، تتباهى بميولها للحضـارة اليونانية وتقتبسها فعلاً اقتباساً يختلف عمقه باختلاف السلالات . وقد امتدت الحضارة الهلينية نحـو الغرب بنوع خاص . فانطلقت من مرسيليا واخذت تشع في غاليا . وقد بدا اثرها في قرطاجة ايضـاً بفضل الحروب في صقليا والتجارة . ولكنها تحرز الانتصار الادبي الفعال في روما بفضل علائق هذه باغريق ايطاليا الجنوبية وحملاتها العسكرية وفتوحاتها في حوض المتوسط الشرقي . وكان مـن اهمية هذا الانتصار ان روما ، بعد ان تغدو وريثة الملوك الهلينيين ، ستسهل ، عـن غـير قصد اولا ، وعن تصميم في عهد الامبراطورية ، نجاحات هذه الحضارة التي استساغت هي جوهرها . ومن ثم فان الوثبة التي وثبتها بفضل الاسكندر ، ستدوم ، بفضل رومـا ، حتى فجـر عهد الانحطاط في الامبراطورية الرومانية .

الفصل الثاني

المثالية الملكية والحكومة الملكية

كان بالامكان تحديد الحضارة الكلاسيكية بانها حضارة « البولس » . اما الحضارة الهلينية ، اذا ما حاولنا ان نجد لها تحديداً عاماً ، فتبدو وكأنها حضارة « الفاسيلفس » (الملك) ، اي الحضارة الملكية . فقد فرض على البشر اطار سياسي جديد، اوجدته القوة دونماريب ، ولكنه جاء موافقاً تطور علائقهم الاجتماعية وحتى مفاهيمهم الاجتماعية .

١ – الرواسب والاقتباسات الجمهورية

المحطاط البولس

ليس المقصود بذلك ان المدن قد زالت او فقدت طموحاً، هو مبرر وجودها، الى الاستقلال والسيادة . فهي ، في اليونان نفسها ، تحافظ على ديمومتها ، ولكنها منحطة تلجأ الى التسويات . وقد فرض عليها هذا المصير ضيق اراضيها وقلة سكانها ومواردها ؛ وهي آنذاك دون مستوى القوى التي أوجدها توسع العالم اليوناني : فكيف يمكنها والحالة هذه الوقوف في وجه ملوك الدول الكبرى ؟ غير ان خضوعها لم يكن يوماً تلقائياً ودائماً؛ فهي تثور كلما سنحت لها الظروف ، وتتحرر أحياناً ، ولكنها لن تلبث ان ترضى ، صاغرة ، باقامة حاميات عسكرية جديدة في حصونها ، ودفع الفرائض المالية ، وحتى قيام مستبدين يحكمونها متعهدين بإخلادها الى السكينة .

المدن والحرب

فقد اضمحلت قوتها الماضية المطلقة ولا سيا النسبية . وحدّ انتقال التيارات الاقتصادية من مواردها . وكما في السابق ، استمرت الحرب ، وهي ابداً ضحيتها ، وسببها في اكثر الاحيان ، في اضعافها وتخريبها . فالحرب تتطلب وسائل ترتفع نفقاتها يوماً بعد يوم . وتزداد قياسات البوارج الحربية ، فتنهك أثينا نفسها اولاً ثم تعزف نهائياً

عن الاحتفاظ بمرتبتها في هذا التسابق الى التسلح الذي ينتظرها فيه فشل اكيد . وقد بلغ من تقدّم التقنية في البر ، بفضل استخدام الفرسان والآليات ، وحتى الفيلة ، وتدريب الجنود ، ما جعل المتطوعين المدنيين عاجزين عملياً عن مقاومة الجيوش النظامية . واحتفظ المقدونيون بأولويتهم المعترف بها منذ عهد ديموستينس وفيلبوس الثاني . ومن حيث ان الروح الوطنية المحلية وروح التضحية قد خفّتا عند المواطنين الذين خيبت البولس آمالهم في ميولهم وحاجتهم الى الأمن والطمأنينة ، فقد تزايد يوماً بعد يوم ، كما سبق وحدث في القرن الرابع ، اللجوء الى المرتزقة الذين يحدّ من عددهم الانفاق الباهظ عليهم . فاضطرت المدن ، كما لم يسبق لها قط ، ان تحاط بالاسوار — وقد عقدت سبارطة نفسها العزم على ذلك — وان تحسن سلاحها الدفاعي على الرغم مما جرّه عليها ذلك من نفقات طائلة : وغالباً ما كانت هذه الاسوار وهذا التحسين دون جدوى بالنظر للتحسن المتزايد في نهج الحرب والحصار .

أضف الى ذلك ان صرامة قانون الحرب لا ترحم مدناً آلت نهائياً الى الضعف على الرغم من تضحياتها المالية والبشرية الكثيرة . والمدينة التي تفتتح عنوة تصبح تحت رحمة المنتصر . ففي السنة ٣٣٥ مثلاً ، أمر الاسكندر بتقويض طيبة ، ولم يستثن فيها سوى بيت واحد هو بيت الشاعر بنداروس ، احتراماً منه لذكرى هذا الشاعر . وبعد قرن تقريباً ، اعتُمد فيه سلوك أقل فظاظة ، عادت الى الظهور ؛ وتزايدت بفعل أخذ الثأر ، أعمال الإستلاب المنظم والتقتيل والنخاسة . وإذا كانت هذه حال المدن ، فماذا عسانا نقول عن الارياف حيث تضيف اللصوصية الموضعية المسلحة اعمالها التخريبية الى ويلات الحرب ؟ وليست روما ، الحريصة على وضع حد سريع للحملات العسكرية النائية وعلى تكنيز خزانتها ، ما يمكن ان يعطينا درساً في الحلم والرفق : فهي قد توصلت بكل صعوبة الى أن توفر ، متأخرة ، عن طريق خضوع صامت أو متملّق ، سلماً محموماً لم تلبث أن عكرته المنافسات بين قوادها الطامعين .

وهكذا فان المدن اليونانية التي أفقدتها قوتها السياسية مقدونيا اولاً وروما ثانياً ، لم تحصل مقابل ذلك على الازدهار والهدوء اللذين كان بالامكان ان يفسحا لها مكاناً اوسع في نشأة وترعرع حضارة لم تطبع بطابعها .

الاتحادات

بحث بعضها عن الخلاص في نظام سياسي جديد ، إن لم يكن من حيث مبدأه ، فأقله من حيث تطبيق هذا المبدأ تطبيقاً أكثر شمولاً ومرونة .

منذ زمن طويل ، أتاح صهر دويلات مستقلة في جهاز واحد تكوين مدن اكثر سكاناً وأوسع رقعة ، وبالتالي أقل ضعفاً : فهكذا استفادت أثينا من الاندماج الذي وحّد حولها كل الأتّيك . والمدينة اليونانية الوحيدة التي تمثل قوة حقيقية ، أقله خلال النصف الاول من العهد الهليني ، هي رودس . ولكنها هي نفسها أيضاً حصيلة اندماج المدن الثلاث التي تقاسمت أرض الجزيرة وبقيت مستقلة حتى أواخر القرن الخامس إلا فيما يعود لعبادة الإله « هيليوس » المشتركة .

وقد حصل الانصهار فيها ، على كل حال ، باحتراز اكثر منه في أثينا ، لأنه جاء في عهد لاحق . ولم يكن « لمدينة » رودس نفسها وجود قبل الوحدة التي تحققت من ثم دون تفضيل مدينة على أخرى ودون اثارة حسد أية مدينة من المدن القديمة الثلاث . أضف الى ذلك أن هذه المدن قد حافظت ، في الدولة الجديدة ، على استقلال اوسع منه في قرى الأتيك . ولا ريب ايضاً في ان السر الحقيقي لقوة رودس يكمن في سبب آخر ، أعني به مركز الجزيرة على طرق التجارة الكبرى في المتوسط الشرقي . فرودس مدينة لهذا المركز بازدهار تجارتها وبثروتها التي أتاحت لها ان تتعهد اسطولاً حربياً حسبت له اعظم الدول حساباً ، وعند الاقتضاء جيشاً برياً توفق الى النزول في آسيا الصغرى ووطّد أقدامه فيها على الرغم من الصعوبات التي اعترضته . غير أن مثل رودس ، التي يعود الفضل في توحيدها الى وجود عبادة مشتركة سابقة ، خليق بأن يثبت للجميع بأن التضحية بالسيادات الفردية يمكن ان يقابلها ما يعوّض عنها الى حدّ بعيد .

بيد أن الشركة التي اعتمدت ، على العموم ، آنئذ ، وبصورة فعالة، لم تسلك هذا الاندماج المنحرف المفضي الى البولس . وقد ادّى نجاحها الاكيد ، الذي تبرره رغبة في تنظيم دفاع مشترك ، الى تكوين دول «مركبة» ، أو ، بتعبير ابسط ، الى « اتحادات » ، دون ان يستوقفنا معنى هذا التعبير الخاص الذي يبين المؤرخون ورجال القانون العصريون المضادة التي بينه وبين معنى « الدول الاتحادية » . فقد يشكل علينا ، اكثر من مرة ، توزيع الدول المركبة بين هاتين الفئتين الكبيرتين اللتين لا تعطياننا في التاريخ القديم ، باستثناء بعض الحالات النادرة ، تخوماً اوضح منها في ايامنا الحاضرة. وليست الكلمة اليونانية المستعملة للدلالة على هذه الدول ما يسهل محاولة هذا التوزيع لانها كلمة عامضة قد تنطبق على الاتحادات بانواعها بما فيها الاخويات الدينية نفسها .

ليس التجديد الهلّيني في ظهور هذه الاتحادات : فقد وجد منها في اليونان منذ أمد بعيد؛ وقد يمكننا اطلاق هذا الاسم على « احلاف » سبارطة واثينا اذا ما نظرنا الى بعض مظاهرها . إنما التجديد في تعدّدها : وقد بلغ من كثرتها ان بعضها قد كوّن اتحاداً آخر يجمع بينها . والجديد فيها ايضاً هو المساواة الحقيقية التي توصلت ، إلا في حالات نادرة جداً، الى تحقيقها بين المدن المندمجة . وهي قد اخذت درساً ، بهذا الصدد ، من خبرة الماضي . فقد اعترفت الاتحادات السابقة أساساً ، أو تأثرت سريعاً ، « بسيطرة » إحدى المدن ، وحتى اذا كان انضمامها اختيارياً فان المدن الاخرى قد انتهت اخيراً الى التشكي من تجاوزات المدينة المسيطرة وحاولت خلع نير طاعتها . فكانت النتيجة العملية لهذه الاتحادات الاكثار من المنازعات وزيادة الضعف العام . أما آنذاك فقد اعتمدت أساليب أخرى . فليس هنالك من سيطرة ، بل شعور بمساواة حقيقية قد تؤخذ بعين الاعتبار فيها أهمية الإسهام في المجهود الجماعي .

كانت النتيجة المحتومة لهذا الاحتياط ان المدن القديمة الحاكمة قد نظرت شذراً الى هذه الاتحادات التي ليست مستعدة لأن تعترف لها برتبة ممتازة . وكانت نقطة انطلاق الدول الجديدة ، المدعوّة لمستقبل زاهر ، في مناطق لم تلعب حتى ذاك العهد سوى دور وضيع جداً في تقرير مصير العالم اليوناني سياسياً وأدبياً . فبرزت شعوب جديدة لم تسهم سوى جزئياً في التطور العام للحضارة اليونانية ، شأنها في ذلك شأن المقدونيين قبل فيلبوس الثاني . وكان لانعزالها هذا الفضل في المحافظة ، اكثر من سواها ، على تضامنها بفضل العبادات المشتركة بينها ، وبفضل ضعف الاقبال على الحياة المدنية ، مما حال دون قيام المدن ، او أقله دون تمتعها باستقلال متعجرف . وكان له الفضل ايضاً في الإقلال من استنزاف قواها في المنازعات العنيفة وفي ابعاد الشبهات الحاسدة عنها .

هذه هي ، بصورة خاصة ، حال الشعبين اللذين كانا الخلايا الأولى للإتحادين الهلّينيين الرئيسيين في اليونان القديمة . فقد توصل الايتوليون الذين أقاموا مغمورين على الساحل الشمالي من خليج كورنثوس الى ضم الشطر الاكبر من اليونان الوسطى إليهم بما في ذلك قسم كبير من تساليا . وقد برز ايضاً على الساحل المقابل ، في البلوبونيز ، من مقاطعات جبلية لا ماضي مجيد لها ، اتحاد الآخيين الذين استفادوا من انتصارات روما وتوصلوا الى ضم البلوبونيز كلها .

الانظمة الاتحادية

ما أن ارتسمت حركة الاندفاع هذه بالانتصارات الاولى حتى تجاوزت هذه الشعوب حدودها العنصرية . فارتضت أو فرضت أن تنضم اليها مدن غريبة عنها حتى ذاك العهد . وقد حدث ، حتى في افضل هذه الاتحادات تنظيماً ، أن يكون للمواطنين هوّيتان لا بل جنسيتان في الواقع ، الاولى محلية تحدد المدينة التي ينتسبون إليها ، والثانية اتحادية يكون اسمها اسم الشعب مؤسس الاتحاد . فالمواطن الذي من فرسال في تساليا يبقى « فرسالياً » ، ولكنه يصبح بالاضافة الى ذلك « أيتولياً » ، على الرغم من المسافة التي تفصله عن أيتوليا نفسها . والمهم في هذه التسمية الخداعة من الناحية العنصرية انها لا تعني مجرّد الضم ، إذ أن النظام المعتمد ، بهذا الصدد ، يعطي ضمانات جدّية .

لا ريب في ان المدن المنضمّة تتخلى عن قسط من استقلالها . فهي مبدئياً تدير شؤونها بحرية ؛ وتفرض الحياة المشتركة عملياً ، حتى على هذا الصعيد ، حداً أدنى من التناسق لا ينطوي ، في أغلب الاحيان ، على مستلزمات خطيرة . بيد ان التخلّي الحقيقي يتعلق بالشؤون الخارجية ، الدبلوماسية والحرب ، التي تصبح وقفاً على الحكومة المركزية المنوط بها أمر الاحتكام في الخلافات الممكنة بين المدن المنضمة وتحديد العلائق بالاجانب وتنظيم الجيش الاتحادي واستخدامه . ولكن لا تستطيع مدينة واحدة او مجموع مدن متحالفة التمتع بمركز ممتاز في الحكومة المركزية .

تتألّف الحكومة المركزية على غرار حكومة البولِس . ولنصرف النظر هنا عن التفاصيل

والفوارق المختلفة وغير الثابتة غالباً . هنالك في الدرجة الاولى جمعية شعبية في أيديهـــا زمام الامور أبوابها مفتوحة لكافة المواطنين البالغين السن القانونية : وهي جمعية البولس نفسها التي لا تتميز عنها إلا بفوارق فنية نادرة . ومن نافل القول ان مكان الاجتماع قد يتغير احياناً وان المدن تقترع لا الممثلون ، ولكنه يتعذر علينا الجزم ، بسبب افتقارنا الى الدلائل ، بأن هذه التدابير ، القمينـــة بضمان المساواة بين المدن ، قد اعتمدت في كل مكان . ويقوم الفارق الرئيسي ، وهو طبيعي بفعل المسافات الواجب قطعها ، في ان الجمعية الاتحادية لا تلتئم إلا نادراً . فليس هناك سوى دورات معدودة في مواعيد محدّدة ، اثنتين او اربع في السنة ، على ما نعلم ، واذا مـــا واجهت امكانية اجتماعات طارئة ، فان العمل بهذه الامكانية كان نادراً . ومـــا من اتحـــاد حر واحد ، نستطيع ان نبدي رأينا فيه ، أقر النظام التمثيلي رسمياً اي مجلس النواب : فالاعراف القديمـــة الاستبدادية تقف في وجه هذا الحـــل الذي كان من الضروري ان يفرضه اتساع رقعة الاتحاد .

يتضح من ذلك ان سيادة الجمعية لا تبرز الا بصورة عرضية ، وان اشرافها يتراخى ، وان الاجهزة الحكومية الاخرى تتمتع في الواقع بحرية عمل اوسع منها في البولس الديموقراطية القديمة . وهذه الاجهزة هي اولا مجلس او عدة مجالس يتفاوت عدد اعضائها ، وثانيا قضاة يعرف القاضي الاول بينهم باسم « ستراتيغوس » اي قائد الجيش . وقد يحدد القـــانون ، او التقليد في بعض الحالات ، توزيع المراكز في المجلس بين المدن . وحتى اذا لم يُحتط لهذا الامر ، فان تعيين اعضاء المجالس والقضاة يتلافى كل اخطار السيطرة .

من المؤثر حقـــا ان نرى الاغريق ، الذين بقوا جمهوريين ورغبوا في الافلات من سيطرة الملكيات الكبرى ، يتلمسون الطريق بغية التوفق الى حل جديد . فالحق المدني عندهم لم يكن نظاما قويا وطيداً كما كان في روما منذ عهد مبكر . ولكن الحق العام قد استأثر بتفكيرهم منذ امد بعيد . وعديدة هي الكتب النظرية او التاريخية المتعلقة بالانظمة التي وضعهـــا اشهر الرجال احيانا . وحين وضع ارسطو او اشرف على وضع ال ١٥٨ دستورا للمدن ، التي لم يصلنا منهـــا سوى « دستور الاثينيين » ، لم يبتكر قط ناحية قانونية تاريخية . ومن المسلم به ان الطريقـــة المتبعة بالتفضيل ، ابّان العهـــد الهليني ، ـ وهي ستستمر زمنـــاً طويلا حتى في الامبراطورية الرومانية ـ تقضي بوضع المقالات عن « الملكية » ، وهي على كل حال مقالات فلسفية اكثر منها عملية . ويفسر هذا الاهتمام المستمر ، عند الاغريق ، لعلم الانظمـــة السياسية ، تنوع الانظمة المعتمدة في الاتحادات . ولكن هنالك ، الى جانب الابتكارات الاريبة والمعادلات الثاقبـــة ، احترازات يمليها الماضي وعادات موروثة عن « البولس » وتقاليد مرفوعة الى مستوى المبادىء ، تلجم المخيلة الجامحة وتمنع بعض الجسارات التي قد تبررها ظروف كلية الجدة .

الديموقراطية : ظواهر ورقائع

مما يسترعي الانتباه ، في المدن الهلينية والاتحادات الحرة على السواء ان مظاهر النظام الخارجية ديموقراطية ابداً . فالشريعة لا تضع ، في

الظروف العادية ، اي شرط مالي للتمتع بحقوق المواطن المطلقة وممارستها ، وهي من حيث المبدأ متساوية للجميع. فالجمعية العمومية ذات سيادة مطلقة . والقضاة الذين ينتخبون كل سنة، لا يعاد انتخابهم فوراً، وذلك لتجنب الاستبداد العملي ولاتاحة الادعاء على ادارتهم. اما اثينا الكلاسيكية، فقد استثنت قوادها العسكريين من هذه القاعدة، رغبة منها في الاستفادة بخبرتهم العسكرية . ولكن هذا الاحتياط الصارم ، على الرغم من حراجة الاخطار الخارجية شبه الدائمة ، وعلى الرغم من تقدم فن الحرب واهمية الدور الذي يلعبه فيها المتهنون ، لم يستثن منذئذ قواد الجيوش انفسهم .

فاذا ما استندنا الى التنظيم النظري ، نرى صحة ما تعبر عنه النصوص المعاصرة ، الرسمية وغير الرسمية ، التي تشدد على « ديموقراطية » هذه الانظمة . اجل ان هذه الكلمة في معجم ذاك العهد لا تعني احيانا سوى « الجمهورية » التي تقابل الملكية السائدة اذ ذاك ، ولكنها في حالات كثيرة ترتدي معناها القديم الذي يقابل « الارستوقراطية » . ويبدو في الواقع من كل القرائن ، في الصراع القديم ، الطويل والدامي ، بين المثاليتين ، ان الديموقراطية هي التي تغلبت في النهاية ، بفضل نفوذ اثينا وتقهقر سبارطة ، كما تراءى ذلك من سير التطور منذ القرن الرابع .

بيد ان ذلك لم يكن الا ظاهراً فحسب . فحيثما نستطع الوقوف على سير الامور العملي نر ان هذه الأنظمة لا تطبق إلا ديموقراطياً . فحتى في المدينة التي كانت مقررة فيها ، كأثينا مثلاً ، الغيت التعويضات التي أتاحت للمواطنين الفقراء تكريس وقتهم لخدمة الدولة سياسياً ، كقضاة او أعضاء مجلس او أعضاء جمعية . وقد أفضى زوال هذه التعويضات من الواقع الديموقراطي الى زوالها بصورة طبيعية من المثل الأعلى الديموقراطي الرسمي أيضا. وليس العجز المالي دائما السبب الحقيقي لهذا الإلغاء ، إذ أن المسؤولين لا يترددون في شجبها شجباً مبدئياً ، ناظرين اليها نظرتهم الى نظام فوضوي يدعو الى الأسف ؛ وقد حدث ان رفضوا رؤوس أموال هامة مقدّمة لإيجاد هذه التعويضات . فأصبح محتّما والحالة هذه على ممثلي الطبقات الشعبية المرغمين على العمل الدائم لتأمين أودهم وأود عائلاتهم ان يبعدوا عملياً عن الوظائف العامة ، وفي أغلب الاحيان ان لا يشتركوا في أعمال الجمعية ، لاسيما في الإتحادات حيث يستوجب حضور الجلسات اجور نقل باهظة بسبب بُعد المسافات . ولكن هذا التغيير على كل حال ليس سوى أبرز وأهم ما حصل من تغييرات . فهنالك اساليب أُخرى كثيرة قد لا تكون كلّها صادرة عن تدابير مكرية بل عن التطور العام في المجتمع والاخلاق فقط ، ولكن نتائجها كلّها تتجه نحو وضع خاص لا جدال فيه : ان هذه الأنظمة الجمهورية الهلّينية، الديموقراطية نظرياً ، تؤمن في كل مكان تقريبا احتكار السلطة لطبقة اهل المدن الميسورين المثقفين ، المتنكرين لإصلاح اجتماعي من شأنه ان يضرّ بمصالحهم .

لمّا كانت الازمة الاجتماعية قد تفاقمت إذ ذاك لارتباطها بالوضع الاقتصادي ، لم يكن

التوجيه الطبيعي للسياسة الداخلية ليسّهل تهدئتهـــا . فرسخت الروح الثورية ، وبعنف في أغلب الأحيان ، في نفوس المستائين الذين ليس امامهم أي مخرج شرعي مفتوح ، ففعل هـــذا التوتر فعله في مصير اليونان . وكان خطر الاضطرابات الاجتماعية ، وقيامهـــا الفعلي احياناً ، عامل بلبلة اضافياً في العلائق الدولية . فهي تسبب او تعقّد الحروب الأهليـــة والحروب بين الدول ، وتجزىء ، وبالتالي تضعف المقاومة في وجـــه العدو . وهي تفسر جزئياً الاخفاق النهائي الذي منيت به الحركة الاتحادية التي بدت قوية في منتصف القرن الثالث ولم تفلح مـــع ذلك ، في انقاذ استقلال اليونان القديمة . وقـــد استفادت روما بنوع خاص من هذه الشقاقات العميقة الجذور .

٢ – مثالية الملكية الهلّينية

اصول الملكية الهلينية

بيد ان النظام الجمهوري ، بلديـــاً كان ام اتحاديا ، لم يستمر إلا في جزء صغير جدّاً من العالم اليوناني الذي وسعت تخومـــه فتوحات الاسكندر : فان الملكية هي ما يسيطر على العهد ويميزه سياسياً من كافة الوجوه .

على الرغم من ان الاغريق قد عرفوا الملكية في بلادهم في العهود القديمة ، فانهم قـــد نظروا اليها ، أثناء العهد الكلاسيكي ، نظرتهم الى نظام أدنى ، خليق بالبرابرة وغريب عـــن الحضارة اليونانية ، لانها قامت حينذاك في مناطق بعيدة عـــن اليونان الوسطى ، متاخمة لعالمهم الأصلي . ولكن الفردية ، منذ أواخر القرن الخامس ، قـــد حطمت طوق المساواة الذي جمعت «البولس» داخله عموم المواطنين ، وذلك بتأثير استهواء الحروب للرأي العـــام وتأثيرها العميق المتزايد في الأنظمة الاجتماعيـــة والذهنيات . فالجماهير نظرت الى القائـــد المنتصر نظرتها الى بطل ، مستعدّة من جهـــة ثانية لافقاده حظوته عندما بمثل السرعـــة التي رفعته فيهـــا الى الأوج . فالقيبيادس وليساندروس مثلاً ، ونكتفي بذكرهما لأنهما أشهر القواد ، قـــد نجوا من القسر المدني ، ورمزت أعمالهـــما التي لا تضاهى الى قدم المفاهيم الكلاسيكية . أضف الى ذلك ان بعض كتّاب القرن الرابـــع المتنكرين ، بفعل نزعاتهم الشخصية ، للديموقراطية ، والسريعي التأثر بنقائصها قـــد باشروا تصميم المثل الأدبي والعملي الأعلى للملك ، جاعلين منه رجلاً فوق الرجال بعدله وعقله ومواهبه وسعادتـــه كرجل دولة وقائد عسكري وصلتـــه بالالوهية في آخر المطاف .

جاءت الاحداث فجأة تؤيد وتعزز هذا المثل الأعلى . فمن احدى المناطق المتاخمـــة لليونان ، برز ملك هـــو فيلبوس الثاني المقدوني الذي انتصر على المدن . وفتح ابنه الاسكندر الشرق وحقق مآثر بدت وكأنها تفوق الاقيسة البشرية. فتخلّص التنافس بين الاطماع الشخصية من قيوده ؛ ولكن انّى له تسهيل عودة النظام والاعراف القديمـــة ؟ فان هذه الاطماع ، من جهة ، استندت الى وجود جيوش تختلف كل الاختلاف، بضخامتها وتكوينها وانظمتها ، عن

جيوش المدن الجمهورية ، ولم يكن باستطاعة احد قط ان يعيد تكوين هذه الجيوش الملكية لجعلها مماثلة لجيوش المدن . ولم يكن باستطاعة اية مدينة ، حتى اذا كان لديها من الثروة ما يسمح باستخدام احد هذه الجيوش ، ان تؤمن قيادته . فاذا كان طمع الزعماء قد افضى ، والحالة هذه ، الى بقاء الجيوش ، فان هذا البقاء نفسه قد جعل من الملكية شيئاً لا مناص منه واوجد الزعماء الطامعين . ومن جهة ثانية ، اشتمل إرث الاسكندر ، الذي لم يكن اي اغريقي ليرضى بالتنازل عنه ، على اراض شاسعة- وشعوب غريبة عن الحضارة اليونانية الفت السلطة الملكية القمينة وحدها بتنظيم استثمارها . فمن الجلي مثلاً انه يستحيل على مدينة ان تحكم مصر وبلاد بابل . ثم ان الملكيات الهلينية التي تباهت بيونانيتها لم تنبثق عن ملكيات شرقية . وهي لم تقتبس سوى النزر اليسير عن الملكية الفارسية التي اعلن الاسكندر نفسه خلفها المباشر . وقد اعتبرها سكان المنطقة الاصليون ، الذين احيتهم بعض الشيء ، بمثابة الملكية الفرعونية او الملكية البابلية اللتين زالتا منذ زمن بعيد . ولكن واقع السيطرة اليونانية على الشرق له من الاهمية ، لتفسير قيام الملكيات الهلينية وبقائها ، ما لواقع منشئها العسكري .

امتداد وقوة الواقع الملكي

كانت النتيجة رجحان النظام الملكي ، في كافة انحاء العالم الهليني ، حتى قيام السيادة الرومانية . وقد تغيّر توزيع اراضي هذا العالم بين الملكيات لا سيما خلال نصف قرن من عدم الاستقرار بعد موت الاسكندر . واذا ما نظرنا نظرة شاملة الى العهد ، تبين لنا ان عدد الملكيات قد نزع باستمرار الى الازدياد . فلسنا نشاهد اذ ذاك حصر السلطة السياسية ، بل تفتتها ، وهذا يثبت بعد الملكيات عن الكمال .

من الممل والحالة هذه ان نحاول احصاء الملكيات احصاء كاملاً . ولكن الواجب يقضي بان نذكر اهمّها . فقد كانت ملكيات الانتيغونيين في مقدونيا السّباقة في الزوال حين قضت عليها روما في السنة ١٦٧ . وقد تأخر الاطّاليون في آسيا الصغرى في الحصول على اللقب الملكي في « برغاموس » ، وساعدهم تحالفهم مع الرومان في السنة ١٨٨ على توسيع اراضيهم توسيعاً هاماً ، ولكن وصيّة « اطّال » الثالث الذي مات دون عقب في السنة ١٣٣ جعلت من روما وريثة ممتلكاته . وكان السلوقيون في البداية ، بفعل سيطرتهم على آسيا الصغرى وسوريا وبلاد بابل وايران ، الحلفاء الرئيسيين للملوك الفرس ؛ ولكن ممتلكاتهم ، منذ بداية القرن الثاني تنكمش بسرعة لمصلحة الاطّاليين والفارتيين ، ولم تكن الملكية سوى مجرّد ظل حين ازالتها روما في السنة ٦٣ . وفي مصر اخيراً كانت سلطة البطالسة او اللاجيين الاولى في بلوغ الاستقرار ؛ فامتدت في القرن الثالث امتداداً بعيداً في المتوسط الشرقي ، ثم انحصرت في وادي النيل ولم تعش بعد الملكيات الاخرى الا بفضل روما التي لم تقرر ضمها اليها الاّ في السنة ٣٠ بعد موت كليوباتره .

ان هذا الاستعراض السريع الذي يهمل ، في ما يهمل ، سيراكوزا والملكيات الثانوية في

شمالي اليونان كالأبير التي اشتهرت بفضل « بيروس » ، او في آسيا الصغرى كبيثينيا والبونت ، مما يجعلنا نحس بانحطاط شبه متواصل ينتهي الى ضعف لا علاج له . ولهذا الاحساس ما يبرره على الصعيد العسكري باستثناء بعض وثبات عارضة . فان روما ، حتى عندما اضطرت في اوائل القرن الثاني الى توجيه الضربات الحاسمة التي كان الضّم نتيجتها ، لم تحتج الى بذل جهـــود مماثلة لتلك التي فرضها عليها صراعها ضد قرطاجة . ولكن هـــذا الانحطاط العسكري يستثني على الاقل قرنا من العظمة والمجد هو القرن الثالث . وحين اخذت الحضارة الهلينية تعطي ثمارها ، كانت جذورها قد بلغت عمقا استطاعت هي مغـــه البقاء على الرغم من هزائمها . فقد تأثرت هذه الحضارة اذن ، في تكوّنها ، بالملكية القوية والغنية آنذاك والمسيطرة على اراض واسعـــة تحمي وتنشر فيها الحضارة اليونانية بين البرابرة : ولم يعد للمدينة امامها سوى دور ثانوي .

المثالية الملكية

من نافل القول ان لكلّ من هذه الملكيات مميزاتها الخاصة . وتقوم بينها اختلافات مبدئية احياناً . فالأبير ومقدونيا ، وهما منطقتان كان سكانها يونانيين او اقـــله متأثرين بالحضارة اليونانية ، تعرفان ملكيات قوميـــة كان رعاياها في الوقت نفسه مواطنين اعضاء في جماعة : فان الملك رئيس وحامي هذه الجماعة يخضع لعرف تقليدي يجعله خادماً لها اكثر منهـا خادمة له . اما الملكيات الاخرى القائمة في الشرق فملكيات شخصية . لا شك في ان بعضها قـد خلف ممالك محلية : فالسلوقي يطلق على نفسه ، في بعض الاحيان النادرة ، لقب « ملك بابل » ؛ واللاجيّ يلقب بصورة عادية ، كفرعون ، بـ « هوروس ـ رع » ، وملـك الجنوب والشمال ، وهوروس الذهبي ، وملك مصر العليا والسفلى ، وابن رع ، ويخضع منذ اواخر القرن الثالث تقريباً لمراسم التتويج في منف . ولكن هذا المظهر ، الذي يختلف كـليا عن ذلك الذي يضفيه عـلى الملكيـة الانتيغونية لقب « ملك المقدونيين » ، لا قيمة له الا للمواطنين الاصليين دون غيرهم . فالاغريق لا يعرفون سوى « الملك (فاسيلفس) بطليموس » او « الملك سلوقس » ، وتشير هذه التسمية الى الصفة الشخصية في الملكية ، اذ ان الكلمـة الاولى ، التي تقوم مقام الاسم الشخصي ، انما تحدّد صفة لا وظيفة : فمن حيث ان الدولة لا وجود خاص ومستقل لها عن الملك ، فأنها لا تعتبر الاّ مُلكاً له فحسب .

انتشر هذا المفهوم انتشار بقعة الزيت فتسرب الى الملكيات القومية نفسها . وهو يعبّر عن مثالية واسعة الانتشار ايضاً . فان الفلاسفة ، الى اية مدرسة انتموا ، قد تابعوا عمـل مفكري القرن الرابع وتعمقوا في النظرية الملكية وتوصل بعضهم الى مثال ملك سيد العالم ، فريد في نوعه ، مماثل للحكيم بالذات ، اقله في نظر الروّاقيين . ولكن نظرية متوسطة واسعة الانتشار قد برزت ، صارفة النظر عن المجادلات وعن هذه الآفاق الواسعة التي تصطدم ، في الوقائع ، بتعدد الملكيات .

الملك هو ذو الحظوة عند الإله الذي يعضده ويلهمه . وتظهر المواهب النادرة التي هو مدين للإله بها ، ظهوراً لا جدال فيه ، في الانتصار الذي هو افضل قياس لتفوقه . فالانتصار الذي

يريده الإله ويعطيه يثبت في آن واحد التمتع بالمواهب العسكرية وقوّة الاشعاع على الجنود الذين لم يخب اخلاصهم الوفي .

ان الملك هو بالضرورة قائد جيش ـ كما يؤيد ذلك مثل الاسكندر والمنازعات التي عقبت موته . عليه ان يسير على رأس جنوده في اشد الظروف خطراً ؛ فمن أصل ١٤ ملكا سلوقيا ، لاقى عشرة حتفهم في ساحات الوغى . وعلى الملك من جهة ثانية ، بفعل السلطة المنبثقة عن صفته وعن شخصه ، وبفعل الاعجاب الذي يشدّ اليه رجالا آخرين ، ان يحيط نفسه باصدقاء ورفاق وجنود لا يتراجعون ، في سبيل مساعدته ، امام التضحيات على أنواعها ، ويؤيد ثباتهم ، في اشد الساعات حراجة ، صفاته التي لا تضاهيها صفات .

لو طبقت هذه النظرية بصورة الزامية لأفضت الى جعل القلقلة عقيدة ايمانية . فان هذه النظرية هي التي بررت الاغتصاب وتجزئة الملكيات الكبرى ؛ وقد بنى الثائرون ، على الانتصار وهتاف جنودهم حقهم في لقب « الفاسيلفس » وهم انما اعادوا بذلك ما فعله قواد الاسكندر عند نشأة هذه السلالات الملكية . ولكن المسؤولين لم يلبثوا ان تفادوا أخطار الفوضى الملازمة لهذه المثالية عن طريق مبدأ الشرعية . فحاولوا بالفعل ان يبدّلوا ، لمصلحة السلالة ، مفهوم الانسان المتفوق الحائز على العطف الالهي ، ونثروا الاساطير حول دور هذا او ذاك من الآلهة في مولد احد الجدود . اجل لم يكن النجاح كاملا ولكنه لم يكن دون اثر : فغدا الانتساب الى سلالة من الملوك المتعاقبين عنصراً طبيعيا من عناصر صفات الفاسيلفس الشخصية .

كثيراً ما يعبر عن هذه الصفات بلفظة « اريتي » التي لا يعبر تعريبها بلفظة « فضيلة » عما تنطوي عليه من ابهام وغنى في المعاني. فلفظة « اريتي »تشتمل في الحقيقة على صفات من كل نوع ، عسكرية ، وسياسية ، وفكرية ، وأخلاقية أيضاً . وتستلزم الشجاعة والعدل والعقل التشريعي والاداري والعزم والرفق و « محبة النـاس » والتقوى . واذا ما اضيفت كل هذه الصفات الى القوة والثروة اللتين ينطوي عليهما المثال الملكي أيضاً ، فانها تصبح ملموسة في « احسانات » الملك نحو أعضاء بطانته ورعاياه. فالملك اذن، في جوهره هو « المحسن » و « والنصير » و « المخلص» كما درجت العادةفي تسميته رسمياً.وهنالك لفظة أخرى ذات معنىشامل ومبهم ايضاً استخدمت لغايتين : « افنوبيا » أي العطف أو بالأحرى الارادة الحسنة والاستعدادات الطيبة . فقد استعملت لتحديد سلوك وعواطف الملك حيال النـاس الآخرين ، الأصدقاء والجنود والرعايا والشعوب الحليفة ، ولتحديد سلوك وعواطف هؤلاء الناس أنفسهم نحو الملك .

لا حاجة للفت النظر الى ما تتطلبه هذه المثالية من اضفاء صفات كمالية ، مع ان الملوك الهلّنيين بشر ، وبشر حقيرون في أغلب الأحيان . وليست الدعاوة والزلفى وحدهما ما أحاطهم بمثل هذا التجلّي . فان المواطن الوضيع الذي تعترضه صعوبات الحياة وتجاوزات

المستبدين المحليين قد رأى في الملك الملجأ الأخير ، الوحيد ، الذي يمكنه ان يضع آماله في عدله وكرمه . فكل شيء إذن قد تبدّل وانهار في المبدأ الاساسي للحضارة اليونانية الكلاسيكية المبني على المثل الأعلى للانسان، المواطن الحر، المساوي لغيره من البشر الأحرار، والمتمتع في وحدة المدينة ، بالحماية والبيئة الفضلى لعمله ونموّه . فالانسان ، في العهد الهلّيني يرتفع بأنظاره المليئة بعرفان الجميل والأمل نحو انسان يعترف ويعجب بتفوقه . أجل ، ان الحكيم — وهذا ما انتهت اليه عدة مدارس فلسفية — يحافظ على حريته ، ولكنه يعطي هذه الحرية معنى عقلياً ولا سيما جمالياً : أي ان المقصود هو حرية الفكر ، وحرية الروح حيال الاهواء . فالحكيم ملك والحالة هذه ، أقلّه على نفسه . ولكن الانسان الوحيد الحرّ بكل ما للتعبير من معنى ، والقادر وحده على تحقيق كمال نمو طبيعته الانسانية ، هو الملك .

الحق الملكي والاخلاق الملكية

ان النتيجة العملية لهذه المثالية هي السلطة الملكية المطلقة . لا شك في ان الملك مقيد بواجبات ، وبواجبات أدبية في الدرجة الأولى ، ولكن تقيده بها لا يخضع لأية رقابة . فقد درجت العادة يوماً بعد يوم على القول إن الملك هو « الشريعة الحية » ، وسيصادف هذا التعبير نجاحاً متمادياً . وهو ينطوي ، في أقوى معانيه ، على ما يقصد اليوم بالتعبير : « الارادة المطلقة » وقد أيدته تأكيدات مثل هذا : «ان ما يقره الملك هو عادل أبداً » .

وقد بلغ من أمر السلطة الملكية المطلقة انها تغلبت على حق سلالي هو حق مُطيل ، على كل حال ، وغير مجموع في كتاب . فالخلافة الطبيعية تنتقل الى البكر بين الذكور ، ولكن خيار الملك قد يقف حاجزاً دون ذلك . وكذلك أيضاً ، إذا كانت وحدة الزواج هي القانون وإذا احتلت الملكة مرتبة تفوق مرتبة السراري الى حد بعيد ، فاننا نعرف أبناء زنى أُقر بهم شرعاً فضّلهم آباؤهم على الأبناء الشرعيين . وقد اعتمدت أحياناً الشراكة في الملك : نادراً بين الاخوة — وتبدو إذ ذاك مفروضة فرضاً على البكر — وأكثر حدوثاً بين الأب وابنه — وهي إذ ذاك في الدرجة الأولى ، حيلة غايتها تجنب شغور مركز الملك حتى لفترة قصيرة . ولكن ما حدث لا يخرج في الحقيقة عن مجرّد ولاية مشتركة لا تؤدي الى قسمة المملكة لمدة طويلة . فالميوعة إذن هي الميزة الرئيسية لهذا الحق السلالي الذي هو في طريق التكون البطيء وتعترضه دسائس البلاط وبوادر العصيان أو الثورات ، والذي يخضع فيه نفوذ الحق العائلي اليوناني لصلحة السلالة التي تقضي باستبعاد قسمة الخلافة ، ولسلطة الارادة الملكية أحياناً .

ومن الصعوبة بمكان أيضاً ان نحلّل أحد أغرب مظاهر الملكية الهلّينية ، أعني به اشتراك الأخ واخته ، المتحدين بالزواج ، في الملكية . ليس من ريب في ان بعض الظروف الطارئة تفسر قيام هذه الشراكة التي يتعذر علينا تعليلها إذا ما أغفلنا حياة ارسينوي السابقة وطباعها الشخصية وطباع بطليموس الثاني الذي خالف، في زواجه منها، الأخلاق اليونانية التي اعتبرت

الزواج بين الاخوة عمل زنى . ولكن لماذا اتبع البطالسة فيما بعد ، باستثناء حالات نادرة ، هذه الخطة يا ترى ؟ يستحيل ، بكل تأكيد ، ان لا نسلّم هنا بتأثير العادات المصرية التي لم تتنكر للزواج بين الاخوة . غير ان الملكية السلوقية نفسها قد تأثرت بهذا العرف الذي انتقل اليها من الاسكندرية : فمنذ عهد مبكر نسبياً ، لقبت الملكة السلوقية ، مع أنها غريبة ، بلقب « الشقيقة » الرسمي ، وقد حدث فعلاً في أوائل القرن الثاني ان زوج احد الملوك ابنه من إحدى بناته التي تزوجت على التوالي ، بعد ارملتها ، من أخوين آخرين عند تسلمها زمام الملك بدورهما . هذه هي الحادثة الوحيدة على ما نعلم ؛ فقد حالت المصادفة والاعتبارات الدبلوماسية دون رسوخ وشمول هذه الأعراف خارج مصر . ولكن لهذا الإعداء مغزاه على الرغم من سرعة زواله : ان الحرص على نقاء الدم والاحتياط لمطالبات ممكنة قد يقدم عليها أنسباء بعيدون قد لعبا دورهما في تخطي موجبات الأخلاق اليونانية . وبذلك اثبت الملوك مرة أخرى انهم رجال يختلفون عن البشرية المتوسطة .

أما شارات الملك الخارجية فانها تدعو في الحقيقة الى الدهشة ببساطتها ورصانتها . فالبرة الرسمية هي أبداً البرة المقدونية التي هي في الواقع برة الميدان أي السُّوق والمعطف المتسدّل والخوذة أو القبعة الواسعة الأطراف ؛ ولم يكن اللون الارجواني نفسه في المعطف والقبعة وقفاً على الملك ، إذ ان استعماله قد جاز لبعض أفراد البطانة الملكية . ولبعض السلالات شاراتها الخاصة : الصولجان للاّجيين ؛ والخاتم المزدان بنقش المرساة للسلوقيين ، ويطلق عليه اسم هبة ابولون . ولكن الشارة الوحيدة المشتركة حقاً بين كافة الملوك هي التاج الذي بلغ من سعة انتشاره أنه أصبح معادلاً للفظ « ملك » ودخل في سلسة من التعابير الدارجة ، على غرار كلمة « العرش » في أيامنا هذه . نقله الاسكندر عن الملكية الفارسية واستخدمه كل خلفائه من بعده . والمقصود بالتاج عصيبة بيضاء ، أو بيضاء وارجوانية معاً أحياناً ، تحيط بالرأس وتجمع الشعر وتعقد الى الوراء تاركة طرفيها يسترسلان فوق الرقبة . فهل من اشارة أقل لمعاناً من هذه ؟

أضف الى ذلك ان شخص الملك لا يحاط بعد بمعاملات شكلية خاصة . لا بل إننا نلمس استمرار البساطة المقدونية عوضاً عن المراسم الشرقية ولا سيما الفارسية منها : فقد كانت الغلبة على هذا الصعيد للنفور الذي صادفه الاسكندر لدى رفاقه في السلاح . وإذا أخذت العادة تدرج ، في الاحتفالات الرسمية ، على حمل شمعة أمام الملك ، فإن الأجانب وحتى الرعايا يحظون دونما صعوبة بمقابلة الملك . واذا ما ساعدت الضرورات الدبلوماسية واختيرت خطيبة الملك اجمالاً ، منذ البداية ، من أسرة ملكية ، واذا كان عقد الاتفاق نتيجة مفاوضات ، واذا احتفل بالزواج بابهة عظيمة ، فقد يحدث أحياناً ان يتزوج بعض الملوك من بنات الطبقة المتوسطة ، ان لم يكن من الراعيات أحياناً . غير ان الملوك الذين يرتدون الألبسة البسيطة

ويختلطون بالجماهير قد أصبحوا موقع زلّة منذ أواخر القرن الثالث .

وليس من أقل مظاهر أهمية العهد الهليني ان تتكون فيه ، حول واقع الملكية الحديث العهد المطبوع بقوة بالأخلاق المقدونية على شيء من المساواة وفاقاً للطريقة اليونانية ، نواة أولى من التقاليد والاعراف والمصطلحات القانونية والازياء في الملابس وغيرها . وستنمو هذه النواة رويداً رويداً بفعل تأثيرات غير التأثيرات الهلّينية أيضاً . ولكنها ستنتقل من ملكية الى ملكية حتى بيزنطية وما بعدها أيضاً بواسطة روما .

٣ – الأنظمة الملكية

لا نستطيع ان نقدم هنا سوى تلخيص عاجل وعمومي للأنظمة الملكية ، اذ ان فقدان التوازن في التوزيع الجغرافي لمستنداتنا يحول دون الاستفاضة : فأمام غزارة الرديات المصرية، ليس لدينا، عن مقدونيا والمناطق الساوقية الشاسعة مثلاً، سوى كتابات نادرة متفرقة. أضف الى ذلك ان عدد وخطورة المعاضل التي يستعصي حلّها أو عرضها عرضاً على بساط البحث ليسا بعقبات أقلّ شأناً . لذلك يتوجب علينا الاكتفاء باستخلاص بعض الخطوط العامة التي تتيح لنا ادراك الملكية الهلينية ، في حد ذاتها ، ادراكاً أفضل .

السلطة الملكية

الملك غير مقيّد، وهو بهذه الصفة القائد الطبيعي للجيش. وهو المشترع الوحيد: يصدر أوامره في شتى المواضيع ويوجه الكتب الدورية الى الموظفين ويجيب على أسئلتهم . وهو أعلى سلطة قضائية : ولا يشذّ عن ذلك سوى الحق المعترف به تقليدياً للجمعية العمومية في الملكية المقدونية – وهو كثيراً ما يحرق عملياً – في ان تنظر في دعاوى الخيانة العظمى. ولكن القضاء ليس مفصولاً آنذاك فصلاً تاماً عن الادارة ؛ لذلك فان الملك يتلقى في شتى الأمور عرائض لا تحصى يقدمها له حتى الوضعاء من رعاياه : وان هذه العادة التي تأيدت ، فيما خص مصر ، ببرديات تعبر عن آمال كلها سذاجة أحياناً ، قد اتبعت في مناطق أخرى أيضاً .

يبدو ان بعض الملوك قد برهنوا في النهوض بهذه المهام ، تساعدهم الفلسفة على ذلك ، عن شعور بالواجب ووعي لكرامتهم بلغا أحياناً مستوى رفيعاً جداً . فقد نسب لأحد الانتيغونيين المتأثرين بالرواقية أنه قال يوماً لابنه : « هل أدركت جيداً ان ملكيتنا انما هي عبودية محاطة بالتكريم والتجلة ؟ » ولكن الملك بحاجة الى العون والمساعدة مهما كان من تقيّده بوحي ضميره .

ويتمتع الملك مبدئياً بحرية كاملة في اختيار معاونيه واسناد الأعمال اليهم . ويجري هذا الاسناد ، كما يطيب له ، دونما اعتبار للثقافة والمراتب والأقدمية : ليس من مقياس سوى رضاه أي الثقة التي يوحي بها اليه .

بطانة الملك والسياسة

بيد ان سمعة الملك تتوطد ، الى حد بعيد ، بنسبة اهلية واخلاق اولئك الذين يلجأ اليهم لمعاونته . وعليه في الواقع ان يحسب حساباً لرأي الجنود ، ولا سيما الحرس، واهل البلاط . ويحتل بعض معاونيه مراكز شخصية رفيعة، فيضطر

للتريث والركون الى الحيلة للقضاء عليهم : وقد ارغم احـــد الملوك السلوقيين ، قبل الفوضى النهائية بزمن طويل ، على التآمر ونصب كمين لاغتيال وزيره الاول . فالسلطة المطلقة حدودها الواقعية اذن ، وليس في ذلك ما يثير الدهشة اذا ما اخذنا بعين الاعتبار المكانة التي تخص بهـا المثالية السائدة صفات الفرد وما توفره له من تسلّط على البشر الآخرين .

من حيث ان البلاط ، وهو ذيل من ذيول الملكية ، وبالتالي تجديد هليني ، واقع اجتماعي في الدرجة الاولى ، ينعم بنفوذ فكري وفني عظيم ، فانه يثبت من ثم وجوده على الصعيد السياسي. ومن نافل القول ان الدسيسة ، ولا سيما دسيسة المخادع ، تلعب فيه دورها بصورة حتمية . غير انه يبدو جدّاً ان يكون هذا الدور موقع زلّة . ولكن السراري والغلمـــان والخصيان الذين لعبوا دوراً سياسياً لم يتجاوزوا عدداً ضئيلاً ، حتى اذا اطمأننا الى المستندات الطريفـــة التي تنتقدهم ، الا في الملكية اللاجية التي غدت، منذ أواخر القرن الثالث ، العوبة بين أيدي مثـــل هذه الجماعات . بيد اننا نخطىء ان نحن شبهنا بهم تلك الملكات اللواتي ارتفعن الى مرتبـــة المدافعات عن فكرة معينة في المنازعات بـــين الملكيات الهلينية ، من أمثال أولمبيا والدة الاسكندر، وكليوباتره العظيمة ، وارسينوي شقيقة بطليموس الثاني وزوجتـــه ، ولاوديكي زوجة انطيوخوس الثاني السلوقي ، وكليوباتره « الاهية » التي كانت«ابنة ملك وشقيقة ملكين» من اللاجيين و« زوجة ثلاثة وأم أربعة » ملوك سلوقيين . وانما الأمر يعود الى تطور عـــام في المجتمع حيث أصبح للمرأة مكانة أرفع منها في السابق : فبمكنة الشخصيات النسائية القوية أن تلعب منذئذ دورها بسهولة ، لا سيما وأن وجود البلاط يولي الملكة مرتبة رسمية .

ومما يلفت النظر أيضاً ان النسب والثروة ليسا من العناصر التي تقرر الأوضاع الشخصية في البلاط ، على ان لها بعض الأثر مع ذلك . فـ « الأولاد الملكيون » ، المختارون في العائـــلات الكبرى يربون في القصر ويخصصون لخدمة الملك، وتسهّل عليهم التربية التي يتلقونها وصداقتهم على الأمير الفتى ، ملك المستقبل ، دخول الوظائف العسكرية والادارية . ولكن هذه الوظـــائف لا يحتفظ بها لهم . ولم تتكون قط ، في أية ملكية ، طبقة من « الكبار » . فان حظهم منوط بالمواهب دونما تمييز اجتماعي أو جغرافي أو عنصري . فالعالم الهلّيني يتخطى الحـــدود ويؤلف وحدة بشرية كبرى يتجوّل الاغريق داخلها دونما صعوبة عارضين خدماتهم على أسياد مختلفين . الضمان الضروري الوحيد هو الانتساب الى الحضارة اليونانية ، أو الأخذ بها فقط ، أقلّه بالنسبة لبعض الملوك . فقد أجاب أحد الأنتيغونيين طالب مصلحة من ذوي النسب . « لا شأن عندي للقيمة الوالدية بل للقيمة الشخصية » .

الحكومة المركزية

الفاسيلفس ، مبدئياً ، رجل ذو مواهب عالية قادر على ايقاد التفاني وبـــذل الذات ، أكثر من أي رئيس دولة . لذلك فان المعـــاونين الذين يسند اليهم المهام الحكومية الكبرى يعدّون بين « البطانة »، جنباً الى جنب مع خدامه الخصوصيين . وهم

يؤمنون غالباً وظائف بلاطية . ويحصلون ، على الأقل ، على لقب يربطهم شخصياً بالملك ويتيح لهم التحدث اليه بمزيد من الدالة . فقد درجت في البلاطات الهلينية تسميات بطـــانية ظهرت سابقاتها في الملكية المقدونية القديمة والملكية الفارسية على السواء ، ثم تعددت وطرأ عليها نوع من التفخيم المفرط في الاكرام بسبب ابتذال التعابير البسيطة . فهنالك « أهل » الملك و « آباؤه المربون » و « مهذبوه » و « اخوته الرضع » أو « تلاميذه » ، ويمكن تقديم الدليل في بعض الحالات على ان المقصود بذلك ألقاب شرفية فقط . وهنالك خصوصاً « الأصدقاء » المنتظمون جمعية حقيقية بدرجاتها المختلفة : «الأصدقاء» دونما صفة ، وفوقهم تسلسل الاصدقاء «المكرمين» و « والأولين » ، و « الأولين والمكرمين تكريماً خاصاً » . ويوزع الانعام الملكي هـذه الألقاب لقاء شتى الخدمات مع ما يقابلها من شارات أكثرها رواجاً المعطف الارجواني . ولا توجد هذه الالقـــاب سوى روابط شخصية بين من يوزعها ومن توزع عليهم اذ ان « صديق » الاب ليس بالضرورة « صديق » الابن .

وهكذا فان عدد رجال البطانة قد يكون مرتفعاً جداً . وتحمل بعض التعابير الرسمية على الاعتقاد بأنهم يشتركون في السلطة الملكية ، شأن الجيش أيضاً ، كأن هنالك ملكية جماعية . ويتباهى الملـــك في الحقيقة ، بعدد ووفاء « أصدقائه » وجنوده لأن في ذلك خير برهان على السحر الذي يشعّ منه ، وعلى سخائه و « انعاماته » ، وبكلمة ، على ما يكسبه نظرياً سلطته كفاسيلفس .

لذلك كان من الطبيعي ان يختار الملك بين هؤلاء الاشخاص من يلمس فيهم الكفاءة لمعاونته . فالمشورات مرغوب فيها أبداً حتى ولو لم يكن هنالك مجلس استشاري دائم ومنظم . ويتلقاها الملك ممن يريد وبالشكل الذي يوافقـه . ومن المسلّم به أنه غير مقيّد بها ، ولكن الاستنارة ضرورية ، اذ ان الملك الذي لا يعبأ بهذه الحيطة يعرّض نفسه لأن ينعت بالاستبداد .

ينتخب الملك أيضاً بين بطانته القواد والسفراء والوزراء ، وليس من الضروري ، على كل حال ، ان ينطبق هذا الترتيب المنطقي على الواقع : فالرجل الواحد قد يكون تارة قائـــداً وأخرى سفيراً ووزيراً ؛ وقد يحدث له أيضاً ، بعد ان يتولى قيادة عسكرية هامة ، ان يسلّم قيادة دونها أهمية ، حتى ولو لم يفقد الحظوة التي يتمتع بها . غير ان الشؤون الادارية على الاقل ، اي الحرب والدبلوماسية ، قـد اصبحت من التعقيد بحيث انها فرضت حدّاً ادنى من التخصص والاستمرار . لذلك فاننا نرى في كل ملكية تقريباً رئيس ديوان ورئيس قصاء ومفوّض مالية . وقد يحدث احياناً ان يبرز ، بين جميع الشخصيات الكبيرة ، شخصية اكثر نشاطـــاً ومهارة يشيرون اليها بتعريض غامض في الكلام ، « المفوّض بالشؤون » ، الذي يبدي رأيـــه في كل القضايا ويبت في اكثريتها باسم الملك : ذلك هو المستشار الرئيسي والوزير الرئيسي. ولكن جميع هذه التعابير المستعارة من قاموسنا السياسي لا تعبر التعبير الصحيح عن مجموعة التنظيم في الحكومة

المركزية لبلاد واسعة ، والتنظيم شيء حديث جدّاً بالنسبة للاغريق .

الادارة المحلية

من الامور المسلّم بهـا ان الادارة المحلية قد كانت ، في مـا يظهر ، ارسخ استقراراً من الحكومة المركزية . ولكن معرفتنا بها ضئيلة جداً اذا ما قارناها بالحكومة المركزية ؛ ويبدو الاختلاف بين الملكيات ، في هذا النطاق خصوصاً ، عظيماً للغاية لان كل ملكية مرغمة على تكييف انظمتها ومصطلحاتها وفاقاً لمميزات الاراضي والرعـايا التي تشرف على ادارتها .

لنأخذ مثلاً مصر اللاجية ، وهي الملكية التي نعرفها اكثر من غيرها . فقد احتفظ فيهـا بالتقسيمات الادارية التقليدية المعروفه بـ « الاقاليم » مع بعض الفوارق الطفيفة الناتجة عن التطور الاقتصادي او زيادة عدد السكان في منطقة من المناطق مثلاً . وقد عيّن في كل اقليم ، في البداية، حاكم مصري وقائد عسكري يوناني ؛ ثم توارى الحاكم رويدا رويدا وراء القـائد حتى زال نهائياً . وتشتمل المراتب الدنيا على رؤساء الاقضية ورؤساء القرى . ولكن المشاغل الماليـة قضت منذ البدء بان يعين ، الى جانب كل من هؤلاء الموظفين ، عميل يرتبط مباشرة بوزير المال ، هو « الكاتب » الذي يعرّف عنه بمركز وظيفته ، فيقال كاتب القرية ، وكاتب القضاء ، وكاتب الاقليم او الـكاتب الملـكي .

ليس في هذه اللوحة البيانية شيء من الخطورة . ولكنها لا تنطبق إلا على مصر ، أي على بـلاد تسهل فيها المركزية بفعل طبيعتها وتاريخها السابق . أما في الملكيات الأخرى فالأمور تختلف اختلافاً بيناً . نحن لا نعلم في الواقع شيئاً عن مقدونيا ، كما نكاد لا نعلم شيئاً عن الملكية الاطالية . أما السلوقيون ، وهم الخلفاء الرئيسيون للملوك الفرس ، فقد حافظوا على اسم وواقع « المرزبانيات » القديمة ، باستثناء تقسيم بعضها الى اثنتين أحياناً . وقـد تولى أمور كل مرزبانية قائد عسكري . فهل قام الى جانبه «مرزبان» وكلت اليه الأمور الادارية ؟ نحن نشك في ذلك ، ولا نعلم على كل حال بوجود موظف أطلق عليه هذا اللقب في عهد من العهود أو في منطقة من المناطق. وقد قسمت المرزبانية أخيراً الى أقضية تختلف أسماؤها الرسمية وفاقاً للمناطق، وبالتالي أيضاً أسماء الموظفين المكلّفين ادارتها .

بدلاً من ان نضع هذه القائمـة الطويلة التي تثير مجادلات شتى وتفضي الى اعترافات بالجهل ، يجدر بنا ان نعرف كيف سارت هذه الادارة المحلية . ويمكننا في هذا المجال ان نستخلص بعض النظرات العامة .

من الجليّ ان كل المراكز الرفيعة وجلّ الوظائف الملحقة بها قـد احتفظ بها للاغريق في الملكيات الشرقية . أما في البدء ، وفي مناطق لم تُخضع إخضاعاً نهائياً كأرمينيا وكبادوكيا وبيشينيا مثلاً ، فقد وجب مراعاة الأوضاع المحلية والقبول بابقاء بعض المرازبة الشرقيين الذين ما لبثوا في النهـاية ان أعلنوا الانشقاق فغدوا في الأساس من تكوين الملكيات الثانوية . أما في

المنـــاطق التي شعر الملك اليوناني بأنه سيدها المطلق ، فلم يعول إلا على الاغريق أو الشرقيين « المستغربين » فعلاً ، وكانت اليونانية اللغة الرسمية ، فأقصي بالتالي البلديون الجهّال . أضف الى ذلك ان الاغريقي ، بفعل ثقافته والاستعداد الفكري المفروض فيها ان توجده فيه ، قد اعتبر موظفاً أوفر تنظيما ودقة وأمانة أيضاً ، لأن الواجب يقضي عليه ، بالتضامن مع الملك أمام رعايا يمارسون حضارة أخرى .

فهل كان هؤلاء الموظفون عند حسن ظن الملك بهم يا ترى ؟ يمكننا التسليم بذلـك ، بصورة عامة ، لجهة الامانة السياسية ، على الرغم من بعض الثورات التي أفضت الى الاغتصابات : وهي تقريباً وقف على الملكية السلوقية التي كانت أراضيها أوسع من ان تمكن مراقبتهـا مراقبة تامة دائمة . ولكن الامر على خلاف ذلك من ناحية الفعالية الادارية . فالحقيقة هي ان الاغريق الذين دخلوا في خدمة الملوك المستقرين في الشرق كانوا حتما أقـل من ان يتاح انتقاء العدد اللازم بينهم . وكثيراً ما أثارت نزاهتهم الريبة والشك . بيد ان الكتابات الخاصة بآسيا ، وهي عـلى الأغلب نصوص رسمية وتكريمية ، قـد تحملنا على الاعتقاد بان الوضع فيها وضع مثالي . أما في مصر فالبرديات التي تصف واقعاً يومياً ومتواضعاً تحتوي على شكاوى أو تأنيبات كثيرة وتطلعنا على سرقات وتجاوزات سلطة لا تدع مجالاً للشك . وان الادارة الحسنة تستلزم ، على كل حال ، خبرة وتقاليد وموظفين لم يتوفروا لهذه الملكيات الفتية التي قامت بعيداً عن الأرض الأم .

وتستلزم هذه الادارة الحسنة أيضاً مواصلات سهلة بغية نقل الاوامر وممارسة رقابة الحكومة المركزية بسرعة . غـــير ان المركزية في ملكيات ذاك العهد ، والرقابة منوطة بها ، تؤدي الى التعقيد وبطء المعاملات . وهـــذا البطء جليّ في مصر حيث تتطلب اقل معاملة تحقيقات شتى ومراسلات بين مكتب ومكتب ومرؤوس ورئيس . أما في الملكيات الأخرى فان المستندات المتوفرة لدينا ، وان كانت أقل جلاء ، تضعنا أحياناً أمام وقائع على مثل هـذه الغرابة . ففي شهر آذار ، بينما كان احد الملوك السلوقيين في آسية الصغرى — في عصر السلالة الذهبي — اتخـذ قراراً هاماً لمصلحة الملكة ، وكان على الموظفين المعنيين ان يسرعوا في ابلاغه ؛ غير ان القرار لم يصل الى الدرجات الدنيا من الادارة في احدى المرزبانيات المجاورة إلا في شهر أيار كما ، لم يصل اليها في غربي النجد الايراني إلا في شهر تموز . ويتراءى لنا من ثم ما يمكن ان تؤول اليه ، مع انحطاط الملكيات ، ادارات على مثل هذا النقص ، حين سلبت روما نفوذ الملوك

الوسطاء والامتيازات المحلية

لذلك ، وفي كل زمان ، لم يتح لسلطة الملك ، وبالتالي لسلطة ادارته ، آن تثبت وجودها في كل مكان بشكل متكافىء وقوي . وفي هـــذا المجال ، يبدو اللاجيون — في مصر لا في ممتلكاتهم الخارجية — في وضع موافق جداً ؛ ولكن عليهم ، حتى في وحدة وادي النيل ، ان يحسبوا حساباً لثلاث مدن يونانية . أما الملوك الآخرون فيصطدمون بحواجز شتى قوامها التقاليد المحترمة أو التنازلات . ويمكن مبدئياً نقض هـــذه

التنازلات أو التسليمات ؛ ولكن القوة غير متوفرة غالباً لنقضهـــا فعلاً ، حتى ولو توفر المبرر المعقول لذلك . ثم ان الفاسيلفس قـــد يعرّض سمعته للتحطيم اذا نقض « انعاماً » دون تبرير معنوي يختار المنعم عليه بحكمة ساعة توفيره له .

مما لا ريب فيه ، ربما باستثناء مقدونيا حيث يخيم العموض على الادارة الداخلية ، ان الملك قد مارس على الدوام سلطة لا حد لها ، بواسطة عملائه وحدهـــا ، على أعظم أجزاء مملكته اتساعاً. وغالباً ما أطلق المعاصرون على هذه الأجزاء اسم « خورا » أي «الريف » أو «الأرض المنبسطة » لاظهار المضادة بينها وبين المدن المحصنـــة . ولكن أجزاء المملكة الاخرى التي لا جدوى فيها للسلطة المباشرة ، أو التي يجب على السلطة أن تحتال فيها على العقبات ، تشتمل على مناطق أخرى كثيرة غير المدن أيضاً .

ان هذه العقبات على أنواع كثيرة جداً وتختلف الاهمية النسبية لكل فئة اختلافـــاً عظيماً وفاقاً للظروف المحلية . ففي مناطق الحدود ملوك ذوو اخاذات يكتفون بتأدية واجب الطاعة حين يمر الملك بالقرب منهم على رأس قوة مسلحة : فيطيب للرسميين ان يصفوا «بالجزية» ما يطلق عليه ذوو الاخاذة اسم « الهدية » . وهنالك « السلاليون » الذين يسيطرون على مناطق أقـل سكاناً وثروة من أن يتجاسروا على اعلان نفوسهم ملوكاً عليها . وهنالك بعض المعابد التي يدير كهنتها أملاكاً عقارية تؤلف دولاً ثيوقراطية . وهنالك « شعوب » أو قبائل بلدية تخضع لشرائعها الخاصة وتعين رؤساءها : وأشهر مثل عنها الشعب اليهودي مع شريعته الموسوية ومجلسه ورئيس كهنته . وهنالك المدن أخيراً . فان ذوي الامتيازات هؤلاء ، أفراداً كانوا أم جماعات ، نزعوا بالسليقة الى الاستقلال . ولا ينم موقفهم من الملك ، عملياً ، سوى عن نسبة القوى الراهـــنة . لذلك فان الفوضى الداخلية كانت بالمرصاد للملكيات المتقهقرة وأسرعت في تفككها .

ان ما يستوقف انتباهنا بنوع خاص هو دور المدن في الحضارة الهلينية . أجل قد تكون هنالك بعض المدن المحلية البلدية . ولكن المدن التي يمكننا ، بفضل الكتابات ، مرافقة حياتها ، هي المدن اليونانية ، أو المدن « المستغرقة » كما في فينيقيا. ويوجد بينها مدن قديمة ومدن حديثة العهد . ولكن لجميعها مثلاً أعلى واحداً لا يستطيع أي اغريقي أن يتنكر له ، هو « البولس ». فهي بحصونها وأسوارها وساحاتها العامة وأبنيتها تؤلف أشخاصاً طبيعية . وتؤلف أشخاصاً معنوية أيضاً بالدستور الذي ينظم مواطنيها جماعة مستقلة ، أي ناعمة بوسائل عمل وقضاة ومجلس وجمعية تستطيع بها أن تدير شؤونها وشؤون البقعة المرتبطة بها .

ويطرح هذا الدستور والنزعات التي من شأنه ان يمهد لها ، على بساط البحث ، العلاقات بين المدينة والملك . فالملك لا يستطيع القبول بقيام علاقات مع اجنبي ، هو ابداً عدو ممكن ، ولا المخاطرة بان يرى يوماً ابواب المدينة تقفل بوجهه او القلعة تستخدم مركزاً محصناً من قبـــل الثائرين . فهو بحاجة الى ضمانات . ولديه سلسلة مختلفة من المكافآت والعقوبات ، يعامل بهـــا

المدن وفاقا لاستحقاقها ، فيرسل اليها حامية او يسحبها ، ويثقل الجزية او يخففها او يلغيها ، ويمنح الامتيازات التجارية او الدينية ، الى ما هنالك . ولكن الطريقة التي كثر العمل بها قامت على ان يرسل الى المدينة « مفوض » يكلّف ، دونما ضرورة لوجود الجيوش ، مراقبة الحياة المحلية ، وابداء الرأي في اختيار القضاة وفي قرارات الجمعيـــة او المجلس ، ويوحي او يحرّر احياناً مشاريع المراسيم التي يوافق عليها فوراً . ومن الطبيعي ان تفرض رقابة شديدة خاصة على المدينة التي يقيم الملك فيها او على مقربة منها ، كالاسكندرية عند اللاجيين وبرغاموس عند الاطالين ، فيتولى بعض الموظفين الذين يعينهم قطاعات معينة في الادارة ، ويصبح الاستقلال الاداري مجرد ظاهر فحسب . وتكون هـــذه المدن الاولى في الاستفادة من سخاء الملوك في توزيع المال وغلوائهم في تشييد الابنية . ولكنها تدفع ثمن هذه الانعامات بفقدان حرياتها ، ولم يحل ذلك قط دون انفجار السخط الشعبي احياناً ، اقله في انطاكية والاسكندرية منـــذ القرن الثاني ، وتحوّله الى شغب صاخب قد يؤدي الى تقتيل المقربين الى الملك ، وطرد الملـــك نفسه ، واعلان سواه مكانه . فعلى الرغم من الانظمة الاريبة المعتمدة، لم تتوصل الملكية الهلينية الى ازالة الاستقلال الاداري الذي اظهر المضادة بينها وبين « البولس » : فان فورة الاستقلال التي جاشت في « البولس » لن تخمدها سوى قبضة روما بعد اكثر من انتفاضة .

الثروة

كثرت اذن الصعوبات التي وجب على الملوك محاولة التغلب عليها لفرض الطاعـــة وتأمين العنصرين المتلازمين آنئذ لمثال الملكية : الثروة والقوة العسكرية .

جاء القسم الاكبر من مواردهم المالية مـن استثمار « الريف » الذي لم يكن ملكهم المباشر فحسب، بل ملكهم الخاص ايضاً. وفي كل الملكيات، حتى في مقدونيا، كانت اهمية الممتلكات الملكية من العقارات والاحراج والمناجم ، وحتى المصانع ، عظيمة جداً ، لا يقلل منها سوى « الهبات » التي يطيب للملك ان يقتطعها فيها لمكافأة تفاني المتفانين في خدمته او لبعث هـذا التفاني . وتملكوا عبيداً يتيحون لهم احياناً استثمار هذه الممتلكات استثماراً مباشراً باشراف القهارمة . ولكن طريقة الاستثمار العادية ، للاملاك الزراعية بنوع خاص ، هي التلزيم الذي قد يفرض فرضاً على سكان «الريف » الذين ، حتى ولو نجوا من العبودية ، يبقون خاضعين لموجبات لا يعين حدودها سوى رضى الملك وحده . ومـا كانت هذه الممتلكات لتصبح شيئاً يذكر لولا اليد العاملة التي تحرثها .

الى موارد الملاّك هذه اضيفت موارد المليك المتمتع بالحق السامي الذي توليه اياه الفتوحات وصفته كفاسيلفس ، اعني بها الضرائب بحصر المعنى . وهي على انواع كثيرة تختلف باختلاف الملكيات وداخل الملكية الواحـــدة ، اذ ان على الملك ، بصددها ، ان يأخـــذ بعين الاعتبار الامتيازات المحلية . واكثر الضرائب رواجا واعظمها دخلاً الجزية ، رمز السيادة المعترف بها ، التي وُرثت عن الامبراطورية الفارسية واعتمدت اخيراً في مقدونيا نفسها . والمقصود بها مبلغ

من المال ـ يضاف اليه احياناً بعض المساهمات العينية ـ يحدّد تحديداً اجمالياً لكل جماعة ، او اقطاع ، او قبيلة ، او مدينة ذات امتيازات ، او قرية في « الريف » . ويترك الخيار لكل جماعة ، لدفع هذه الضريبة سنوياً للخزانة ، في ان تجمعها كما يطيب لها وان توزعها على هواها بين اعضائها . اما ضريبة الاعناق والرسوم على المواشي والاشجار المثمرة فتبدو اقل شمولاً ، اذ انها تستلزم احصاءات لا تستطيع كافة الملكيات اجراءها بانتظام . وهنالك ايضاً الضرائب غير المباشرة ، الجمارك الخارجية والداخلية والمكس والرسوم على المبيعات الخ، ولكنها تختلف عدداً وشدة . وهنالك اخيراً ، فوق كل ذلك ، المصادرة والسخرة ، اذا ما مسّت الحاجة ، وحتى « التيجان » اي الهبات الطوعية والاستثنائية في زعمهم التي كثيراً ما كانت تفرض فرضاً في الواقع في اوقات معلومة ، لمناسبة عيد سنوي او انتصار او ، على العموم ، اي حدث موافق للتعبير عن تعلق الرعايا بالملك .

لا يوحي هذا النظام ، في أي مكان ، بمثل كماله المنطقي ودهائه وشدته في مصر . فهو يتفق فيها والمشاغل الاقتصادية التي تفضي الى سياسة تجارية وموجهة معاً. فان الملك اللاجي الذي يملك القسم الاكبر من أرض البلاد يحصل دخل تلزيم الاراضي ويستثمر الامتيازات التي تعود له واقعاً أم قانوناً . ومن شأن الرقابة الدقيقة التي تقود هذه العمليات وكلاءه الى ممارستها حيال الناس ونشاطاتهم وحيال المحصول والتجول ان تجعل جباية الضرائب أكثر سهولة وفعالية . وقد اكثرت من هذه الضرائب مخيلة هي أخصب وأسلس مخيلة مالية عرفها التاريخ . فبلغ من كمال هذا النظام ان الجزية ، وهي ضريبة جماعية كما رأينا ، قد أمكن ابدالها بضرائب شخصية ، كالرسوم العقارية أو المهنية .

كانت النتيجة ثروة الملوك البطليميين . وأذهلت هذه الثروة اغريق اليونان القديمة الذين لم يعرفوا سوى الميزانيات الفقيرة في مدنهم الصغيرة . وغدت لهم طعماً جاذباً يحملهم على الهجرة والبحث عن العمل والمال الوفير في الملكيات . وقد تعهد الانتيغونيون أنفسهم ، وهم أقل هؤلاء الملوك حظا ، اذ ان اقتطاع الأراضي والسخرة ليسا بالأمر اليسير عند المقدونيين ، بلاطاً بلغ من بذخه انه اقتضى عدة أيام لفاتح « بيدنا » كي يعرض مغانمه في روما بعد انتصاره . وليس مايضاهي شهرة ملوك الشرق المشروعة ، لاسيما شهرة اللاجيين الذين ساورت كنوزهم الاسطورية ، في القرن الأول ، مخيلة الطامعين وأفراد العامة في روما .

في الحقيقة كانت النفقات الملكية باهظة جداً . فان تعهد الموظفين والبلاط ، وسياسة السخاء ونصرة الآداب والفنون ، « والهبات للمدن وعبادة الآلهة » التي اعتبرت اذ ذاك دليلا على « ذهنية ملكية حقاً » ، كل هذا كان الثمن المحتم لثروة توفرها سلطة الملك . ولذلك فان كل مجهود عسكري غير عادي يفرض اللجوء الى استنباط الحيل : إحداث رسم اضافي كذاك الذي فرض لمحاربة « الغالاطيين » النازحين الى آسيا الصغرى والذي أبقى ، بعد

استيطانهم النهائي فيها ، لضمان هدوئهم ضماناً غير ثابت ؛ حجز الثروات المشينة مع ان الانعام الملكي هو مصدرها ؛ استلاب كنوز المعابد الذي أدى في النهاية الى ثورة المؤمنين ، في مقاطعتي سوسة واليهودية مثلاً ؛ تضخيم النقد النحاسي المتداول في مصر . ولكن الحيلة لم تجد ، فلم يمض وقت طويل حتى عجزت كل الملكيات ، الا اذا حدت من نفقاتها الاخرى ، عن تعهد جيوش تناسب حاجاتها .

القوة العسكرية

قال مؤرخ معاصر : « العالم الهليني عالم عسكري » . ان مثالية « الفاسيلفس » نفسها تفسح للقوة مركزاً ممتازاً . وعلى كل ملك ، في الواقع أيضاً ، أن يكون قوياً للدفاع عن نفسه ضد جيرانه والاحتياط لهجماتهم ، ولابقاء رعاياه البلديين الشرقيين تحت نير الطاعة أيضاً . وقد احتاجت الملكيات ، لهذه المهمة الجديدة ، الى جيش دائم استطاعت المدن قديماً أن تستغني عنه ، هو الحرس الملكي والحاميات الموزعة على الحصون . وهكذا فقد أعيض اعاضة عريضة عن الفترات السلمية التي كانت ، باستثناء ولاية الملوك المتعطشين « للمجد » — وهم كثر آنذاك بين خلفاء الاسكندر — أطول منها في العهد السابق ، بين حرب وحرب .

غدت الحرب عملية معقدة . فقد استلزمت جيوشاً أضخم عدداً : أجل لم يبلغ أفرادها المائة ألف رجل الذين جمعهم الاسكندر في النهاية ، ولكنه ليس من النادر أن يجمع أو يقاد منهم خمسون ألفاً . وقد سار التقدم التقني باطراد . فاستخدمت وسائل مادية قوية في محاصرة الحصون والدفاع عنها ، وظهرت الآلات الحربية على المراكب وحتى في ساحات الوغى . وزاد محمول البوارج الحربية وعدد جذافيها ؛ ولكن الاساطيل قد اشتملت أيضاً على مراكب خفيفة للمناوشات والمفاجآت والانتقال السريع . وتنوعت الجيوش كذلك بالوحدات المختصة بالمهام المختلفة : الاستكشاف ، الهجمات الفجائية ، الالهاء ، الاصطدام العنيف ، الملاحقة . وأصبح لديها فرق الفرسان لاستثمار النصر : فان معركة بين جيشين متقابلين تقرر في أكثر الاحيان مصير حملة من الحملات . وكلما استطاع ملك الاتصال بالمناطق التي يسهل عليه فيها القاء القبض على الفيلة ، كان له فيلة يدربها ويستخدمها في الحرب .

كانت هذه التحسينات وهذه التجديدات نتيجة قيام الملكيات الكبرى التي توفرت لها وحدها وسائل تطبيقها . ولكنها استنزفت فيها جهداً أضناها .

أجل لم تكن الملكيات بحاجة الى الرجال . فللملك الحق بتعبئة رعاياه . ولكنه لم يلجأ الى هذه التعبئة على نطاق واسع . فان في تدريبهم أو اعادة تدريبهم على مهنة السلاح بعض المحاذير والاخطار . وللشرقيين بنوع خاص طرائقهم الخاصة في التسلح وخوض المعركة ثبت تأخرها . فباشر الاسكندر توزيع الاسلحة المقدونية والتعليم العسكري المقدوني على الفرس . وتردد خلفاؤه في متابعة الاختبار الذي استاء منه رفاقه . فقام بالمغامرة أحد الملوك اللاجيين ، في أواخر القرن الثالث ، وألف « كتيبة » مصرية . ويضيف المؤلف اليوناني الذي أعلمنا بذلك ان

المصريين ، وقد انتفخوا كبرياء بفعل النصر الذي ساعدوا على احرازه ، اسرعوا الى اعلان الثورة . ولم ينخرط البلديون عملياً الا في فرق المشاة الخاصة الخفيفة وفرق الفرسان ولم يُرق بعضهم بالنقل الى الوحدات اليونانية الا نادراً وبصفة شخصية .

مما لا ريب فيه ان خير الجنود ، ومن الطبيعي ان يثق بهم ملوك من أصل يوناني ، كانوا الجنود اليونانيين ، وفي طليعتهم المقدونيون الذين دللت انتصاراتهم على المدن اليونانية وعلى الامبراطورية الفارسية على تفوقهم العسكري. فهم في فرق المشاة أخف تسلحاً من« هوبليت» العهد الكلاسيكي ، تؤلف « الكتيبة » وحدتهم المقاتلة الرئيسية ، وهي كتلة متراصة من صفوف الجنود المتوازية التي تخفض الصفوف الاولى منها نحو الخارج رماحها التي تتجاوز خمسة أمتار طولاً . وارتدى المقدونيون الدروع في فرق الفرسان، وتألفت منهم أيضاً فرق الفرسان الثقيلة التي تولت الهجوم بقيادة الاسكندر وجعلته يحرز جميع انتصاراته . وقد اثبتت الخبرة – أو هكذا ساد الاعتقاد اذ ذاك – ان الكتيبةلا تتغلب عليها سوى الكتيبة وان الفرسانالمقدونيين لا يتغلب عليهم سوى الفرسان المقدونيين . لذلك ففي كل جيش ملكي كتيبته المقدونية وفرقه وفرسانه المقدونيون . ويجب لتأمين التفوق اما زيادة عدد الجنود في هاتين الوحدتين واما اللجوء الى الاغريق في حال عدم توفر العدد الكافي من المقدونيين . فالاغريق أيضاً ، وهم أخف تسلحاً من الهوبليت وأفضل تدرباً، كفرسانومشاة، من حيث أنهمعلى العموم جنود محترفون، يؤلفون وحدات ضرورية لمكاتفة الوحدات المقدونية ويقدمون الفرق المتخصصة في مهمات الاستكشاف والمفاجأة .

قامت المشكلة اذن في الحصول على المقدونيين والاغريق . وهي لم تواجه الانتيغونيين المقيمين فيمقدونيا؛ ولكنها لم تحل بسهولة في الملكيات الاخرى ، فقد احتفظت هذه بكل من أمكنها الاحتفاظ به من جنود الاسكندر وجنود خلفائه المباشرين . واستمرت في اجتذاب واستقبال المهاجرين . وقد وزعت هؤلاء أفراداً أو جماعات مسكنة اياهم في أراض تؤمن لهم أودهم وأود عائلاتهم . واحتفظت لهم بهويتهم الأصلية ووفرت لهم كل التسهيلات كي يؤمنوا لأبنائهم التربية الجسدية والعسكرية التي تجعلهم قادرين على الخدمة العسكرية . ويبدو أن هذا النظام قد طبق في آسيا الصغرى وفي مصر على الجنود الشرقيين أيضاً ، لا سيما على «الفرس» الذين يغلب أنهم أسكنوا بعيداً عن نجد ايران قبل الفتح اليوناني : ويعود لمثل هذا الاستمرار الفضل في وجود « المقدونيين » في آسيا حتى في ظل الامبراطورية الرومانية . وكان لهذه الطريقة حسناتها للملوك الهلينيين : فهي توفر لهم الرجال دونما عناء للوحدات الذائعة الصيت في جيوش ذاك العهد . ويأتلف هذا الاستعمار العسكري بأشكاله المختلفة مع الاستعمار الزراعي الهام جداً في ملكيات غنية « بالأراضي الملكية » المفتقرة الى اليد العاملة .

بعد تقلبات الخمسين سنة التي عقبت موت الاسكندر مباشرة والتي كثرت فيها الهجرة من

اليونان القديمة، وانتقلت الجيوش من قائد الى قائد ، أصبح من الصعب ، يوماً بعد يوم ، على الملوك المقيمين في الشرق تجنيد الاغريق ، ولاسيما المقدونيين تجنيداً نهائياً . أجل لم تعوزهم الحيلة – التي لجأوا اليها فعلاً ، لاسيما اللاجيون ، منذ أواخر القرن الثالث – في ان يعطوا البلديين جنسية أرفع شأناً، سعياً منهم ورا ، امتراج كاذب. ولكن الحل الذي فضلوه هو اللجوء الى المرتزقة . وقد اتاحت تجنيدهم وسائل عديدة كالاتفاق ، بفضل دبلوماسية سخية ، مع دولة لديها المزيد من السكان ، او استئجار فرقة احد قواد المغاوير ، او ارسال من يجند الرجال ، مع كثير من المال ، الى المناطق التي يكثر فيها طالبو التطوع : فقد قامت لمدة طويلة في رأس « تيناروس » جنوبي اليونان ، ثم في افسس على ساحل آسيا الصغرى، اسواق يتجمع فيها الرجال الذين يطلبون عملاً . ويخدم هؤلاء المرتزقة في وحدات خاصة اغربها ما يعرف عنه باسمها القومي ، فلبعض الشعوب صيت او اختصاص عسكري يُرغّب في استخدامها على الرغم من انها دون صيت واختصاص المقدونيين . فكان من الضروري ان يضم كل جيش جنوداً كريتيين نبّالين بنوع خاص ، وفرساناً طارنتيين مشهورين برشاقتهم ، على انهم اوفر عدداً من ان يكونوا كلهم من مدينة طارنتو . لا بل كان من الضروري ان يضم كل جيش وحدات بربرية من التراقيين ولاسيما من الغالاطيين ، وكان هؤلاء « كلتيين » جاؤوا من شمالي البلقان وأقاموا على مقربة من مقدونيا وفي قلب آسيا الصغرى حوالي السنة ٢٧٥ ، وقد حسب لهم جيرانهم حساباً بسبب شغبهم . ولكنهم قدموا محاربين جليلي الفائدة بصفاتهم الطبيعية واحتقارهم الموت وشغفهم الفظ بالقتال .

ألفت جيوش الملكيات الهلينية ، بالتالي ، أجهزة كلية التعقيد . فقد اشتملت على وحدات دائمة : الحرس والحاميات ، المؤلفة من المرتزقة في أغلب الأحيان ، في الحصون الصغيرة القريبة من الحدود وحصون المدن المحمية . ولكنه يقتضي أشهر طويلة ، اذا ما لاح خطر الحرب ، لتعبئة وجمع القوى التي ستشترك في الأعمال العسكرية . فان تعبئة الجنود الفلاحين وتجهيز الفرق البلدية، ولاسيما تجنيد وحدات جديدة من المرتزقة، قد تتطلب سنتين أو ثلاثاً في بعض الأحيان. أضف الى ذلك ان هذه الجيوش تورث أعباء مالية مرهقة ، فتضطر كل ملكية الى تعهد ادارة مالية عسكرية، مهما قل شأنها، ومرابض للخيول ومستودعات للفيلة ومرائب للآليات ، وعليها أيضاً ان تعطي من يحارب لأجلها أراضي وأجوراً . وهي تؤثر ، على كل حال ، في الظروف العادية، اعطاء الاراضي على دفع الاجور، لأنها أوفر ثروة عقارية ولأنها ترى في ذلك طريقة فضلى لأن تقيم في أراضيها رجالاً لا تتطلب تعبئتهم وقتاً طويلاً ويمكنها بعد ذلك ان تستخدم أبناءهم. ولكن مشاكل مادية خطيرة تواجهها لن يسمح لها ضعفها الداخلي والفوضى المتزايدة ، بعد فترة من الزمن ، ان تتغلب عليها .

ثم ان تفوق روما العسكري ، منذ القرن الثاني قبل المسيح ، سيتوطد بشكل ساطع .

فتقاوم الملكية المقدونية خير مقاومة. ويعود الفضل في ذلك الى ارتفاع نسبة العنصر المقدوني الخاص في جيشها . فهي التي تعبىء في اسرع وقت وباقل كلفة جنوداً يتحلون بالصفات العسكرية . ولكن الكتيبة المقدونية نفسها التي فقدت الكثير من مرونة اشتهرت بها في عهد فيلبوس والاسكندر، وغدت على قسط كبير من الالتكاك والجمود، وعجزت عن المحافظة على تلاحمها في ارض غير متساوية ، قد برهنت اذ ذاك انها اداة حرب دون الجوقة الرومانية . اما الملكيات المقيمة في الشرق فليس لديها سوى عناصر مقدونية ويونانية قليلة العدد جداً . وقد اكّد احد القواد الرومان ، بالاستناد الى تأثير الارض والمناخ : « ان المقدونيين الذين يحتلّون الاسكندرية في مصر وسلوقية في بلاد بابل والمستعمرات الاخرى المتناثرة هنا وهناك قد انحدروا الى مستوى السوريين والفارتيين والمصريين ». هنالك بعض الحقيقة وكثير من المغالاة في هذه التاكيدات المحقرة . ولنكتف نحن بالملاحظة ان الملوك اليونانيين لم يبذلوا جهداً كافيا في تنظيم المتطوعين البلديين تنظيماً عسكرياً . فبدلا من ان يعينوا الجنود الممتازين ضباطاً لجيش مختلط ، ابقوهم جنوداً في وحدات خاصة . وهكذا جارت سياستهم الاجتماعية كبرياء الاغريق وحرصت على استثمار سلبية الشرقيين وطغت على سياستهم العسكرية وأدت بها الى الإخفاق .

٤ — العبادة السلالية

العبادة السلالية : اصولها

هل يجدر بنا اخيراً ان نربط بالانظمة الملكية ، لا بالديانة ، العبادة السلالية التي تؤلف بالفعل واحداً من اغرب تجديدات العهد الهليني؟ لا ريب في انها تحتل هنا مكانها الافضل لانها نتيجة مثالية الانسان المتفوق الناعم برضى الإله واقرب الناس اليه ، أي المثالية الملكية السائدة . ومن الجدير بالملاحظة ان العبادة السلالية لم تتسرب يوماً بشكل من الاشكال الى مقدونيا ، أي الى الملكية التي لم تتسرب اليها مثالية الانسان ، سفير العناية الإلهية، الا تسربا نادراً وبطيئاً ، لانها اصطدمت فيها بمفهوم آخر هو مفهوم الملكية القومية . فبين الملكية الشخصية والملكية القومية يكمن الخلاف الحقيقي مرة اخرى .

اجل قد يستهوينا ان نبحث عن هذا الخلاف في مكان آخر اي ، عندما نلاحظ ان الملكية المقدونية قد حكمت ارضاً اوروبية ، ان ننسب الى نشأة العبادة السلالية ونموها تأثيرات شرقية نها لم تتخط البحر الايجي. ولكن هذا التفسير غير مقبول اذ ان ملوكاً مقدونيين عديدين يرجح كانوا موضوع عبادة في اوروبا، ولكن في اليونان لا في مقدونيا، في مدن قد تكون ارتبطت به سياسياً ولكنها غريبة عن المملكة المقدونية بالمعنى الحصري ، واذ ان العبادة السلالية ، كما ورست في الشرق نفسه ، ليس لها سابقات محلية . فالفرعون وحده ، بين كافة الملوك الشرقيين ، كان موضوع عبادة قبل الاسكندر . وقد استمرت هذه العبادة التقليدية باقدم مظاهرها . فاعتبر اللاجيون ، شأن الفراعنة ، ابناء آلهة وآلهة، ولكن لرعاياهم البلديين فقط .

ثم انتظمت في الوقت نفسه عبادة موازية جديدة في مفهومها ومظاهرها نرى عبادات اخرى مماثلة لها في الملكيات الشرقية الاخرى حيث لم يعتبر الملك من قبل اكثر من وسيط بين الآلهة والشعب . وهكذا فان العبادة السلالية ، التي هي العباده الهلينية الحقيقية ، قد اشتقت من اصول يونانية بنوع خاص

وفسرت لها المعادات اليونانية مرتكزا كافي المتانة والانساع لتحقيق النمو الذي أحرزته . وكان هذا المرتكز معقداً على كل حال ، أو بالأحرى كثير الأجزاء . فهنالك في الدرجة الأولى مثال غامض جداً وقابل بالتالي لشتى التفسيرات هو مثال الـ *Daimôn* و *Tyche* (الحظ) والروح أو الكائن الإلهي الذي يحيي ويلهم ويحمي كل فرد . فعند من يستطيع هذا الجزء الصغير من الالوهة ان يظهر أعظم قوة وجدارة بالعبادة منه عند لفاسيلفس ، وهو يوفر له النجاح والسلطة ؟ وهنالك في الدرجة الثانية عبادة الاموات التي يقوم بمراسمها أحفاد لم تعوزهم الوسائل في هذا المجال ، لاستمالة أصدقائهم والمعجبين بهم بغية الحصول على اشتراكهم فيها . وهنالك أخيراً عبادة « البطل » ، ذلك الانسان العظيم الذي ألى المعجزات وانتقل بعد موته الى جوار الآلهة ، ولاسيما البطل « المؤسس » ، مؤسس المدن بنوع خاص ، أي ذلك الذي أوجد مجموعة بشرية جديدة تعبر له ، في تأدية عبادتها له ، عن الفوائد التي أسداها لها ، وتضمن في الوقت نفسه تلاحمها الداخلي ووثوق الصلة التي تشد جميع أعضائها : فهل يا ترى من ابطال يفوقون الملوك الهلينيين بمآثرهم وتشييد المدن الكثيرة ؟ كل ذلك قد اتحد بعضه ببعض ، وربما بعناصر أخرى أيضاً ، وأعطى الدور للعبادة السلالية في كافة الملكيات المقيمة في الشرق .

جرت من قبل محاولات رضي عنها الاسكندر وشجعها لإقامة عبادة لشخصه وهو بعد في قيد الحياة ، غير أنها لم تحرز على العموم نجاحاً باهراً . ولكنه كان من الطبيعي ، بعيد وفاته ، ان تضعف أعظم المقاومات شدة ، نظراً لصفاته ومآثره التي فاقت مقاييس الطبيعة البشرية . فقامت المنافسة حول إرثه الروحي وحتى حول بقاياه الفانية . فضرب « أفمينوس » رئيس ديوانه القديم ، في وسط المعسكر ، الخيمة الملكية وأقام فيها مذبحاً وعرساً ووضع عليه شارات الملكية : وقد اعتبر الاسكندر متربعاً عليه بشكل غير منظور وملهماً المذاكرات الجارية بحضوره وأفلح مزوران مصر ، بطلينموس الاول المقبل ، في ان يستولي بخدعة على رفات الاسكندر وينقله الى الدلتا . وشيّد أخيراً في الاسكندرية صريح ضخم غدا مركزاً لعباده الاسكندر التي فرضت كعبادة رسمية على كافة سكان مصر

. ولكن عبادة الاسكندر ، اذا هي كانت سابقة ، لم تكن مثالاً وقدوة . ففي مصر نفسها ، حيث نستطيع تتبع تطور العباده العام ، ظهرت عباده السلالة اللاجية ونمت دون ان تربط بعبادة الاسكندر .

العبادة السلالية: الاشكال

ان وضع تاريخ هذه العبادة يذهب بنا بعيداً ويغدو بالنتيجة مستحيلاً . لا بل ان درس الأشكال التي انطوت عليها لا يمكننا أن نسير فيه الى حيث نتمنى . ولكن هنالك حقيقة راهنة أعني بها تنوّع هذه الأشكال الكثيرة تنوعاً غريباً .

هنالك تنوع في غاية ممارسة العبادة . فيمكن ان تؤدى لهذا الملك الميت أو ذاك من السلالة أو لمجموع ملوكها الموتى أو للملك الذي على قيد الحياة وحده أو للملكة أو لأعضاء آخرين من الأسرة الملكية على السواء ؛ لا بل ان السراري الملكيات أنفسهن ، وحتى غلام الملك ، قد حظوا أحياناً بمظاهر التكريم الالهي .

وهنالك تنوع في العبادة نفسها . فالشخص الذي هو موضوعها قد يشرك بالالوهة التي قد تتنوع هي نفسها الى ما لا نهاية له ، ولكن التفضيل يكون ظاهراً وطبيعياً لمصلحة أفروديت عندما يكون هذا الشخص امرأة . ولكن مرحلة الاشراك هذه ، وحتى مرحلة المماثلة ، لا يقتصر عليهما: فالعباده تؤدى الى ملك أو، كما في مصر، الى ملك وزوجته يؤلهان شخصياً ويضاف الى اسميهما الشخصيين لقب أو عدة ألقاب عبادية أو لقب « ثيوس » ، الاله ، أحياناً .

وهنالك تنوع في مظاهر العبادة : معبد خاص أو مذبح فقط ؛ تمثال مزدان بخاصيات مختلفة أو موضوع في معبد إله آخر ؛ صلوات وذبائح وتقادم في مواعيد قد تكون قريبة أو بعيدة يقدمها كهنة أو قضاة من مراتب مختلفة ؛ أعياد خاصة ترافقها احتفالات ومباريات تختلف نوعاً وفخفخة باختلاف الأمكنة .

ان تنوع الاشكال هذا له مايبرره تنوع المؤمنين والحرية التي تطلقها الحكومة في مبادهات لا يمكن ان تقع منها موقع الاستقباح . ويعلن بعض الأفراد وبعض الجماعات المحدودة العدد عن تقواهم بتقادم متواضعة . وتنشىء المدن عبادات بلدية — وهي اكثر اشكال العبادة رواجاً — باقرار مراسيم أبعد من ان تقتفي المراسيم التقليدية ، ولكن ذلك لا يمنع الملوك عن الاسهام في النفقات بهبات هي في الغالب اوقاف تستخدم ايراداتها لتوفير المزيد من الزهو والعظمة للاحتفالات . ويقدم الملوك أنفسهم اخيراً على بعض المبادهات ، اما اكراماً لجدودهم ، واما إكراماً لأنسبائهم ، او اكراماً لأنفسهم احياناً . وهم يتصرفون في عملهم هذا تصرف الأفراد ، والفارق الوحيد هو ان لديهم وسائل دعاوة وعمل لا تتوفر للافراد . فلديهم النقد الذي تتداوله كافة الأيدي والذي ينتقون له على هواهم الرسم والخاصيات والنصوص ، ولديهم الأراضي والموارد لتشييد المعابد ومكافأة خدّامها وإقامة الاعياد . ولديهم « الاصدقاء » والموظفون الذين لا يرضون إلا بالاشتراك بحماس في هذه العبادات ، ولو كانت عبادات خاصة مبدئياً .

عند هذا الحد وقفت سلالة الاطاليين ، وقد برهنت على كل حال عن تزنّ نادر في هذا المجال اذ انها ، من جهة ثانية ، لم تؤله سوى الملوك الموتى ولم تسمح بتأليه غيرهم . ولكن بعض

الملكيات الاخرى قد ذهبت الى ابعد من ذلك لا سيما وانه ليس هنالك من حدّ طبيعي بين الملك في حياته الخاصة والملك في حياته العامة ، لا ولا بين أملاك الملوك والمملكة . فقد أضيف في مصر الى عبادة الملك كفرعون التي استمر البلديون في ممارستها ، وفاقاً لطقوسهم التقليدية ، عبادات يونانية فرضت على جميع السكان وسهرت الادارة على الاحتفال بها باللغة اليونانية ووفاقاً للطقوس اليونانية : عبادة بطليموس الاول وعبادات سلسلة الازواج الملكيين الموتى واخيراً عبادة الزوج الملكي الذي على قيد الحياة اي الاخ والاخت المتحدين بالزواج والمشتركين في السلطة . اما في اوج سلالة السلوقيين ، في اواخر القرن الثالث ، فاننا نعرف ، بأقل تفصيل ودون جزم في استمرارها اللاحق ، عبادة الجدود وعبادة الملك الحي وعبادة الملكة التي تنظمها الدولة معينة في كل مرزبانية رئيس كهنة ورئيسة كاهنات . وهكذا فان اللاجيين والسلوقيين ، على الاقل ، قد اضافوا ، الى عبادات متنوعة جداً ، عبادة رسمية متشابهة الشكل ، شاملة ارض المملكة بكليتها ، موزعة على مقاطعات هي المقاطعات الادارية نفسها ، يخدمها كهنوت قد يشرف رؤساؤه على الكهنة المحليين والعبادات المحلية ، وتستلزم موجبات تفرض على عموم الرعايا . وان هذه المرحلة لنتيجة منطقية للنظام السائد ، اذ ان موالاة السلالة تستتبع في النهاية التعبد للمالك سعيداً .

العبادة السلالية : مغزاها وأهميتها

لفت بعض المعاصرين النظر الى انه ربما كان هنالك ، في بعض مظاهر التقوى نحو الملك ، شعور ، برز بقوة عظيمة عند نشأة شعوب كثيرة ، ثم استمر أو عاد الى الظهور ، في أن حيوية الملك ضمانة للخصب العام ، وبالتالي لرخاء مملكته وسكانها . وهذا أمر ممكن اذ ان الفكرة تتراءى فعلاً في بعض الصيغ النادرة على كل حال . ولكن صدق هذه الصيغ موضوع شكوك مشروعة : فكيف السبيل الى اكتشاف المشاعر الصادقة حقاً في سير ادارة يرضى عنها الولاة حتى ولو لم يستخدموا سلطتهم لفرض الاشتراك فيها ؟ أضف الى ذلك ان ما يعوزنا بنوع خاص هو الصلة الضرورية بين هذه الفكرة والتأليه . فقد كان يكفي الملك ، حتى يكون ضمانة ورمزاً ، ان يكون وسيطاً دونما حاجة لأن يصبح إلهاً : ولنا في أكثر من بلاد من بلدان الشرق القديم مصداق على ذلك .

في الحقيقة ، تعبّر العبادة السلالية نظرياً عن عواطف المؤمنين لا من حيث هم رعايا بل من حيث هم بشر . وتشمل هذه العواطف الاعجاب المبهوت أمام هذا القدر من العبقرية ، وهذا القدر من السلطة في جميع الحقول ، وهذا القدر من السعادة ، وهذا القدر من الانعامات يهبها الآلهة بشرياً سفير العناية الالهية ، وعرفان الجميل للخدمات المؤداة ، والأمل الوطيد باحسانات مقبلة أعظم شأناً أيضاً : وبكلمة موجزة تشمل مثالية الفاسيلفس نفسها كما وردت في اللغة الرسمية بتسميات « المخلّص » والمحسن التي ترتدي قيمة عبادية في الدرجة الأولى . وهنالك لقب أقوى ايحاء : فمن حيث الملك هو الـ « ابيفانيس » أيضاً ، فانه إله « يتجلّى » .

ومن ناحية نظرية أيضاً ، يبقى انشاء أكثر هذه العبادات واسهام المؤمنين فيها أعمالاً حرة

وبديهية : فالعواطف التي سبق تحديدها ليست من تلك التي تستطيع سلطة سياسية ان تفرضها. وكانت هذه القاعدة مطردة باستثناء حالتين : حالة العبيد الملكيين المرغمين بالضرورة على ممارسة عبادات سيدهم الخاصة ، مع اننا نجهل ما اذا كانت سلطة هذا السيد قد امتدت اذ ذاك الى فدادي الأراضي الملكية ؛ وحالة العبادات الرسمية ، مع اننا لا نعلم شيئاً عن مدى موجباتها حيال الرعايا : فواقع الموجبات المالية نفسه لم نتحقق منه الا في مصر فقط . وان فكرة العبادة السلالية ، في الحقيقة ، تذكرنا بالعبادات البلدية العديدة التي ليس من ريب في ان انشاءها يعود الى قرار السلطات في كل مدينة ، كما يتضح ذلك من تنوع أشكالها ومن اختلاف تواريخ انشائها .

حريّ بنا ، بموازاة الناحية النظرية ، ان لا نهمل وضوح الناحية العملية ، فمما لا ريب فيه ان بداهة عواطف المؤمنين ، الراغبين في الاعراب عن تعلقهم أو الخاضعين لضغط ليس ضغطاً معنوياً فقط ، لم تكن في أكثر الأحيان سوى ظاهر بداهة فحسب . ويجوز القول نفسه عن بداهة عواطف المدن التي تنشد أبداً الانعامات الملكية والتي تدرك ادراكاً مسبقاً أحياناً ايحاءات المراجع العليا .وهكذا فان العبادة السلالية تعبر عملياً عن عواطف كثيرة المفارقات يتعذر علينا ان نميز بين نصيب الصدق ونصيب التملق فيها،لا سيما وليس أمامنا سوى المستندات الرسمية التي انتقلت الينا عن طريق الكتابات .

فمن حيث ان العبادة السلالية تحمل، بمثل هذه القوة،طابع المثل السياسية والواقع السياسي، فهل هي تعبر عن عاطفة دينية حقيقية يا ترى ؟ قد يكون من الحكمة ان لا ننفي ذلك نفياً باتاً. وسنعود الى هذا الموضوع في سياق البحث . ولكن الشيء الثابت هو أن الاحتفال بالعبادة قد اقتصر في أغلب الأحيان على القيام بطقوس اصطلاحية لا تتعدى قيمتها قيمة الحركات الرمزية . ولعله يجدر بنا ان نفسر بذلك كيف ان اتساع العبادة السلالية ، وحتى تعميمها كعبادة رسمية، لم يصادفا مقاومة ، على ما نعلم . فان الوثنية ، التي لم تُقِم حدوداً واضحة المعالم بين ما هو بشري وما يفوق قوة البشر وما هو إلهي ، قد أوجدت ، بهذا الصدد ، حقلاً مؤاتياً جداً . أجل كان هنالك شعب يؤمن باله واحد ، هو الشعب اليهودي . ولكن السلطة قد سلكت حياله سلوكاً حكيماً ، وان هو ثار على الملكية السلوقية بعد السنة ١٦٦ ، فالعبادة الملكية أبعد من أن تكون السبب الرئيسي للثورة ، لأنها لم تدخل أورشليم الا بمظاهر عيد لمناسبة ذكرى جلوس الملك ، وليس لهذه المظاهر ، بالضرورة ، أي مغزى ديني . أما في المناطق الأخرى فلم تقم أية صعوبة بوجه السلطة على الرغم من أنها كانت حرة طليقة في تصرفاتها .

اضف الى ذلك ان تأدية العبادة ، سواء كانت بديهية او موصى بها او مفروضة فرضاً ، لم يكن لها ، في ما يظهر ، فعالية سياسية . ولا يعجب من ذلك إلا من ينسى ان الاغريق قد جهلوا ابداً النظام الثيوقراطي وان آلهة مدنهم لم يتدخلوا قط في شؤون مدنهم وان اعظم هاتفي

الغيب شهرة قد اخفقوا على العموم عندما خرجوا عن تحفظهم المتحذر . ولعله من المرجّح ان الملوك ، بقبولهم تعظيم هؤلاء الهاتفين او بلجوئهم اليه قد استهدفوا اعلاء شأن نفوذهم الشخصي وايثاق تعلق مؤمنيهم بهم . ولكن هذه الطريقة قد بقيت دون جدوى لأنها طبقت على جميع الملوك دون استثناء ففقدت بالتالي قوّتها . فالقرارات الشرعية والمظاهر المؤثرة ، مهما بلغ من امرها، لم تخدع احداً. ولم تحل دون اقدام المؤمنين على العصيان والثورة عندما تتعرض مصلحتهم للضرر او عندما تعطيهم الظروف الراهنة بعض الامل بالنجاح . ومن الامور الثابتة ان كمال تنظيم العبادة هنا او هناك لم ينجح في تأخير انحطاط أية ملكية من الملكيات .

الخـــاتـمة

ان قـدرة الاغريق على الابتكار السياسي لم تنطو إذن ، في العهد الهلنيني ، عـلى أي دليل من أدلـة النهكة . فهم قد حاولوا انقاذ المثال الجمهوري بتنظيم الاتحادات وتوسيعها . ولكنهم ابتكروا ، مع الملكية ، أشياء جديدة تنطبق على الظروف التي نشأت عن الفتوحات .

ألّفت الملكية ، اقله في الشرق ، بين مثالية الانسان المتفوق وبين النظرية القانونية للشرعية أي نظرية الحق السلالي في التملك . وتكوّن هـــذه النظرية قاعدة متينة للسلطة المطلقة كحق إلهي وبشري معاً من جهة ، وللخلافة الوراثية التي تجنّب الفوضى وتتيح تلافي نتائج الكوارث من جهة اخرى . وانطلاقاً من هذه السلطة تكوّن جهاز اداري ومالي وعسكري كامل توّجته العبادة السلالية بغية ضمان تنفيذ قرارات الملك وجمع القوى المادية والأدبية في أراضيه بين يديه، وهو جهاز على قليل أو كثير من التعقيد لأنه يأخذ بعين الاعتبار الظروف المحليـــة ، ولكنه يقرب من الكمال أحياناً . وفي الحقيقة برهنت العبقرية اليونانية ، في الملكيات ، عن امكانات عقلية وتقنية فائقة .

غير ان الملكيات كلها قد أخفقت . وقد بدأ الانحطاط يدب فيها جميعها في أوائل القرن الثاني كأبعد حد ، وبرز مادياً في عجزها عن مقاومة قوة روما . فكان أمر زوالهـا المبكّر منوطاً بروما دون غيرها : ولم تضمن هذه أو تلك من الملكيات بقاء أطول الا بفضل تزدّدات روما فحسب . ولكن هذا الانحطاط يبرز أيضاً في حقول أخرى من التنظيم الملكي .

يجب الاعتراف هنا بأن الاغريق قد أخذوا على عاتقهم ، بسبب قلة عددهم ، وفي وجـــه الكتل البشرية التي كان من الواجب عليهم تحريكها وتطويرها ، مهمة ثقيلة جداً ، لا سيما على الصعيد الاجتماعي .

الفصل الثالث

الاقتصاديات والمجتمعات

لم تكن ظروف الحياة الاقتصادية والاجتماعية دون ظروف الحياة السياسية تغيراً ، وانما الجدة الكبرى هنا هي توسيع النطاق الجغرافي المفتوح أمام مشاريع الاغريق والاتصال الذي أقيم ، للمرة الأولى في التاريخ ، وبهذا القدر من التآلف ، بين اقتصاديات ومجتمعات مختلفة في الأصل اختلافاً كلياً . هذه هي النتيجة المباشرة لفتح الامبراطورية الفارسية على يد الاسكندر، وقد أبقى عليها ، في جوهرها ، طيلة قرون عديدة ، خلفاء الفاتح . وقد شبه بعضهم حملة الاسكندر باكتشاف أمريكا الذي كان منطلقاً للأزمنة الحديثة . ولكن في هذا التشبيه بعض المغالاة ، لأن الامبراطورية الفارسية لم تكن « أرضاً مجهولة » للاغريق قبل ان يمسوا أسيادها . غير أن المقارنة بين الحدثين أمر ممكن من حيث اتساع نتائجها وديمومتها في بعض النقاط .

١ ــ العالمان

اليونان القديمة

فقد أصبح هنالك عالمان متشاركان بفعل تفوق أحدهما العسكري. وقد اختلف وضعهما وحاجاتها الخاصة اختلافاً شديداً.

في العالم اليوناني القديم ، ظهرت بوادر الهبوط على الحياة الاقتصادية منذ منتصف القرن الرابع ، او اقله لم يعد هناك التئام حالص بين المجتمع وبين التطور الاقتصادي . فقد صعب على صغار الملاكين ، يوماً بعد يوم، ان يؤمنوا معيشتهم بتعاطيهم شخصياً زراعة أراضيهم الريفية . وغدت المنافسة بين المدن الصناعية أشدّ عنفاً ، بينما غدت الطلبات الخارجية نادرة ، على اثر ظهور صناعات محلية، لا سيما صناعة الخزفيات، في ايطاليا وخلقيس وفي روسيا الجنوبية نفسها. وجاءت الحروب الخارجية او الأهلية ، الى جانب ذلك ، تزيد البؤس وتساعد على ازدياد الارتزاق : فارتفعت ارتفاعاً تصاعدياً نسبة السكان الاحرار في اليونان القديمة الذين لم يؤمنوا بعد ذلك في وطنهم معيشتهم ومعيشة عائلاتهم ، فأرغموا على المخاطرة بحياتهم في خدمة دول اجنبية

قد تكون أحياناً في عداد اعداء الاغريق . فلم يكن لهذه الازمة من حل سوى عن طريق ثورة اجتماعية او عن طريق العودة الى الاستعمار الذي توقف منذ قرنين . فجاءت السيطرة المقدونية على المدن التي مزقتها المنازعات الداخلية تسدّ المنـــافذ أمام الثورة الاجتماعية . ولكن حملة الاسكندر فتحت الشرق أمام الهجرة اليونانية .

الشرق

اختلف هذا الشرق اختلافاً لا حدود له .

قامت فيه اراض بالغة الخصب استثمرتها منذ زمن بعيد استثماراً جيداً جمـــاهير مجتهدة نشيطة اعتادت العمل الذليل تنفيذاً لأوامر السيّد : هذه الاراضي هي مصر وبلاد بابل، درّتا الفتح الفريدتان . وقامت فيـــه مناطق اخرى اقل خصباً لزراعة الحبوب اعتمدت فيها جزئياً زراعة افضل تلاؤماً مع المنـــاخ وضعف الموارد المائية وموجهة شطر زراعة الاشجار المثمرة ، الكرمة وشجرة الزيتون بنوع خاص : كالشواطىء المتوسطية في آسيا الصغرى وسوريا ـ فينيقيا مثلاً . اما في واحات سوريا وفي بلاد الفرس ومنطقة البختيار التي لا نعرف عنها الشيء الكثير ، فاننا نعتقد على الاقل باستخدام مياه الينابيع والآبار فيها استخداماً دقيقـــاً لزراعة البقول والخضر . ولكن ما زالت، بين هذه المناطق الزراعية المتطورة الى حد بعيد ، مساحات شاسعة بقيت الحياة الريفية فيها بدائية جداً غير مختلفة احياناً عن المظاهر الراعوية والبذوية .

ونشاهد التناقض نفسه بصدد الانتاج الصناعي . فكانت هنالك يد عاملة واسعة الاختبـار لديها تقنيات ابعد تقدماً احياناً من تقنيات الاغريق تعمل في حوانيت المدن وحتى في المصـانع الملحقة بالمعابد حيث الاشغال خدميّة بنوع خاص. ولكن القسم الاكبر من الامبراطورية الفارسية ما زال في مرحلة العمل غير المتقن بغية سدّ حاجات العائلة أو القرية .

وتوفرت للتجارة بعض الطرقات لسير القوافل والوحدة اللغوية التي تحققت في هذا الحقل كما في الادارة لمصلحة اللغة الآرامية . ومن الثابت ان التجارة قد اتصفت ، هنا او هناك ، ببعض النشاط ، لا سيما في جوار البحر المتوسط ، على الرغم من ان المرافىء اليونانية في آسيا الصغرى والمرافىء الفينيقية قد فقدت الكثير من اردهارها الماضي. ولكن مناطق واسعة لم ترل تعتمد في معيشتها اقتصاداً شبه مغلق ، منكمشة على نفسها ، حاهلة النقد تقريباً . وكانت المعادن الثمينة متوفرة في كل مكان ، باستثناء الفضة في مصر . وقـــد ضرب الملك والمرازبة الفرس نقوداً ، وبعض المدن التجارية ايضاً ، ولكن بكميات غير كافية . وكثيرا ما لجأوا الى تخزين المعادن الثمينة بشكل سبائك في حصون العواصم وبشكل مصوغات في القصور ومساكن الاثرياء والمعابد التي سقف بعضها « بقراميد » من الفضة والذهب . وعـــلى الرغم من النقود اليونانية ، لا سيما الاثينية منها ، التي انتشرت في بعض الاحيان بعيداً في الداخل ، كان الاقتصاد النقدي ابعد من ان يحرز الانتصار في كل مكان ويبرر اثره في إنماء اشكال تبادل غير المقايضة الاوّلية .

ويمكن القول نفسه عن التفاوت الاجتماعي في البلدان التي احتلها الاسكندر . فكانت آسيا

الصغرى الغربية وسوريا وفينيقيا ومصر وبلاد بابل مناطق عرفت فيها الحياة الحضرية ، وهي على العموم قديمة جداً ، نهضة لامعة احياناً . غير ان هذه الحياة كانت في هبوط في كل مكان تقريباً . اضف الى ذلك انها لم تبد في كل مكان بمظهرها في اليونان . فالطبقة الكهنوتية قد لعبت فيها دوراً اعظم اهمية ولم تسيطر عليها قط فكرة وحدة المصالح بين المواطنين المتساوين حتى ولا مجرّد فكرة المواطن . وقد خضع القسم الاكبر من الامبراطورية الفارسية خصوصاً لنظام اجتماعي آخر . فالنـــاس توزعوا فيها اجهزة ثيوقراطية مرتبطة بالمعابد اي بكهنتهم وحتى برؤساء كهنتهم، او قبائل تخضع لرئاسات شبه اقطاعية تشمل ذوي الاخاذات والزعماء وتنتهي عند القمة بشخص الملك . وارتـــدت الفدادية اشكالاً مختلفة ، حتى العبودية احياناً في جوار المعـــابد ، وكانت عمليّاً نظاماً لكتل عمالية كثيرة ، كما كانت ، في كل مكان تقريباً ، نظاماً للفلاحين الملحقين بالاراضي التي يستثمرونها بمراقبـــة الوكلاء . وقد شبّه اغريق القرن الرابع « البرابرة » بفدادي مدينة سبارطة ، وهم لم يأتوا بهذا التشبيه عملا اعتباطياً .

شركة ام استثمار ؟

كان العالمان مختلفين إذن . فهل كانا متكاملين يا ترى ؟ يمكننا اثبات ذلك لحاجات الاغريق . فان اراضي واسعة الارجاء قد توفرت لنشاطهم وهجرتهم واستعمارهم وتقنيتهم الزراعية والتجارية والهندسية والادارية . وكانت اليونان بحاجة الى الشرق لتأمين بقائها بكل ما في كلمة « الحاجة » من معنى مادي . ومهما كان من قلة عدد مرشديها الذين وعوا ذلك ، فانها قد شعرت شعوراً غامضاً بهذه الضرورة وانتهزت الفرصة السانحة . فما القول عن الشرق اذن ؟ انه لدن قابل للمعالجة غني بامكانات التطور . يقدم اراضيه وموارده الطبيعية ، وهو بحاجة لمرشدين كي يحسن استثمارها واستخدامها . ويقدم طاقاتـه البشرية ايضاً . ولكن الخيار الذي سيتوقف عليه المستقبل يجب ان يتم عند نقطة الانطلاق . باستطاعة الاسياد الجدد ان يسيروا بهذه الطاقات البشرية شطر تطور مماثل لذاك الذي سبق لجدودهم اليونانيين ان قطعوا مراحله، بغية اشراكها في الانتفاع بالخيرات الهادية التي سيكثرها المجهود المشترك . وباستطاعتهم، على نقيض ذلك ، ان يحاولوا حصر البلبلة الاجتماعية بالاحتفاظ لانفسهم بفوائد استثمار اقتصادي اقل شمولاً لانه يرتكز الى عمل يد عاملة متدنية ، ولكنه يكفي لسدّ حاجاتهم الحالية الملحة .

ان التجربة الهلنّينية ، التي كان من شأنها ان تؤدي الى نتائج تفوق أهميتها كل تصوّر ، قد أضارّها تردد الاغريق أو أنانيتهم . فبمقدار رؤيتهم للحلّين واختيارهم بينهما اختياراً واعياً — ولم يحدث ذلك باستمرار — قد اختاروا بالتفضيل الحل الثاني الذي كان يحد من نشاطهم . ولا ريب في ان الاسكندر كان آثر الحل الأول ، كما يبدو ذلك من الميول التي ينم عنها سلوكه الشخصي وأعماله السياسية حيال البلديين . ولكن العدد الأكبر من مرافقيه لم يخفوا استنكارهم ، فكان الاهمال ، بعد وفاته ، نصيب محاولاته الامتزاجية . ولم تعـــد هذه المحاولات الى الظهور الا في عهد متأخر ، تحت ضغط الظروف ، ودون هدف معين اجمالاً ، ولكنها لم تجر ، على كل

حال ، على النطاق الواسع الذي كان من الواجب ان يفرضه عدم توازن الظروف الجغرافيـــة والبشرية . وهكذا فان الاغريق قد ألزموا نفسهم بعمل يتجاوز حدود طاقتهم ، لأنهم آثروا ، اعتداداً بتفوقهم ، الاستثمار على الشركة .

٢ ــ الاقتصاد والمجتمع في اليونان القديمة

لم تجن اليونان القديمة فائدة طويلة الأمد من استثمار الشرق هذا .

١ – التطور الاقتصادي

انصهرت اليونان منذئذ في وحدة اقتصادية أعظم اتساعاً ، الى حد بعيد ، منها في السابق . وحدّت المسافات وصعوبات النقل البري من مدى هذه الوحدة نحو الشرق . ولكن هـــذه الوحدة تضم مع ذلك ، بأقل تقدير ، المتوسط الشرقي بكليته – مع بعض التمديدات نحو صقليا وقرطاجة، وحتى نوميديا ماسينيسا – حيث تسهل المواصلات البحرية وحيث نستطيع التأكد من مطابقة التطور في الأسعار . فالعالم اليوناني القديم يتأثر اذن بمنـــافسة بلدان ان لم تكن « جديدة » فان الطبيعة كانت لها أكثر سخاء على الأقل وتوفرت لها ، على كل حال ، يد عاملة ألفت مستوى حياتيا متدنياً .

البحبوحة الأولى

وثب الاقتصاد اليوناني في البداية وثبة قوية . فالحرب نفسها التي ترفّقت نسبياً آنذاك باليونان وعاثت فساداً في البلدان الأخرى، وحاجات الجيوش المتنقلة ، التي تستهلك كثيراً ، والاضطراب وحتى الشلل التام أحياناً اللذان يصاب بهما الانتاج وتيارات المبادلات العادية ، كل ذلك ساعد على عودة الازدهار الى حـــين . وارتفعت أسعار كافة الحاصلات الزراعية والصناعية بسبب تضاؤل العرض وازدياد الطلب ونمو التداول النقدي بفضل ضرب المعادن الثمينة التي كانت تكنز في الشرق قبل ذاك العهد . أجـــل طرأت على الأسعار تقلبات كبيرة ومفاجئة . فكان لنشاط بعض المضاربين أثره أحياناً : من ذلك أن مرزبان مصر كليومينوس قد احتكر في أيام الاسكندر القمح المصري المعد للتصـــدير فأسهم بذلك في رفع أسعاره في جميع حوض بحر ايجه بغية تحقيق أرباح طائلة. ولكن هذه المضاربات لم تكن سوى ظروف عارضة أظهرت اتجاهاً عاماً نحو رفع الأسعار . ومن حيث أن اليونان تستورد القمح ، فانها قد تضررت من هذا القبيل وشكت من القحط . ولكن ذلـــك ليس بالنسبة اليها سوى الوجه الثاني المحتمل لوضع جزيل النفع على العموم . فهي تجـــدّ وتنتج لمستهلكين أوفر عدداً لا يعوزهم المال . أضف الى ذلك ان مبيعاتها وعودة الجنود والمهاجرين اليها تنقل اليها قسماً من ثروات الشرق ، فتحصل من ثم على رؤوس أموال يساعد توفرها على انماء حركة الانتاج .

لذلك عرفت عهداً من البحبوحة . ولكن هذا العهد لا يدوم عملياً الى ما بعد السنة ٢٨٠ ، أي الى ما بعد استقرار العالم الهليني . فحوالي هذا التاريخ قام توازن اقتصادي جديد وطابق الانتاج الحاجات وانتظمت التيارات التجارية . وان اليونان القديمة ، التي لم تضمحل الحروب فيها بل تعددت وغدت أشد قسوة، لم تستمر بعدئذ المستفيدة الأولى ، عن طريق الرجال الذين غادروها ، من العالم الشرقي الذي فتحه الاسكندر أمام مشاريعها .

منذ السنه ٢٨٠ تقريباً تدنت الأسعار ، وقد دام هذا التدني حوالي ثلاثين سنة ، أقله للمنتوجات الزراعية التي ترتدي وحدها صفة الديمومة بطبيعتها ونوعها ، والتي يمكن بالتالي مقارنة أسعارها . وبعد منتصف القرن الثالث ارتفعت بعض الأسعار مرة أخرى . ولكن القسم الأكبر منها لم يطرأ عليه أي تغيير وبقي متدنياً . غير أن اليونان ، في كلا الحالين ، لم تستفد قط .

مزاحمة الزراعة والصناعة

فالحبوب هي المنتوج الرئيسي الذي لم تبق أسعاره في المستوى المتدني الذي بلغته حيناً من الزمن، وهي بالضبط ما تفتقر اليه اليونان. وليس لدى الريفيين منها سوى كميات فائضة قليلة للبيع . لذلك فان ارتفاع الأسعار لم يؤمن لهم الثروة بينما هو أضر بسكان المدن . فبرزت مشكلة التموين في مدن عديدة بشكل مستعص حاد . فاسند أمر حلها أو بالأحرى تخفيفها الى بعض القضاة وأثرياء المواطنين الذين تعهدوا ادارة أموال خاصة كثيراً ما تغذيها الاكتتابات وسعوا وراء زيادة الاستيراد وتنظيمه محاولين تأمين المواد الضرورية للأسواق وبيعها بأسعار معقولة للفقراء . وقد لجأ بعض الملوك الراغبين في اجتذاب احدى المدن اليهم الى اهدائها شحنات من الحبوب أو الى توفيرها لها بأثمان منخفضة ، لأن السخاء سلاح من اسلحة دبلوماسيتهم . ولكن مهما كان من أرابة رجال الدولة اليونانيين ، فانها لم تقض على المشكلة التي تصبح مقضة عند اقل تغير مناخي او اقل حدث عسكري . وقد اشتكى سكان مدن عديدة من غلاء الغذاء الرئيسي ومن الفاقة احياناً . وقد جاء على لسان احد الهزليين في اواخر القرن الرابع قوله ان الناس الجائعين في اثينا يتغذون املاً وهواء عليلاً .

مقابل هذا القحط في انتاج القمح ، اثبتت تربة اليونان جودتها لزراعة الاشجار المثمرة ، واهمها آنئذ ، كما في السابق ، الكرمة وشجرة الزيتون. ولكن الزيت لم يرتفع سعره عملياً بعد السنة ٢٥٠ ، واذا ما بدا بعض الارتفاع في سعر النبيذ ، وهو ارتفاع معتدل على كل حال، فهو لم يتناول نبيذاً تنتجه اليونان القديمة. ومرد ذلك الى ان زراعة هذه الشجيرات او النباتات الزيتية السنوية ، كالسمسم مثلاً، قد نمت نمواً كبيراً ايضاً واتقنت في البلدان الشرقية . وتثبت النصوص النادرة التي لدينا ميزات طرائق الاستثمار الريفي المعتمدة في اليونان الاوروبية او في الجزر . بيد ان ذلك لا يعني ان طبقة صغار الملاكين لا تتعنى ، ولا يوفر لها دخلاً كافياً من اراضيها ،

ولا يحول دون اضطرارها للاستفادة ورهن ممتلكاتها ، اي ان الاثرياء بكلمة موجزة ، قد استطاعوا على حسابها توسيع اراضيهم . فتحسين التقنيات واللجوء المتزايد الى استخدام العلف الاصطناعي خلال سني استراحة الارض وتقدم تربية المواشي التي توفر مزيداً من اللحوم والاسمدة في آن واحد ، كل ذلك عاد امره للملاكين الميسورين المستنيرين ذوي رؤوس الاموال . اما الباقون فقد نهكوا انفسهم في الاحتذاء بهم .

ولم تكن الصناعة اوسع ازدهاراً .

فالاعتقادات القديمة لا تزال مسيطرة والطبقات الاجتماعية العليا لا تزال قليلة الاكتراث بها. غير ان هنالك ظروفاً كثيرة مؤاتية لها . فرؤوس الاموال متوفرة . والشرق بجماهيره الغفيرة، مهما كان من تدني مستواها الحياتي، سوق تجارية لا تحد حاجاتها . ويكفي لتأمين هذه الحاجات باسعار تستحيل معها المنافسة ان تحسّن وتستخدم ، بشكل آلات ، التطبيقات العملية التي توصل العلم اليها حينذاك . ولكن الاغريق لم يسلكوا هذا السبيل . فبقيت الصناعة صناعة يدوية : لا بل اننا لا نعرف، في بلاد اليونان آنذاك، مصانع يدوية يبلغ عمالها المائة والعشرون كما سبق. ورأينا في معمل والد ليزياس .

ليس عجيباً من ثم ان تتحمل الصناعة اليونانية ، شأن الزراعة ، بصعوبة ، منافسة الشرق. فقد توصل الشرق الى ان يكفي نفسه بزيادة وتحسين انتاجه الخاص . فأقفلت السوق التي بدا وكأنه فتحها . لا بل انه توفق الى ان يصدّر الى اليونان بعض مصنوعات الفخفخة التي توفرت له خاماتها او حصل عليها بسهولة . فاستحال الصراع ، او بالاحرى مجرد البقاء ، ما لم يسلّم الاغريق ببعض التضحيات في الارباح المعتبرة مشروعة حتى ذاك العهد ، أي ان حالة الصناعي او العامل الحر قد تدنت وكادت لا تفضل حالة العامل العبد .

تطور التجارة

أما التجارة فما من ريب في انها نمت نمواً عظيماً اذا ما نظرنا الى مجموع المتوسط الشرقي الذي تجتازه مبادلات لم يعرف لهـا من قبل مثيلاً ، من حيث النشاط والاتساع . ومن نافل القول ان هذه المبادلات لم تجر كلها خارج شبه الجزيرة اليونانية .

نلاحظ بالفعل ، في اليونان ، فقدان مركزية التجارة البحرية التي نزع مرفأ البيره من قبل الى اجتذابها اليه . فقد دبت الحياة في مرافىء صغيرة عديدة اقتصر نشاطها في السابق على المساحلة المحلية فنجحت في اقامة العلائق المباشرة مع البلدان النائية . غير ان تجارة اليونان قد هبطت من حيث قيمتها المطلقة وقيمتها النسبية . وبعدت عنها الطرق الرئيسية للتجارة البحرية . فانحرفت نحو الجنوب بسبب الأهمية الاقتصادية التي أحرزتها مصر ، وازداد عددها بفضل بروز نشاط المدن اليونانية في آسيا الصغرى، ولم تتجه بعد ذلك نحو ما كان ، بمغالطة جغرافية ، بمثابة القلب لبحر إيجه ، فتلاقت منذئذ ، بشكل أقرب الى المنطق ، في جزر السيكلاد نفسها .

كان من شأن فقدان المركزية وانحراف الطرق ان سبّبا ، مجتمعين ، تأخر اثينا . وهـذا

التاخر واقع لا ريب فيه . فقد آتى مسافر تجول في أنحـاء اليونان الوسطى في القرن الثالث على ذكربعض المرافىءالصغيرة دون ان يخص مرفأ البيره بكلمة واحدة وأشارالى وجود أجانب كثيرين في اثينا ولكنهم من السائحين والطلبة . أجل بدت الحركة المرفئية والتجارية وكأنها تتجدد في القرن اللاحق . فعاد الازدهار الى اثينا كما يتضح ذلـــك من ضرب النقود الوفيرة التي اشتهرت « بالطرازِ الجديد » لأن رسم « اثينا » فيها قد فقد طابعه التقليدي القديم . وصدر مرسوم عـن الجمعية المدلفية يقضي بأن تقبل ، في كل مكان ودون مضـــاربة ، النقود الأثينية من قطع الدراهم الاولية. ولكن هذه النهضة في مدينة كانت العاصمة الاقتصادية للعالم اليوناني الكلاسيكي قد بقيت محدودة : فالنقود الأثينية التي انتشرت في الشرق انتشاراً واسعاً فى عهد الاسكندر لم تشاهـد فيه عملياً بعد ذلك .

وحلت مرافىء أخرى آنذاك محل مرفأ البيره .

فهنالك أولاً رودس ذات الموقع الممتـــاز ، جنوبي البحر الايجي ، على طريق ، هي محور حوض المتوسط الشرقي ، تبدأ من البحر الأسود شمالاً وتنتهي الى سوريا ومصر جنوباً . وقـد اتضحت اهميتها منذ اواخر القرن الرابع بعد ان كانت وضيعة في اول امرها . فصدّرت الزيت والنبيذ في القوارير الرودسية التي اكتشفت حتى في نجد ايران وفي قرطـــاجة . وجُمعت في مستودعاتها بنوع خاص منتوجات كافة انحاء العالم المتوسطي التي تولت هي توزيعهـا . فأتاحت لها الأرباح التي جنتها الدولة والأفراد ، على غرار اثينا في القرنين الخامس والرابع ، ان تشيّد الأبنية الفخيمة — ومنها « الجبار » الشهير الذي هو تمثال لإله المدينة « هليوس » اي الشمس — وتتعهد اسطولاً حربياً يحسب له اعظم الملوك حساباً ، وتفرض سيطرتها على بعض الرعـــايا في المناطق الآسيوية المجاورة لجزيرتها ، وتبسط نفوذها على مدن كاريا وايونيا .

وبعد رودس بزمن، تأتي ديلوس في المرتبـــة الأولى . فديلوس هذه جزيرة صغـيرة تعجز عن التوصل بنفسها الى القوة المادية . ولكنها جزيرة قائمة في قلب ارخبيل السيكلاد، وخصوصاً جزيرة مقدسة ساد الاعتقاد بأن البضائع ورؤوس الأموال تكون فيها بأمن من اعمال القرصنة والحرب . خضعت فيما مضى الى حماية اثينا ثم حصلت على الاستقلال بانعام من احـــد القواد في اواخر القرن الرابع ، ثم عادت الى الحظيرة الأثينية في السنة ١٦٧ بانعام من رومـــا ، فغدت اذ ذاك ، بنوع خاص ، مركزاً تجارياً هاماً لأن روما جعلت منها في الوقت نفسه مرفأ حرّاً . منذ ذاك التاريخ توافد اليها التجار من كل البلدان ، لا سيما الآسيويون والمصريون والايطاليون . وقد اعتمدها الايطاليون الأقوياء سوقاً رئيسية لهم في الشرق . وهم لم يبيعوا فيها بضائع كثيرة ولكنهم وظفوا رؤوس اموالهم واشتروا فيها المواد والمصنوعات التي كانوا يصدرونهـــا الى الغرب . وكانت ديلوس ، على الاخص ، سوقاً كبيرة للرق، قد يباع فيها ١٠٠٠٠ عبد في اليوم كما يثبت ذلك سترابون ؛ وقد ابحر منها ، نحو مصائر جديدة وبائسة، عدد كبير جداً من العبيد

اليونانيين – اسرى الحروب واسرى القراصنة – والشرقيين الذين كونوا جماهير الفداديين في صقلية وايطاليا .

يتضح من ذلك ان النشاط التجاري المستمر او المستعاد في اليونان البلقانية والبحرية تزداد سيطرة روما عليه يوماً بعد يوم . ومرد يقظة ازدهار اثينا في القرن الثاني الى رضى روما بنوع خاص التي لم تكن لتخشى بعدُ مدينة عديمة القوة تعيد لها ديلوس فتجعل هي منها قاعدة لعملياتها المالية في الشرق . وانما جرى كل ذلك ضد رودس التي ارادت روما الاقتصاص منها لأنها لم تثق بأمانتها السياسية . وقد حاول موفد رودسي ، بعد انشاء مرفأ رودس الحر بزمن قليل ، ان يثير الشفقة في المجلس الروماني باعلانه ان دخل الجمارك السنوي قد هبط من مليون درهم الى ١٥٠ ٠٠٠ . اجل ليس من ريب في ان هذه الارقام مغالى فيها . ولكن مهما يكن من الامر ، فان تقهقر رودس قد سار سيراً مطرداً . وقد انتهى نشاط روما الى النتيجة نفسها في كل مكان آخر ، وفاقاً لكيفيات مختلفة وفي تواريخ على كثير او قليل من الوضوح وبصورة مباشرة او غير مباشرة . فان كورنثوس ، التي يبدو انها حافظت على نشاطها حتى ذاك التاريخ ، قد نهبها ودمرها الجيش الروماني المنتصر ، في السنة ١٤٦ ، ولن تستيقظ قبل قيصر . وفي اوائل القرن الاول ، دمرت ديلوس واثينا ايضاً : الاولى تدميراً كاملاً لن تنهض بعده ، على يد انصار ميثريدات الذين أرووا فيها غليل حقدهم على الرومان ؛ والثانية تدميراً جزئياً بسيطاً على يد سيلا الذي عاقبها بذلك على مناصرتها ملك البونت .

أكمل التطور الاقتصادي دورته حينذاك : فلم تبع اليونان القديمة الى الاجانب سوى دروس أساتذتها في الفلسفة والبيان والروائع الاصلية لفنها السالف أو نسخاً عنها ؛ وليست اثينا ورودس بعد ذلك سوى مدن جامعات ومتاحف ؛ واتجرت الاسكندرية والمرافىء الآسيوية مباشرة مع روما .

٢ – الطبقات الاجتماعية

طبقة ذوي اليسار في المدن اليونانية

كان لهذه الظروف الاقتصادية ، بالضرورة ، ردّة فعل على المجتمع اليوناني. ففي كل مكان تقريباً بدا ذوو اليسار باعداد اكبر منها في العهد السابق . وقد شدد المؤرخ الكبير ميخائيل روستوفتزيف (*Rostovtzeff*) ، بحق ، على نمو ما أسماه بكلمة « بورجوازية » الفرنسية. وان هذا التعبير لأفضل في الحقيقة من « الطبقة الوسطى » لأن تركيبها الاشتقاقي يلفت النظر ، على الاقل ، الى الصبغة المدنية و « المتمدنة » بجميع ما لهذه الكلمة من معان – التي يصطبغ بها اولئك الذين تعنيهم . وسنشاهد هذه البورجوازية في مدن الملكيات الشرقية حيث يؤلف وجودها وتحقيقاتها وقائع قد تكون أبعد تأثيراً . ولكنها تبرز وتنمو ايضاً في المدن اليونانية القديمة .

يجب ان لا نتكلم بصددها عن الثروات الكبيرة. فلم تتكون اذ ذاك ، كما لم تتكون من قبل،

ثروات طائلة ، و « النباب » المتموّلون موجودون في غير مكان ، أي في الشرق . وقد أوضح « بوليب » ان اعظم اغريق اليونان ثروة ، في اوائل القرن الثاني يملك ٢٠٠ مثقال (١٢٠٠٠٠٠ فرنك في السنة ١٩١٤) اي بالضبط ما ملكه كالياس اغنى أثيني في القرن الخامس . وتتميز هذه الطبقة بيسار كريم يسمح للشخص بان يعيش وتعيش معه عائلته ، وفاقاً لقواعد الاعتدال، دون فخفخة صاخبة ، ودون اهتمام كبير للاعمال ، مع بعض العبيد البيتيين الذين يؤمنون أعمال المنزل .

فما هو في الاصل مصدر هذا اليسار يا ترى؟ لا نعلم ذلك بمزيد من التفاصيل، وليس باستطاعتنا سوى الاعتقاد بمكاسب تجارية ، وبنشاط مثمر ، عام او خاص ، في الشرق احياناً . فقد خلقت مهزلة ذاك العهد مثالاً جعلته موضوع تهكم هو مثال المتظاهر بالشجاعة أو بالاحرى قائد الجنود المأجورين الذي يتباهى بارباحه الضخمة في خدمة الملوك : انه انتقام البورجوازيين ، البشري ، من ضباط ضاجين متعجرفين يخدمون في الحامية الملكية المقيمة في حصن المدينة . ولكن هذا الانتقام يحمل على الظن أنه اذا كان لأحدهم جدّ من أمثال « بيرغوبولينيقوس » ، « المنتصر على مدينة محصنة » « فانه يهمله ولا يأتي على ذكره . ولا يشار كذلك الى جدّ طبيب أو محام أو استاذ : ويغلب على الاعتقاد ان هذه المهن الحرّة ، مع انها اسمى اعتباراً من دي قبل ، لا تؤمن ، إلاّ بصورة استثنائية، ثروة كافية للسموّ بالعائلة الى المجتمع الراقي . غير انه من الواضح ان الازدهار الاقتصادي في اوائل العهد، ودخول رؤوس الاموال الشرقية المستلبة أو المضروبة الى اليونان، والخدمة في الادارات والجيوش الملكية، كانت الاسباب الرئيسية لنموّ البورجوازية اليونانية. وحين نضبت موارد الاثراء ، كان المهم الجوهري قد تحقق ، فتمكن الاغريق حينذاك من قصر عملهم على الانتفاع بفائدة أموالهم . وقد تم ذلك بان وظفوا معظم رؤوس أموالهم في المشاريع الزراعية وقسماً ضئيلاً منها فقط في المشاريع التجارية . فعاشت البورجوازية في اغلب الاحيان من المداخيل العقارية ، اما بتلزيم اراضيها واما باستثمارها مباشرة .

ولم يرتفع قط ، في الحقيقة ، عدد افراد هذه الطبقة الميسورة الذين عاشوا في الريف . فالمدينة هي محل اقامتهم العادي. وهم الذين ادار وا في الواقع شؤون المدينة حيث غدا المواطنون الفقراء لا يلعبون سوى دور عرضي . ومرد هذا التطور السياسي الى الغاء التعويضات في كل مكان حتى في اثينا : فقد امسى مجرد اسمها مجداراً ، او رمزاً ، كما يقول الكاتب « بوليب » في القرن الثاني ، لفوضى الحكم الجامحة . وقد قابل هذا التطور ، بالضرورة ، شيء آخر : فقد توجب على الحكام ان يبرهنوا عن سخائهم ، ويكتتبوا للقروض البلدية ، ويقدموا ، على الاقل، سلفات لمخصصات التموين بالحبوب ، ويتحملوا ، عن طريق الخدمات العامة كما في العهد السابق ، او عن طريق الهبات ، اعباء بعض النفقات الجماعية . ولكن كيف لا نشك شكاً على الاقل ، كما تجيز لنا ذلك بعض النصوص، في ان ادارة المدينة، وخصوصاً ادارة املاكها العقارية، قد توفر

الارباح احياناً بفضل التلزيمات الموافقة ؟

المثل البورجواري الأعلى : المدينة والبيت

من الطبيعي والحالة هذه ان يكون هنالك مثال بورجوازي معين وان يكون له اثره في كل مكان . فالطبقة الميسورة نزعت الى سعة العيش وفاخرت بمدينتها في آن واحد .

تبدلت المدن مادياً . فانتشر البناء في كل مكان : الحصون المتقنة والمعابد والمسارح والملاعب ومحلات الرياضة والاروقة وغيرها . وفي كل مكان ايضاً اعيد الاحتفال بالاعياد القديمة وقررت اعياد اخرى حديدة : الولائم العمومية ، المباريات ، الالعاب ، التمثيليات المسرحية . وعرفت هذه الاخيرة ، بنوع خاص ، شهرة ورواجاً يفسّران شمول بناء المسارح وتنظيم فرق من الممثلين المتهنين والمتنقلين اعني بها الاخويات المنتسبة الى ديونيسوس . وغالباً ما اقتصرت الفكرة الدينية الاصلية على مجرّد حجة . واهتمت المدن اهتماماً كبيراً في الواقع بمنافسة بعضها البعض بمذخها والألاهي التي ترفه بها عن حياة مواطنيها. فأصبح مثال اثينا القديم مثالاً مشتركاً عاماً.

وهكذا فان الملوك الهلّينيين لم تعوزهم الظروف لاظهار سخائهم الذي ينطوي في الوقت نفسه ، من جهة اخرى ، على غاية دبلوماسية وعسكرية . فأسهموا بنفقات كل هذا البذخ . واسهموا بهباتهم المالية او الفنية في تشييد الابنية حتى ولو لم يتولوا وحدهم الانفاق عليها . وقدموا الزيت لمحلات الرياضة حيث يستهلكه الفتيان بكميات كبيرة للاعتناء بأجسامهم . واسسوا اوقافاً تقوية او علمانية خصصت عائداتها لشتى المشاريع . وقد اخذ « بوليب » على المدن انها امتهنت كرامتها بتأدية واجب الشكر لهم عن طريق المراسيم التقريظية واقامة التماثيل وحتى التكريم » الالهي » احياناً . وهذا مظهر غير نادر لتجاوب اشرنا اليه اكثر من مرة ، بان « الانعامات » و « عرفان الجميل » .

ولكن هذا الاسهام الخارجي ابعد من ان يكفي . فالنفقات الرئيسية مطلوبة من موازنات الجماعات التي تصاب بالارهاق والتي لا تبقى متاعبها دون انعكاس على الشؤون العسكرية والسياسية . فيتوجب على المواطنين الاغنياء القيام بتضحيات مالية تكافأ ، شأن تضحيات الملوك ، بالمراسيم التكريمية . وهم يقومون بها بداعي التفاني المخلص والمجد البأطل . وتتزايد الاوقاف المختلفة ، عن طريق الوصية او غيرها ، وتستثمر بشتى الطرق : البيع او التلزيم او الاعارة مقابل رهونات او استثمار الدخل من قبل قيّمين يعينهم الواهبون او تنتخبهم المدينة . وهكذا تتكون يوماً بعد يوم انظمة بالغة التعقيد احياناً تتعلق بشتى مظاهر الحياة المحلية ، وحتى حياتها الاقتصادية ، الريفية والمصرفية بنوع خاص . وفي المدن التي يعطيها احد معابدها شهرة كبيرة خاصة ، كدلفي ودبلوس ، لا تتوقف اعمال التجميل في الابنية ويزداد عدد الاعياد ازدياداً مطرداً ، فيؤمن شطر كبير من سكانها ، بفضل تحضير هذه الاعياد وتهافت الحجاج اليها ، سبل معيشتهم . ولكن كل ذلك ، بطبيعة الحال ، عرضة للزوال السريع لانه تحت رحمة

الحروب والانحطاط الاقتصادي . وقد بدأت الازمة فعلاً منذ اواخر القرن الثاني قبل المسيح ثم اخذت تزداد خطورة حتى تنظيم الامبراطورية الرومانية التي ستؤمن البقاء لهذه الحضـــارة وتنشر مثالها لعدة قرون .

كان للمثال البورجوازي اثره الجلي ايضاً على صعيد الحياة الخاصة . فاذا جمّلت المدن ، فان المساكن الخاصة قد جملت ايضاً . ولم يكن البذخ رائد البورجوازيين لأنهم افتقروا الى الوسائل المادية الضرورية لتحقيقه . ولكنهم رغبوا ، بصدد رفاهية ولذة حياتهم العائلية ، في جو اوسع رحابة وأوفر هواء واجمل منظراً . لذلك فقد اتضح آنذاك ، في الاحياء الجديدة اكثر منه في وسط المدن القديمة ، مثال البيت المنظمة اجزاؤه حول فناء تحف به الاعمدة : وهو مثال اتقن درسه في ديلوس وانتشر في « بومبايي » ، اي في اكثر اجزاء ايطاليا انفتاحـــاً على التأثيرات اليونانية ، وائر بعد ذلك في « مقصف » العهد الامبراطوري . وقد ازدان هذا البيت باللوحات الرخامية والرسوم والفسيفساء والتماثيل الصغيرة والتماثيل الكبيرة . وتنوع اثاثه وتحسن نوعـــاً وشمل الاسرّة التي نزّل فيها العاج والمعادن الثمينة ، والمشاجب ، والشمعدانات ، والمصوعات . وكان للأطعمة الفاخرة وبعض خمور الحزر وآسيا فيه تقدير عظيم ، في الولائم التي قضى قانون تقييد النفقات المفرطة ، في اثينا ، بتحديد عدد مدعويها بثلاثين شخصاً .

المثل البورجواري الاعلى : التربية والثقافة

رافق هذا الاهتمام بالرفاهية اهتمام بالثقافة . وقد تجاهت البورجوازية الهلينية بالثقافة المجردة عن الغاية . وسهرت على تربية اولادها واقدمت راضية على الانفاق عليها . وكثيراً ما اهتمت المدينة بها بغية تنظيمها — وقد ارغمتها على ذلك بعض الاوقاف احياناً — ومراقبتها ، مع انها لم تتولّ الانفاق عليها الا في حالات نادرة . وقد عين قضاة خصوصيون لهذه الغاية . ومهما يكن من الامر ، فان المدارس ، عمومية كانت ام خاصة ، قد ارتفع عددها ، كما ارتفع عدد محلات الرياضة وازدادت ، في اعلى الدرجات ، دروس البيان والفلسفة التي ألقاها اساتذة لم يستغرب احد ارتفاع اجورهم . واذا لم يفرض المثال المسلّم به تعمقاً في المعارف فانه قد انطوى منذئذ على رشاقة فكرية حقيقية او اقله على رشاقة في التعبير الشفاهي او المكتوب .

وقد حدث تغيير أكثر ظهوراً : لم تعد تربية البنـــات محصورة في الامهات وحدهن في الحرم الذي ليس له أي اتصال بالخارج . فهن على غرار اخوتهن يختلفن الى المدارس وحتى الى محلات الرياضة : ولم يعد مثل سبارطة امراً شاذّاً على هذا الصعيد . فنتج عن ذلك ان حيـــاة النساء ، في الطبقة الميسورة ، غدت اوفر حرية . اجل لم يتلق كثير منهن العلوم النظرية العالية . ولكننا نعرف عدة شاعرات ، وليس الحديث ، بعدئـــذ ، في الأدب والفلسفة والفن وقفاً على بعض المتحررات المتقدمات . فقـــد بدأت اقتسارات الزمن الماضي بالتراخي . أجل لم تظهر سيدات المجتمع الراقي في الولائم ، ولكن اصبح باستطاعتهن ان يخرجن الى المدينة دون ان يرافقهن

أحد ، وقد سمح لهن ازواجهن بالتقاء رجال غير انسبائهن . ولذلك فقد تطورت الاخلاق نحو ادب اسمى رقة : وتعود الى هذا العهد بعض عادات المجاملة ، كتقبيل الأيادي .

الطبقات الاجتماعية الدنيا

نتمنى لو أننا نعرف جيداً ايضاً وضع وحياة الطبقات الاجتماعية الدنيا . ولكن المعلومات بصددها نادرة جداً كما سبق ورأينا اكثر من مرّة . غير انها كافية لاظهار تناقض بين مصيرها ومصير البورجوازية اعظم بروزاً منه في الزمن القديم . فقد تمتعت البورجوازية بقسط أوفر من اليسار وتأثر بذلك مثالها وحياتها العملية تأثراً سريعاً . اما الطبقات الاجتماعية الدنيا ، فإما استمرت في عيشتها الماضية واما عرفت ظروفاً مادية أشد قسوة — وهذا ما حدث غالباً — في ما يظهر .

تألم صغار الفلاحين والصناعيون المدنيون أيضاً بسبب منافسة حاصلات الشرق ومصنوعاته. واتجهت الاجور نحو الهبوط كما يتضح من حسابات قهرمة ديلوس المقدسة حيث يتقاضى نقّاش الكتابات ، مثلاً ، درهماً مقابل ١٠٠ و ١٣٠ حرفاً في أواخر القرن الرابع ، ومقابل ٣٠٠ حرف فيما بعد ، دون ان يهبط مستوى عمله في هذه الاثناء . ولكن الارباح ، حتى اذا نحن اهملنا مثل هذه الحالات القصوى ، لا تتناسب وتقلبات اسعار المعيشة . فان ارباح الزامرة أو « خادم » المعبد مثلاً ، أي ارباح غير اهل الكفاءات ، قلّما تتجاوز ١٢٠ درهماً في السنة ، يضاف اليها تعويض لباس فتصبح ١٤٠ او ١٥٠ . ولكن غذاء اليافع دون غيره يكلّف ، شرط ان يكون معتدلاً ، ١٥٠ درهماً في السنة ٢٨١ ، واذا ما هبطت كلفته الى ٩٠ درهماً في السنة ٢٥٠ فانها قد ارتفعت بعد ذلك الى ١٣٠ درهماً في اوائل القرن الثاني؛ وفي التواريخ نفسها تبلغ كلفة غذاء عائلة مؤلفة من اربعة اشخاص ٤١٠ و ٢٤٦ و ٣٥٨ درهماً . لذلك كان العمل امراً واجباً على كل شخص في العائلات الوضيعة ، وعلى الرغم من تضافر هذه الجهود ، فان البؤس كان في اغلب الاحيان شديد الخطورة . ويتضح لنا أمام هذه الارقام المشاغل التي واجهتها حكومات المدن بسبب ندرة واسعار الحبوب في السوق المحلية .

ويتضح أيضاً كيف ان مصادر الارتزاق اليونانية لم تنضب . ففي اليونان القديمة ، بقي الارتزاق ، حتى اواخر القرن الثالث ، ظاهرة اجتماعية على نطاق هام ، استفادت منها الملكيات المقيمة في الشرق كل استفادة ممكنة . واذا ما هو اخذ يخف فيما بعد ، فليس السبب الرئيسي لذلك نقصان عدد المرتزقة . بل يجدر بنا ان نرى في ذلك نتيجة لنقصان طلب المرتزقة ، اما بفعل تراخي الروابط السياسية بين الملكيات واليونان ، وأما بفعل منافسة المرتزقة البرابرة وهم محاربون لا يكلفون كثيراً ولا يضنون بدمائهم ، واما ، خصوصاً ، بفعل افتقار الملكيات وضعفها. ولكنه من الجليّ ان احتلال الاسكندر للامبراطورية الفارسية ، الذي اتاح للاغريق الهجرة باعداد كبيرة الى ما وراء البحر المتوسط ، لم يكن الدواء الناجع لهذا الداء ، لأنه لم

طويلة الحالة الاقتصادية والاجتماعية في اليونان .

ان الصعوبة التي تعترض المؤرخ المعاصر تقوم في كيفية تعليل استمرار البؤس في بلاد اصيبت بمثل هذا النقص في سكانها. يجب علينا حقاً ان نبحث عن سبب ذلك في ظروف ى . فالنشاط الاقتصادي في هبوط على العموم : وهذا يستتبع نقصاً في الحاجـــة الى . ولكن ديلوس التي جاءتنا منها اهم مصادرنا حول الاسعار والاجور تشذ في هـذا القاعدة العامة ؛ فانه كان من شأن وجود معبد ابولون فيها ، وارتفاع عدد الاعيـــاد زائرين من جهة ، والنشاط التجاري من جهة اخرى ، ان توفر فيها بسهولة سبل العمل لدين تعوزهم هذه السبل . لذلك يستهوينا ان نبحث عن التعليل في مبررات اخرى ، زدياد عدد العبيد وفي التنافس الذي يبين المضادة بينهم ، شأن المحرّرين ، وبـــين رار .

ضاً ، نتمنى لو ان لدينا معطيات واضحة ، ولكننا مضطرون لسوء الحظ للاكتفاء ثيرات .

ريب فيه ان العرض في اسواق الرق قد ازداد ازدياداً عظيماً ، واتسع نطاق « التزود » اً كبيراً ايضاً ؛ فالحرب والقرصنة اللتان ما رالتا على عنفها موّنتا بهم التجار . ولكن يد ابعد من ان تتدنى ، ان لم يكن في مناطق الاحتلال وراء الحيوش ، فـــأقله عند ع الاخيرة للمشتري المباشرة : فان رحلاً في شرخ الشباب ، دون ميزات تقنية خاصة ، ير الحرب ، يباع بـ ٥٠٠ درهم تقريباً . ولم تتدن اسعار النقد ، كما يبدو ذلك منطقياً ، توزيع العبيد قد اتسع بمقدار لا بل فوق نطاق التزوّد : فان روما وايطاليا اللتان لم تين ، قد اشترتا العبيد ، في حوض المتوسط الشرقي ، منذ القرن الثاني قبل المسيح ، ايدت باستمرار .

، اليونان القديمـــة فلا يجوز الجزم بارتفاع عدد العبيد إلا في المناطق الشمالية والشمالية كالأبير مثلاً ، ، بسبب حداثة عهد الحضارة المدنية فيها . وليس ما ينبت ذلـــك في لاخرى . اضف الى ذلك ان المزيد من العبيد الذين امتلكتهم البورجوازية ، بعد ان دها وتكامل يسارها ، قـــد كانوا عبيداً منزليين بنوع خاص لا يرهق وجودهم ارباح احرار بل يخفف عن المرأة ، التي تتحرر ، اعباء الاعمال العائلية التي كانت تنهض بهـــا . فيجب والحالة هذه ان تكون الصلة بين العلة والمعلول اشد تعقيداً .

يجدر بنا ان ننظر الى حالتي العبد العامل لحسابه الخاص والعبد المحرّر . فعلى هـــذا ي بعض الضوء وثائق التحرير التي انتقلت الينا عن طريق كتابات المعابد ، لا سيما دلفي لت الينا منه اكثر من ألف وثيقة . وقد اخذ التحرير الفردي ، لا الجماعي الذي سنشاهده ، يشق طريقه الى اخلاق الاغريق . ولا يستلزم هذا التطور ، على كل حـــال ، ازدياد

عدد العبيد : بل يدل غالباً ، بصرف النظر عن نمو روح التساهل ، على ان سيد العبد يستفيد من تحريره ، لأنه من النادر جداً ان يحدث ذلك دون مقابل مالي . والاعتقاد السائد هو ان الاله يشتري العبد من سيده ويعطيه حريته ضامناً تنفيذ شروط العقد : هـذا هو مصدر الحرص على حفظ نص هذه الشروط في الحرم المقدس .

اما في الواقع فقد قـام كل شيء بطبيعة الحال على الاتفاق السابق بين العبد وسيده . فالسيد يرضى بثمن وبظروف تختلف باختلاف الحالات النوعية التي لا نعلم شيئاً عن عوارضها . غير انه من المفروض في العبد ، كي يستطيع دفع المبلغ المتفق عليه فوراً ، ان يكون قد جمع بعض المال وان يكون قد تصرف ، في عمله المتفاوت حرية ، بحد ادنى من الربح . فان العرف الذي سمح للعبد بان « يعيش على حدة » والذي عمل به في اثينا قد عرف الانتشار والشمول ، في ما يظهر. ومن المفروض في العبد ايضاً ، حتى يرتبط بتعهدات وحتى يقوم بها على الاخص ، ان يكون متأكداً ، بعد تحريره وتصرفه بكافة ارباحه ، من ان يجد عملاً وزبنا . اليك مثلاً عبداً لم يـدفع شيئاً عند تحريره ولكنه سيدفع ١٠٠ درهم لمدة ١٣ سنة ؛ واليك آخر يمارس ، في ما يبدو ، مهنة تغدق عليه الارباح ، يدفع على الفور ٦٠٠ درهم على ان يدفع ٢٠٠٠ درهم في المستقبل ، مع انه يعد بالقيام « بكل اشغال » سيده؛ على اننا نرجح ان هذا الوعد لا يتناول من الاشغال إلا ما هو من اختصاصه ولحاجات عائلة سيده المبـاشرة فقط. ويغلب ان هذه التعهدات تنفذ بحذافيرها لأنها لم تلغ . واكثر من ذلك : فاننا نرى العبد المحرر نفسه في بعض الحالات ، بعـد عشر سنوات تقريباً يحرر بدوره عبيده : وهذا يعني انه استطاع ان يفي سيده حقه ويؤمـن المعيشة لعائلته ويقتني عبداً ويسمح له بالعمل لحسابه الخاص . ولكننا نتصور ما يتطلبه ذلك من عناء ضار ومن حرمان يدوم سنين طوالاً ، ولا نستغرب المنافسة الشديدة التي يصادفها عامل حر لا يشجع مجهودَه مثل هذا الامل .

لا يغربن عن البال ، مع ذلك ، ان معظم هذه المعلومات لا تتناول سوى جمـاعات بشرية تعيش على مقربة من المعابد. ففي دلفي يؤلف الحجاج ومستشيرو هاتف الغيب ومشاهدو الأعياد زبناً كثيرين يميلون الى الانفاق بسعة اوفر منها في محلات اقامتهم ويعطفون على ممارسة المهن الصغيرة والتجارات الصغيرة المزدهرة . لذلك يستحيل ان نعمم هذه الظروف الاستثنائية على كافة أنحاء اليونان . وليس تفسير البؤس عن طريق العبودية بالامر الاكيد ، ولو بـدا محتملاً ومنطقياً .

اضف الى ذلـك ، كما سبقت الاشارة ، ان الركود الاقتصادي والهبوط الاقتصادي اللذين يكوّنان السبب الرئيسي للوضع المتعاظم خطورة في الطبقات الاجتماعية المتدنية ، كان من السهل تلافيهما لو ان الاغريق استفادوا من تفوقهم العلمي لتحسين تقنيات انتاجهم ، ومن وجودهم في الشرق لرفع مستوى المعيشة عند طبقة البلديين ، أي لزيادة طلب أصناف الاستهلاك . ومن ثم

فان البورجوازية الهلينية قد وقفت في وجه مصلحتها الشخصية بعدم تحوير مثالها الثقافي وبعدم اكتراثها بالانتاج الصناعي ، ان لم يكن الزراعي أيضاً .

٣ – الآفات والاضطرابات الاجتماعية

كانت نتائج هذا الوضع على جانب من الخطورة .

تدني عدد السكان

كان من شأن نوع معيشة واخلاق البورجوازية ، دونما ريب ، ان يكدّر معاصري بريكليس لو انه ساد البلاد في ايامهم. وهو قد كدر ايضاً ، في هذا العهد نفسه ، رجالاً لم يتهنوا تعليم الاخلاق ولكنهم عزوا اليه احدى إحن اليونان التي شكوا منها بعنف ، اعني بها تدني عدد السكان . ولعل اشهر هؤلاء الكتّاب هو « بوليب » الذي عاش في القرن الثاني والذي وصف في صفحة شهيرة الداء باسمه الكلاسيكي « اوليغانثروبيا » أي « نقص الرجال » ، موضحاً ما كان سببه في ما ارتأى : « نلاحظ اليوم ، في كافة انحاء اليونان نقصاً في الاولاد والرجال تقفر معه المدن ويشلّ انتاجها ... أما السبب فواضح والدواء ففي أنفسنا . ان الرجال يعزفون عن الزواج وعن تربية اولادهم حباً بالتظاهر وحباً بالمال وجبنا : فهم ، ان ربوا، لا يربّون اكثر من ولدين حرصاً منهم على الحفاظ على الثروة وعلى تربيتهما في ظل حياة هانئة متخنثة . وهكذا فان الداء الخفي قد برز فجأة . فاذا لم يكن هنالك سوى ولد او ولدين واذا ما قضت الحرب او المرض عليهما فمن الجلي المحتم ان تقفر البيوت ... ولا يختلف اثنان على القول إن تلافي ذلك منوط بنا وحدنا ، اما بتغيير ما هو هدف التنافس بيننا واما باعتماد شرائع ترغم على تربية الاولاد الذين يبصرون النور » . وقد حاول بعضهم احياناً الانتقاص من اهمية هذه الصفحة باعتبارها بياناً اخلاقياً . قد يكون في ذلك بعض الحقيقة ، ولكنها تنطوي على اهمية لا تنكر .

انها تكشف عن استمرار عادة «اهمال» الاطفال حال ولادتهم التي انتشرت في العهد السابق. وانما هن البنات ، كما في العهد السابق ، اللواتي يرفض الأب تربيتهن. فهل ان هذه العادة، التي هي أشد خطورة في نتائجها العملية من تحديد النسل الاختياري ، قد أصبحت شاملة حينذاك ؟ ان بوليب يثبت ذلك ضمناً ؛ ولكن الاسباب التي يعزوها اليها لا تتناول سوى الطبقة الميسورة ، وهذا هو العيب الاكبر في استدلاله . والحقيقة هي ان الطبقات الاجتماعية الدنيا تبدو متأثرة بهذه العادة المتفشية تأثر الطبقات العليا نفسها . فلم نر في وثائق التحرير في دلفي أي ذكر لعائلة كثيره الافراد بين المحررين . وقد اتخذت مدن عدة احتياطات لزيادة عدد مواطنيها بقبول الاجانب في هذه الدرجة الممتازة . وقد نصح ملك مقدوني الى احدى المدن التساليـة بالتشبه بسخاء روما في هذا الموضوع . وقد اقام الملك نفسه في مملكته جماعات من البرابرة البلقانيين

« وارغم جميع رعاياه على المجاب البنين وتربيتهم » كما كتب احدهم دون ايضاح الكيفية . وكان بوليب على علم بهذه السابقة حين اشار باعتماد مثل هذه الشرائع . ولكن رأيه ومثل فيلبوس المقدوني الخامس ، على ما نعلم ، لم يعمل بها في اي مكان . لذلك يتعذر نكران تدني عدد سكان اليونان منذ ذاك العهد ولامبالاة الحكام الشاملة تقريباً أو اقله عجزهم امام وضع كان يهدّد بالخطر لا استقلال دولهم سياسياً وعسكرياً فحسب، بل حيوية وحتى وجود حضارة يتباهون بها أيضاً .

وعلى نقيض ذلك لم يتوصل بوليب ، في تحليل الأسباب إلاّ الى حقيقة جزئية ليست أبعد الحقائق اهمية . ولكننا لا نستطيع إهمالها لا سيما وانه يعطينا في غير مكان تفاصيل دقيقة حول « التخنث » واستهواء الأعياد والولائم . فعندما يتكلم عن البيوسيين — الذين لا يحبهم — في أوائل القرن الثاني ، يجزم قائلاً : « ان اولئك الذين لا أولاد لهم يوصون بممتلكاتهم للأكل الفاخر والسكر ويجعلونها مشاعاً لأصدقائهم، بدلاً من ان يتركوها لأنسبائهم ... وأخذ كثير من اولئك الذين أنجبوا اولاداً ينفقون على الولائم معظم ثروتهم بحيث ان بيوسيين عديدين أقاموا في كل شهر ولائم تفوق بعددها أيام الشهر » . هذا هو التشويه المحتم لحياة اجتماعية جعلت مطابقة لمثل أعلى في الرفاهية واللذة . وبديهي ان يصعب التوفيق بين هذه الحياة وواجبات العائلة العديدة الأفراد وان تفضي بالضرورة الى استحالة التعويض العددي الطبيعي عن جيل سابق بالجيل اللاحق . وكان للطبقات الدنيا أعذار أخرى كثيرة للتهرب من الواجبات العائلية المرهقة .

يتوجب علينا ، مع ذلك ، دون ان نتوقف عند الحقائق الاخلاقية المسلّم بها ، كما فعلنا ، ان نضيف شيئاً الى تفسيرات بوليب .

ففي الدرجة الأولى كانت اليونان منطلقاً ، نحو الشرق الذي احتله وأداره ملوك يونانيون وانتشر فيه واستثمره الاغريق ، لهجرة عارمة حرمتها من عناصر فتية أي من اهم ابنائها نشاطاً وتدبيراً . ولا ريب في ان هذه الهجرة التي كانت في البدء على نطاق واسع قد خفت بعد ذلك رويداً رويداً ؛ ولكنها لم تنقطع قط انقطاعاً تاماً ولم يعوض المهاجرون العائدون قط عن المهاجرين النازحين . واذا ما نحن أغفلنا هذه الحقيقة استحال علينا إدراك التوازن في مجتمع كان « يربي » ذكوراً أكثر من البنات . فجليّ ان الرجال هم الذين هاجروا بنوع خاص كمرتزقة وموظفين وفنيين ومستعمرين واتخذوا لهم زوجات شرقيات .

ثم ان الصعوبات الاقتصادية المتزايدة التي عرفتها اليونان لم تبق دون نتيجة في هذا المجال أيضاً . فقد ظهر أثر التأخر الزراعي والصناعي والتجاري في البورجوازية نفسها . وحين نضبت المصادر الطبيعية للاثراء رأت البورجوازية نفسها مرغمة على عدم زيادة عددها ، ان هي أرادت الحفاظ على مستوى اليسار الذي بلغته ؛ ولم يكن من المستطاع عملياً ان تحافظ عليه ، بسبب هباتها للمدن ، إلا بانقاص عدد اعضائها وجمع ثرواتها بفضل الإرث والهبات عن طريق الوصايا.

ولكن الفقراء خصوصاً ، الذين لم ترافق مواردهم ارتفاع الأسعار ، اذا لم تخفض أحياناً ، لم يتمكنوا من العيش إلا بفرض الحرمانات على انفسهم ، وكان اقلها صعوبة مباشرة ، وبالتالي أول ما يقبل به منها ، يستهدف الأولاد . وهكذا فان « نقص الرجال » من حيث هو علة ومعلول في آن واحد قد زاد بدوره من انحطاط اقتصاد البلاد ، وذلك باقلال طلب السوق الاقليمية التي كانت هي في افضل وضع لسدّ حاجاتها .

الاضطرابات الاجتماعية

هنالك آفة أخرى ، هي نتيجة تنحدر مباشرة من بؤس الوضعاء ، اضنت اليونان ايضاً ، اعني بها خطر الثورة الاجتماعية الذي ليس جديداً ولكنه ، بعد هدوء العهد الكلاسيكي ، برز مرة أخرى بمزيد من الخطورة الهائلة .

انطوى برنامج ثوار القرنين السابع والسادس على بندين تقليديين : توزيع الاراضي والغاء الديون . ويرى هذان البندان نفسها الآن اكثر شعبية من اي وقت مضى . كلاهما يستهويان الريفيين الذين ارغموا على مغادرة اراضيهم او يخشون ، بفعل الديون المتراكمة عليهم ، من ان يطردوا منها ، او حتى من ان ينتهوا الى السجن بفعل عجزهم عن الدفع . واذا كان فقراء المدن اقل اهتماماً للديون — اقل اهتماماً فقط ، لأن الفقير المعدم وحده يعجز عن ان يتوفق الى من يقرضه مالاً — فانهم لم يهملوا الامل بأن يصبحوا يوماً ملاكين صغاراً .

غير ان هذا البرنامج الذي لم يفقد شيئاً من عنفه ، اضيفت اليه آنذاك مطالب تتعلق بالعبيد الذين لم يسبق في الماضي ان احيطوا بأي اهتمام . قد يكون مرد ذلك الى التضامن في البؤس الذي يقوّيه انتساب عبيد كثيرين الى الاصل اليوناني كأسرى الحرب ومخطوفي القراصنة . ولكن الارجح انهم يمثلون قوة لم يأنف آنئذ احد من اللجوء اليها في ساعات حدة الصراع .

وهم الوحيدون ، على كل حال ، الذين لا يتجاسرون على الحركة . اجل قد تحدث عرضياً بعض الثورات كما جرى في السنتين ١٣٠ و ١٠٣ في أثينا ، وفي السنة ١٣٠ ايضاً في ديلوس . ولكن هذه « الحروب الفدادية » المحصورة في المناطق التي كثيراً ما تخضع فيها جماهير غفيرة من العبيد لنظام شديد القساوة — كديلوس ، تلك السوق الكبرى التي تصدّر الى الشرق البعيد دون امل بالعودة ، واثينا حيث لم تتحسن ظروف العمل في مناجم « اللوريون » — لا تحدث من جهة ثانية الا في عهد متأخر جداً : وليست سوى صدى الثورات التي اندلعت في صقليا وآسيا الصغرى في السنتين ١٣٥ و ١٣٣ . ولكن الحركات الثورية التي كانت من الخطورة بمكان هي تلك التي نهض بها الاحرار والعبيد جنباً الى جنب يوحّد بينهم البؤس المشترك والحقد المشترك على الملاكين : وان هذا الاتحاد لجدّة يعود الفضل فيها الى العهد الهليني .

لم يكن لمثل هذه الاضطرابات دافع عقائدي على ما نعلم . اجل لقد نادى بعض الفلاسفة بالمساواة بين البشر . ولكن هذه المساواة في نظرهم ، شأن حرية الشخص البشري ، كانت شيئاً داخلياً اكثر منه اجتماعياً لأنها تتعلق بالقوة المعنوية الفردية اكثر منها بالنظام القانوني : فالرجل

الحر والغني قد يبقى دون العبد ان لم يكن سيّد نفسه . لذلك فان مثل هذه الآراء لم تدفع الى العمل . وكذلك ، اذا وجد بعض المؤلفين لذة في وضع نظريات خيالية ، فان هـذا الفن الادبي الذي درج حينذاك ، لم يكن ليحرّك الجماهير . وهنالك بعض نتف لشاعر بلوبونيزي من القرن الثالث هي في الحقيقة فريدة من نوعها والوحيدة التي تنبض بروح ثورية في الادب اليوناني ؛ ففيها ان على الغني ان « يتقياً » ، وان للتوزيع صفة إلهية ؛ ويتساءل عما اذا كان للإله عين خلد لأنه يعزف عن اخذ خيرات المرابي لاعطائها من يعجز عن سد جوعه . ولكن الشاعر ، سرسيداس، قد لعب دوراً دبلوماسياً وعسكرياً ناشطاً ضد الثورة حين كانت على وشك النجـاح ، بحيث لا يمكن اعتباره سوى مناصر التحق بها في الساعة الحاسمة . وبكلمة موجزة ، فـان الثورة الاجتماعية في اليونان قد افتقرت الى رئيس روحي من حيث انها افتقرت الى برنامج عقائدي .

بيد انها ، في بعض الظروف وبعض المدن : قد وجدت رؤساءها اثناء العمل الثوري نفسه . وغالباً ما كان هذا العمل غير منظم ، ونادراً ما كان منسجماً وغير منقطع ، وقد تحطم ابداً على صخرة مقاومة البورجوازية والتدخل الاجنبي . وقام عند الايتوليين رجال سياسيون من المرتبة الاولى يقترحون الشرائع حول الديون ، فانتهوا الى الابعاد . وفي بيوسيا توقف سير القضاء عملياً لمدة خمس وعشرين سنة : فكان ذلك فوضى فاضحة جاءت جزيلة الفائدة للدائنين . ولو توفرت المعلومات لدينا ، لاتضح لنا دونما شك وجود وتململ حركة اصـلاحية ، ان لم تكن ثورية ، في كل مكان تقريباً .

الثورة الاجتماعية في سبارطة

كانت الازمة خطيرة جداً في سبارطة حيث تفسر خطورتها ظروف خاصة جداً . ومعلوماتنا عنها اوفر منها في اي مكان آخر .

سعت سبارطة تقليدياً وراء مثل اعلى لمساواة حقيقية بين المواطنين المتمتعين بحقوقهم الكاملة، « المتساوين » . ولكن عددهم قد انخفض انخفاضاً هائلاً ، فغدوا سبعمائة فقط في اواسط القرن الثالث بعد ان كانوا تسعة آلاف في الاصل على الارجح . وقد ادّى الى هذا الانخفاض تحديـد النسل الاختياري الذي هو النتيجة المحتمة غير المباشرة لتشريع حظـّر على المواطنين كل نشاط مأجور ووصم بعدم الاهلية كل من يتدنى دخله الى ما دون حد ادنى قانوني . وادى اليه ايضـاً ارتفاع نسبة الوفيات في ساحات الوغى بسبب تقييد السبارطيين بقانون قاس جداً خـاص بالشرف العسكري . وقد ادى اليه اخيراً انزال الذين يخالفون واجباتهم كمواطنين ، مهما كان السبب ، لا سيما الفقر ، الى الفئات الدنيا . فلم يبرز « نقص الرجـال » في اي مكان بروزه في سبارطة .

افضى هذا التطور ـ البليّة الى الانحطاط العسكري والى نتائج اجتماعية هامة . فالمساواة ، العملية او النظرية ، قد قضي عليها منذ زمن بعيد . وتجمعت الثروات ، بمـا فيها الممتلكات العقارية ، في العائلات المحظية ، ولا سيما في ايدي النساء ، الوارثات الغنيات . ولكن قيـام

الارستوقراطية الضيقة قابله في الجهة الثانية فقر بقيـــة السكان . فكثيرون منهم كانوا مدينين مهددين بخطر الحرمان من الحقوق السياسية وبعض الحقوق المدنية ؛ وكثيرون ممن أصيبوا بهـذا الحرمان راودهم الامـــل في اعادة توزيع الاراضي الذي سيؤمن لهم حياة سبارطية حقيقية ويعطيهم حقوقاً لم يعتبروا انفسهم غير اهل لها . وقـد دفعهم استياؤهم الى البحث عن حلفاء، ان لم يكن بين العبيد القليلين عدداً في سبارطة، فأقلّه بين الفداديين الرسميين المتطرفين ، الذين كانوا يتوقون ، هم ايضاً ، الى وضع قانوني وادبي افضل . فظهر الاختمار منذ اوائل القرن الرابع وافضى الى اضطرابات عنيفة في النصف الثاني من القرن الثالث .

كان الرؤساء في البـدء ملوكاً يتمتعون بشرعية تامة : « أغيس » الرابع و « كليومينوس » الثالث . فشل الأول بسرعة وحكم عليه بالموت . اما الثـــاني وهو ذو حنكة سياسية عرف كيف يرضي الزهو القومي ويبين الفائدة العسكرية من الاصلاح ويستثمر النفوذ الذي اكتسبه بانتصاراته ، فقد حقّق انقلاباً : فأمر بتقتيل القضاة وأبعد المعارضين. فاستطاع بذلـك إلغاء الديون واعادة توزيع الاراضي وزيادة عدد المواطنين. ورفع عدد الجنود أيضاً ووسّع انتصاراته الخارجية وبدا قادراً على ان يعيد الى سبارطة عظمتها السالفة ، لأن العدو البلوبونيزي الرئيسي، الاتحاد الآخي ، قـد دبّ فيه الانهيار بانتقال العدوى الثورية اليه . ولم يتمكن الحكام الآخيون من التغلب على كليومينوس وإرغامه على الهرب إلا بفضل التدخل المقدوني الذي دفع المقدونيون ثمنه غالياً على كل حال .

هكذا أعيد النظام المحافظ الى سبارطة، ولكنه لم يدم طويلاً فعادت الأزمة أشدّ عنفاً منـذ السنوات الاخيرة في القرن الثالث . وكان نابيس زعيم العصاة الاول ، وهو رجل من اصل ملـكي توصل الى الحكم بطريقة غير قانونية . وتمعن المصادر التي لدينا والتي تكرهه في الروايات المحيفـة عن قساوته حيال الاغنياء في سبارطة او في المـــدن التي استولى عليها كأرغوس ، وعلاقاته بالقراصنة وقطاع الطرق المختلفي الجنسيات ، والانعامات التي أغدقها على اقل اتبـــاعه اخلاقاً حسنة . اجل يتراءى لنا ، من خـــلال هذه البغضاء ، رئيس فظّ ولكنه مدفوع الى القساوة بسبب الحرب الاهلية والخـــارجية ، ومصلح جريء يتناول في اصلاحه ، لا الديون والاراضي فقط، بل رؤوس الاموال المنقولة أيضاً ، ويرفع عدد الموظفين الى حدّ بعيد باختيارهم بين المرتزقة والفداديين الرسميين وحتى بين العبيد. فهل من استغراب والحالة هذه لما أثاره سلوكه من فضيحة ورعب في اليونان ، ولا سيما في الجوار القريب ، بين اولئك الذين يدعوهم بوليب ، المؤرخ الآخي المحافظ ، بـ « ذوي التفكير السليم » ؟ وروما هي التي تدخلت هذه المرّة ، دون ان تفرض سقوط نابيس . ولكنها اضعفته إضعافاً كافيـــاً لحرمانه من نفوذه . وما لبث ان مات قتلاً ، فانتفت عن سبارطة صفة المنجم الثوري التي اتصفت بها طيلة نصف قرن .

المعضلة الاجتماعية والمعاضل السياسية

تبين هـذه الامثلة بوضوح كيف تكوّنت المعضلة الاجتماعية في اليونان الهلّينية : فهي لم تبرز يوماً منعزلة مستقلة بل متشابكة أبـــداً بمعاضل سياسية . وبـــديهي انها تشابكت بالسياسة الداخلية لانها في جوهرها ،

وفي الدرجة الاولى ، احد عناصر هذه السياسة . ولكنها تشابكت بالسياسة الخارجية ايضاً ، وهذا هو الدليل على خطورتها لان الخوف من العدوى قد لعب دوره في العلائق الدولية اكثر من مرّة . فقد استفادت الدول العظمى ، الاكثر اتصالاً وثيقاً بالشؤون اليونانية ، أي مقدونيا وروما ، من البلبلة التي خلقتها هذه المعضلة : فساند الملوك المقدونيون، دون سابق تصميم ، هذه النزعة هنا وتلك النزعة هناك ، غير مبتغين سوى المنافع الفورية واجتذاب الحلفاء ؛ اما روما ، التي ارتبطت دبلوماسيتها وجيوشها حينذاك بنبلاء مجلس الشيوخ دون غيرهم فقد أبدت نفوراً ظاهراً وفعّالاً في أغلب الأحيان من كل ما من شأنه ان يعكر النظام التقليدي ولكنها تورّطت أحياناً في تسويات املتها عليها الانتهازية .

كانت نتيجة ذلك الانقسام الذي قاست منه الامرّين طبقة الحكام اليونانيين في كل مكان تقريباً . فقد اضطروا ، في هذه الفترة أو تلك ، الى الاختيار بين مخاطر الثورة الاجتماعية وبين السيطرة الاجنبية ، وقد انحصرت مأساة بوليب وأصدقائه السياسيين ، لا سيما بطله ومعلمه فيليبومين « آخر الاغريق » كما يتضح ذلك مما تبقى من مؤلفاته، في انهم لم يستطيعوا ، على الرغم من كل جهودهم ، التخلص من ضرورة هذا الاختيار . ففضل بوليب قبول السلطة الرومانية التي لا تقاوم . وصرف بورجوازيون آخرون كثيرون ، أخيراً ، النظر عن مصالح طبقتهم . ولكن المصيبة ، بالنسبة لاستقلال اليونان، انهم لم يقرروا هذا الاختيار في كل مكان وفي وقت واحد قبل ان يفوت الأوان: فقد أدى به انقسام البلاد الى دول كثيرة ومنازعاتهم القديمة والجديدة الى خوض المعركة الحاسمة بنظام غير موحد . ولم يقرر الزعماء الآخيون إلا في السنتين ١٤٧ و ١٤٦ خوض حرب لا هوادة فيها ضد روما ففرضوا تأجيل دفع الديون وقرروا مساعدات للفقراء وحرّروا وسلحوا ١٢ ٠٠٠ عبد . فقبلوا بذلك حلولاً آثر خلفاؤهم عليها ، فيما مضى، ضد رأي كليومينوس الثالث ، الحماية المقدونية، وضد نابيس ، الحماية الرومانية . ولذلك لم يكن لتدابيرهم الصدى اللازم حين كانت لا تزال هنالك ملكيات عظمى قادرة على موازنة قوة روما .

بعد ان انتصرت روما على هذه الانتفاضة التي أعوزها التلاحم والعضد الخارجي وطدت حينذاك ، في كل مكان ، النظام الاجتماعي وسيطرتها . ولكن التسليم للأمر الواقع ، في البورجوازية كما في الطبقات الاجتماعية الدنيا ، لم يتم إلا بكل بطء : ولا نلمسه حقاً إلاّ في عهد الامبراطورية حين اتيح للبلاد ، التي اضعفها تناقص سكانها من جهة ثانية ، ان تعرف ، بالاضافة الى السلم ، ادارة لائقة ، وان تتوصل الى التوازن الاقتصادي باكمال مواردها الطبيعية بفضل استثمارها السياحة وتصديرها الى الغرب الروائع الفنية والرجال الذين ثقفتهم حضارتها ، الاطباء والاساتذة والصناعيين اليدويين الماهرين .

٣ ــ الحياة الاقتصادية في الشرق الهليني

كانت الظروف مختلفة كل الاختلاف في الملكيات القائمة في الشرق. فمن الناحية الاقتصادية، زخرت

اراضيها الشاسعة والواسعة الآفـــاق بالمزيد من الثروات ، وبنوع خاص تانك الدرتان اليتيمتان اللتان وهبتهما طبيعة سخية العطـــاء وكيفها عمل الانسان الجليد طيلة آلاف السنين ، اعني بهما بلاد مصر وبلاد بابل . ومن الناحية الاجتماعية ، ألّف الرعايا كتلاً ضخمة ، لم يكن للفرد فيها كبير اعتبار ، اعتادت الخضوع بانقياد الى اوامر السيد مهما كان من امر متطلباته . لذلك فان المعطيات الاولية للاختبار الهليني قد تباينت تبايناً كلياً في الشرق عنها في اليونان . وقد رافق هذا التناقض تناقض آخر اساسي في الظروف التي جرى فيها الاختبار . فبينما بقي الاغريق في اليونان وحدهم لم يدخل عليهم عنصر خارجي آخر غير العبيد ، فانهم لم يؤلفوا في الشرق ، على العموم ، سوى الطبقات الحاكمة وضباط الجيوش . اغريقـاً ، اصلاً وحضارة ، كان الملوك الذين اتجهت انظارهم ابداً نحو اليونان . واغريقاً كان المهاجرون الذين اتوا يبحثون ، في مـــا وراء المتوسط ، كبطانة وموظفين وفيين وجنود ومستعمرين وتجار ، عن فرص عمل او يسار مادي لم تتوفر لهم في بلادهم . وكان من شأن الاختبار ان يفضي الى نتيجتين قصويين على طرفي نقيض: اما استثمار الشرق واما نشر الحضارة اليونانية فيه . وقد توصل في الواقع هنا او هناك الى هذه النتيجة او تلك . ولكن اتساع الشرق وتنوعـــه يجعلاننا نرى ، بين هذين النقيضين ، فوارق وسيطة كثيرة .

إسهام الاغريق في نمو الشرق الاقتصادي

لم يصب اليونان سوى النزر اليسير من عطاء الطبيعة . وكذلك لم يتساوَ هذا العطاء في جميـع مناطق الشرق : فقد قامت فيه جبال محدبـــة ومناطق صحراوية او بورية . غير ان المناطق الحصيبة لم تكن قليـــلة فيه : فنظر اليه فاتحوه بسببها نظرهم الى جنة نعيم . فعمدوا، اوّل ما عمدوا، الى النهب والتبذير ، ثم جاء الاستثمار المنظم ، مرتكزاً الى الاستفادة من الثروات الطبيعية وتجديدها وفاقا لتعاقب الفصول .

لم يكن كلّ شيء بدائياً في هذا المجال . ففيما خصّ بعض اشكال الحياة الزراعية على الاقل ، ولا سيما تلك التي استخدمت الري ، وحتى فيما خص بعض التقنيات المهنية ، ولا سيما صناعـــة النفائس والاقمشة والمصوغات والزجاجيات ، لم يكن الشرق دون اليونان تقدما ، لا سيما وان اليونان لم تعوّض عن كل تأخيرها على الرغم مما حققته من اقتباسات خلال العهد القديم . ومـــع ذلك فان كفة الميزان اليونانية كانت راجحة بشكل واضح . فاسهم الاغريق الى حدّ بعيد في نمو الشرق الاقتصادي .

فقد وفرت سيطرة الملوك الهلينيين ، اولاً ، ان لم يكن السلم الشامل ، فاقله سلماً اقلّ نقصاً . سبق للامبراطورية الفارسية ان تعرضت لاكثر من ازمـة داخلية ، كانت نتائجهـــا الثورات والحروب والضرائب . وحدثت ازمـات اخرى زاد من خطورتهـــا تنافس الملوك ودسائسهم وحملاتهم العسكرية وحتى غزوات « البرابرة » من امثال الغاليين الذين اتوا في اوائل القرن الثالث

وأستقروا في قلب آسيا الصغرى حيث غدا سجسهم شغلا شاغلا خطيرا للسكان المجاورين. ولكن الامن ، على الاجمال ، كان اعم منه في الماضي .

سهل هذا السلم النسبي عمل الادارة الخيرّ . لم تبلغ الإدارة اليونانية يوماً الكمال التـــام ، ولكنها برهنت ، دون كبير عناء ، عن انها ادقّ من الادارة الفارسية وافضل منها فنياً : فـلم ترتبط الادارة الفارسية عملياً ، في النهاية ، سوى بالمرازبة ، الاقطاعيين الايرانيين الذين تراخت رقابة الملوك الاولى عليهم . واستعادت بلاد بابل ومصر ، بنوع خاص ، النظام الطبيعي والتنظيم الضروري لحسن استعمال مياه انهرها ولاستثمار خصبها الطبيعي استثماراً منطقياً .

ترتب على الادارة اليونانية واجب اول طبيعي هو انشاء او اصلاح وسائل المواصلات. فبدون هذه الوسائل تصاب السلطة الملكية بالشلل ؛ وبـدونها تتوقف التجارة أيضاً . فرممت الأقنية والجسور والطرقات التي تضررت كثـيراً بفعل الاهمال والفوضى السابقين . وتتوفر لدينا ، في هذا النطاق وغيره، المعلومات الكثيرة، لا سيما حيال مصر، بفضل استخدام البرديات وحفظها: عناية بأقنية الري القديمة وحفر أقنية أخرى جديدة ؛ تجديد العمل في الاراضي المهملة ؛ توسيع الاراضي الزراعية ، لا سيما في الفيوم ؛ بنـــاء الارصفة والسدود والأنابر والمخازن ؛ اكمال أو إعادة فتح القناة التي تصل دلتـا النيل الشرقية بخليج السويس ؛ انشاء ورقابة طرقات القوافل التي تجتاز الصحراء العربية حتى البحر الاحمر ... الخ .

يدل هذا التعداد الممكن إطالته ان الملوك قد اقتصروا في أغلب الاحيـــان على ترميم أو متابعة عمل أسلافهم القريبين أو البعيدين ؛ فنحن نعلم أنه سبق للانسان، في عهد السلالات القديمة جداً، ان اخذ يحسّن في الفيّوم الاراضي الجديدة للزراعة. ولكن الاغريق أحدثوا أشياء جديدة أحياناً بفضل تقنية وعلم مهندسيهم الذين برهنوا عن مقدرتهم في بلادهم ووجدوا هنا الآن اليـد العاملة والمال بوفرة كلية . كانت المرافىء بنوع خاص أحد تحقيقاتهم الرئيسية : مرافىء عديدة على كل الشواطىء حمتها وحسنتها انشاءات ضخمة احيـــاناً على غرار رصيف ساموس الذي أحدث منذ القرن السادس . ولعل أهم نجـــاح في هذا المجال انشاء مرفأ لا بل مرافىء الاسكندرية . فعند رأس جزيرة فاروس شيدوا برجاً يبلغ علوه ١٢٠ متراً تشتعل فيه نار يراها البحارة على ابعد من خمسين كيلومتراً ؛ وان شهرة هـــذا البناء ، الاول من نوعه حتى ذاك العهد ، قد حوّلت اسم الجزيرة الى اسم نكره (*Phare*) . وقـــد وصل الجزيرة بالياسة سدّ يتجاوز طوله ١٢٠٠ متر ترك عند كل من طرفيه ممر للمراكب يعلوه جسر ، فتكوّن بهـــذه الطريقة مرفآن واسعان مجهزان بالارصفة . كما وصلت احدى الاقنية بحيرة داخليـــة بالنيل . وهكذا فان المهندسين اليونانيين قد حققوا ، قبل المهندسين الرومان بزمن بعيد ، اموراً عظيمة اثارت دهشة العالم القديم وكانت له مثلاً يحتذى به . وفي هذه الامور دليـــل على عظمة اتساع مجهود التجهيز الذي بذله في الشرق اسياده الجدد والذي لم يلبث اثره ان برز في نشاط الحيـــاه الاقتصادية .

كانت اقامة المهاجرين الاغريق في الشرق وتأسيس مدن كثيرة جديدة كسباً آخر للتجهيز الاقتصادي ، اقله من بعض الاوجه . فالاغريق ، على العموم ، وفروا الاجهزة الفنية لاستثمار الموارد الطبيعية استثماراً افضل . اما المدن فقد غدت اسواقاً ومراكز تجارية في مناطق كثيراً

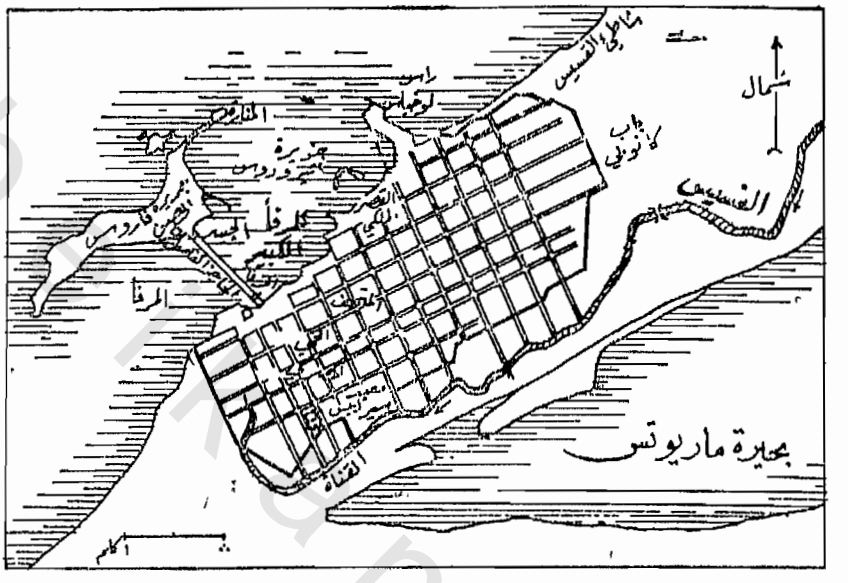

الشكل ٢٦ ـ الاسكندرية الهلينية
القسم الاخير من القناة غير معروف ؛ ولا نعلم الى أي المرفأين كانت تنتهي

ما كانت محرومة منها . واشترى سكانها المحاصيل الزراعية من الارياف المجاورة التي ارتفع انتاجها بفضل هذه الاسواق الجديدة ، بينما قدم صناعيو المدن للريفيين مصنوعات عملهم. فبلغت اراض كثيرة ، لا سيما في آسيا ، مستوى اقتصادياً ابعد تطوراً واعظم نشاطاً .

ادخل الاغريق ، بصورة مباشرة او غير مباشرة ، وبفعل مجرّد وجودهم وحاجاتهم واقامة العلاقات مع البلدان النائية ، طرائق استثمار مجهولة ، او حسّنوا الطرائق القديمة. فأخذت زراعة الكرمة تنتشر في كل مكان تقريباً ؛ اما زراعة شجرة الزيتون ، المتعذرة في وادي النيل ، فقد انتشرت الى حد بعيد في آسيا الصغرى . وقد اظهر ملوك عديدون اهتماماً بالغاً لهذه الامور العملية . فاشرفت الادارة في مصر على زراعة الاشجار وقدمت بذار القمح الاجنبي الممتاز ؛ واصدر احد الملوك امراً الى احد المقربين اليه بالسعي سعياً حثيثاً منظماً للحصول على موسم سنوي ثان ؛ واستحضر احد كبار الملاكين ، وهو موظف ذو نفوذ ايضاً ، من آسيا الصغرى ، اغناماً اصيلة ورعاة اختصاصيين . وقد احتفى احد الملوك الاطاليين ، في جبال « إيدا » الحرجية ، التي استخرجت منها اخشاب وصموغ بطمية شهيرة ، بـ « الصنوبرة العظيمة » التي يبلغ ارتفاعها ٢٠

متراً ودائرة جذعها ٧ امتار ؛ واشترى آخر ، بأسعار مرتفعة جداً ، خنازير ذات قامات وأوزان استثنائية ؛ ونشر ملك ثالث « بحثا في الحدائق » مكرساً لعلم النبات وللأشجار المثمرة بنوع خاص . وكان لجميع السلالات مصانع ملكية حيث تعنى اليد العاملة الفدادية بانتاج مصنوعات الفخفخة التي تغدو في الاساس من انتشار الازياء . وكثيراً ما قورن هذا العهد بعهد المستبدين الواسعي العلم في القرن الثامن عشر : ان ما يبرر هذه المقارنة خير تبرير هو عناية الملوك الخاصة بنمو دولهم الاقتصادي .

مهما بلغ من جدة هذه الجهود وتنوعها ونشاطها ، فان تقنية اثر العمل السياسي على العمل الاقتصادي ما زالت ، بسبب بدائيتها ، ابعد من ان تكون فعالة في جميع الحقول . وان العمل في حقل النقد قد فاق اهمية ، بنتائجه العملية ، جميع الاعمال الاخرى : ويمكننا الكلام ، في هذا المجال ، عن ثورة حقيقية . فالشرق لم يستخدم النقود الا نادراً قبل الاسكندر؛ ولم تضرب الحكومات منها الا كميات قليلة : حتى ان النقود لم تكن متداولة في مصر عملياً . فالعلائق التجارية مع اليونان واجور المرتزقة هي وحدها التي اوجبت استخدامها ، وقد قامت القطع النقدية الاثينية — بصعوبة ، كما هو طبيعي — مقام القطع النقدية المحلية النادرة . وكان هذا النقص حاجزاً في طريق نمو المبادلات ، وبالتالي في طريق الانتاج . ولكن كل ذلك تبدّل تبدلاً عميقاً في ايام الاسكندر وخلفائه الذين ألقوا في التبادل ، بفضل ضرب المزيد من النقود ، السبائك المكدّسة على غير جدوى في مستودعات الملك الفارسي والاواني والقرامد الذهبية والفضية الموجودة في المعابد . ولكنهم لم يحققوا يوماً وحدة عيار ووزن النقود . فساد في آسيا النظام الاثيني الذي اعتمده الاسكندر في مقدونيا ، بينما كان لمصر نظامها الخاص . غير ان تشابه النظام المصري بالانظمة الفينيقية والرودسية قد سهل العمليات الحسابية التي تسبق المبادلة. وهكذا فقد حذا الاتاليون حذو المدن اليونانية في شاطىء آسيا الصغرى وضربوا ، وفاقاً للنظام الاتيكي ، قطعاً نقدية كثيرة تبلغ قيمتها ثلاثة دراهم ولكنها توازي عملياً قطع الاربعة دراهم المصرية ، كما توازي قطع الثلاثة دنانير الرومانية. وقامت هنالك صعوبات اخرى كثيرة . فقد اضطر اللاجيون ، للحصول على معدن الفضة الذي افتقرت اليه مصر ، للجوء الى سياسة تجارية. وقد طرأ على نسبة القيمة بين المعادن المضروبة ، لا سيما بين الذهب والفضة المستخدمين للعلائق الدولية من جهة ، وبين النحاس للتداول المحلي من جهة اخرى ، تغييرات هامة عديدة . فقد انخفضت قيمة النقد النحاسي على الاخص في مصر حيث اكثر الملوك ، لتلافي عجز الخزانة ، من اصدار تلك القطع التي ألفها رعاياهم البلديون فانتقلت النسبة الاولى ١/٦٠ بين الفضة والنحاس ، اكثر من مرة ، منذ السنة ١٦٠ قبل المسيح ، الى ٤٠٠ وحتى ١/٥٠٠ . ولكن نتيجة سيطرة الاغريق ، على الرغم من هذه السيئات ، كانت عظيمة على هذا الصعيد . فقد ارتد الشرق جميعه الى اقتصاد نقدي ، بينما لم تعتمد مناطق واسعة جداً في ما سبق سوى الاقتصاد الطبيعي والمقايضة . وجلي ان التجارة قد وثبت بفضل ذلك وثبة كبيرة الى الامام .

النشاط الاقتصادي : الزراعة والصناعة

لذلك فان نمو الحياة الاقتصادية مما يلفت الانظار اذ انها قد بلغت نشاطاً لم يسبق لها ان عرفته من قبل . غير ان المعلومات تعوزنا لوضع خريطة للمحاصيل الزراعية . فيجب علينا ان نكتفي بذيوع الشهرة الذي عبّر عنه آنذاك في ما يمكن ان ندعوه اليوم بالكلام السائر ، وبالصادرات التي من شأنها ان تترك مزيداً من الآثار في مستنداتنا . تفوقت مصر بوفرة الموارد التي حصلت عليها من ارضهـــا . وحري بنا القول انها تبدو متفوقة فقط لانه يجب علينا ان نأخذ بعين الاعتبار جهلنـا المطبق حيال بلاد البختيار التي نرجح انها كانت كثيرة الانتاج ، وجهلنا شبه المطبق حيال بلاد بابل ، باستثناء ثروتها في زراعة النخيل والقمح . اما المملكة اللاجية فقد كان لديها كميات كبيرة من الحبوب للتصدير ؛ والمحاصيل الارضية الوحيدة التي اضطرت الى استيرادها ، الى جانب الخشب والمواد الصمغية الضرورية لاسطولها الذي لا وجود له في بلاد تفتقر الى الاشجار ، هي الخمور المشهورة او زيت الزيتون المفضل على زيت النبـــاتات السنوية كالسمسم او الخروع . وتمتعت حينذاك اشجار فينيقيا وسوريا بشهرة ستستمر قروناً طوالاً . اما المنـاطق الساحلية في آسيا الصغرى فقد اضطرت الى استيراد القمح ، ولكنها باعت النبيذ والزيت والعسل ، بينما وجدت المناطق الداخلية في تربية الغنم تكملة لانتاجها الزراعي .

كذلك لا تتراءى لنا الصناعة الا من خلال صادراتها اي من خلال مصنوعاتهـا التزيينية . وفي هذا الحقل ايضاً يتضح تفوق مصر الغنية بالمواد الاولية الثمينة وباليد العاملة الاختصاصية : فهي تبيع البردي الذي تكاد تحتكره احتكاراً ؛ وتبيع المصوغات والعطور والمنسوجـــات والخزفيات والزجاجيات والبرونزيات . ولكن فينيقيا تنافسها في اكثر هذه المصنوعـــات كما تنافسها « برغاموس » في الرق والخزفيات التي تقلد البرونز والعطور والمنسوجات التي تتخللها الخيوط الذهبية والتي تنتجها المصانع الايطالية .

واليك مثلاً محسوساً ابلغ من هذا التعداد يريك وفرة الانتاج في الشرق . في اعقاب زلزال دمر رودس حوالى السنة ٢٢٥ قبل المسيح تسابقت كافة الدول الهلينية في اظهار بوادر السخاء نحو المدينة المنكوبة . فلنكتف بالهبات العينية التي ارسلها الملكان اللاجي والسلوقي فوراً او وعدا بارسالها في اجل قريب جداً . فقد قدم الاول ٤٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ليتر قمحـــاً ، وكمية من الخشب تكفي لبناء ٢٠ مركباً و ٢٠ ٠٠٠ متر من عوارض خشب الصنوبر و ٣٠٠٠ ورنة من الدسار و ٣٠٠٠ قطعة قماش للأشرعة ، وقدم لاعادة صنع « الجبار » ٣٠٠٠ مثقال من البرونز ، بالاضافة الى مساهمة ١٠٠ مهندس و ٣٥٠ مدير اشغال ، كما قدم ٤٨٠٠٠٠ ليتر قمحاً للمباريات المقدسة والذبائح و ٨٠٠ ٠٠٠ لتغذية بحارة عشرة مراكب . وقدم سلوقس الثاني من جهته ، بالاضافة الى عشرة مراكب مع عدتها ٨ ٠٠٠ ٠٠٠ ليتر قمحاً ، و« خشباً وقطراناً وشعراً تبلغ عدة عشرات الآلاف من الاذرع وعدة ألوف من الوزنات » . فيمكننا انطلاقاً من اهمية هذه الهبات ان نقدر اهمية الانتاج والصادرات .

النشاط الاقتصادي : التجارة

كفى كل هذا لتغذية تجارة ناشطة جداً . ولكن التجارة قد فقدت ميزتها الخاصة في الوقت الذي تطورت فيـــه . ففي المتوسط الشرقي عجزت الزراعة والصناعة اليونانيتان عن الوقوف في وجـــه منافساتها التي لم يعوزها من قبل سوى التجهيز والتقنيات ، وهي التي وفرها لها الاغريق انفسهم . والشرق الذي كان حتى ذاك العهد سوقاً لمصنوعات اليونان القديمة قد اقفل لأنه غـــدا يسد بنفسه اغلب حاجاته . لا بل اصبح باستطاعته ان ينافس المصنوعات المحلية في اليونان نفسها . اضف الى ذلك انه تعلّم كيف يلجأ مباشرة ، دون وسيط اجنبي ، الى المبادلات التي استلزمها فـائض انتاجه . فجاءت النتيجة ثورة تجارية حقيقية كانت أثينا اولى ضحاياها .

استمرت اليونان في الاستيراد ، أقله في استيراد الحبوب ؛ ولكن صادراتها تدنت ، ولم تعد تجارة بحر إيجه وقفاً على اسطولها . لا بل ان هذه التجارة قـــد انتقلت بمعظمها نحو الشرق وأمست تسير في اتجاهين ، شمالي جنوبي وجنوبي شمالي ، بين البحر الاسود ومصر بمحـــاذاة الشواطىء الشرقية . واستيقظت المرافىء الآسيوية من سبات عميق ولعبت رودس دور الوسيط بفضل موقعها عند ملتقى كافة الطرق البحرية : وقـد أطلق على جزيرة في أحـــد مرفأي الاسكندرية اسم « انتيرودس » أي مقابل رودس . ولكن الاسكندرية، بنوع خاص ، عرفت نشاطاً غـــير مألوف غربي الدلتا . فبفضل تيار بحري قريب من الساحل حماها من غزو الرمول الرسوبية ، وبفضل اتصالها بالنهر الكبير الذي هو شريان مصر كلها ، غدت مرفأ مصر الوحيد ومركز جميع المبادلات الخـارجية . فكل ما يخرج من مصر أو يدخل اليها يجب ان يمر في أرصفتها ، واليها تنتهي ومنها تتفرع الملاحة الداخلية التي كان من شأن سهولتها ان تفوقت مصر تفوقاً عظيماً على منافساتها . كان عمر الاسكندر أربعاً وعشرين سنة حين أصدر امره بتأسيس الاسكندرية : ففي ذلك اليوم ، كما في أيام كثيرة من حياته القصيرة ، غيّر وجه ومصير العـالم الذي تناوله نشاطه .

ولكن المتوسط لم يحدد افق الشرق التجاري . فـالاسكندر قد وسع هذا الافق باندفاعه حتى تركستان ونهر الهندوس والخليج الفارسي . أجل كانت الفتوحات العسكرية عرضة لزوال سريع : فقـــد اضطر خلفاؤه ، الى الشمال والشرق من ايران ، الى التخلي بسرعة عن بعض المناطق . وقد فقدت هذه المناطق النائية فقداً نهائياً منذ أوائل القرن الثاني ؛ ثم جاء الفارتيون من تركستان وتقدموا نحو الجنوب وأقامـوا في بلاد بابل عازلين بذلك اغريق البختيار عن باقي العالم الهلّيني . ولكن هذا التراجع السياسي لم يحل دون استمرار العلائق التجارية .

فقد اتاحت هذه العلائق للمتوسطيين الحصول على المصنوعات النادرة التي طبعت بطـــابع العظمة حياة العلّية من الطبقات الاجتماعية . ربما كان من الممكن استحضار بعضها من افريقيـا الوسطى ايضاً ، كالعاج والاخشاب النادرة ، ولكن نقلها عن طريق المحيط الهندي كان اسهل

منه عن طريق الصحراء او السودان . وقد وفر عالم الشرق الاقصى للنائي عطور وبخور البلاد العربية ولآلىء الخليج الفارسي ولآلىء الهند الحمية والماس والحجارة الكريمة. ثم ظهرت الافاويه فأحرزت نجاحاً مطرداً . واستورد القطن بكميات ضئيلة ، والحرير ايضاً الذي فاق مـــا كانت تنتجه دودة برّية هنا وهناك ؛ وقد نسج الحرير في صور وفي جزيرة كوس فأعجب به كل ذي ذوق مرهف ولكنه اخذ ، يوماً بعد يوم ، ينفتّر الغيارى على الاخلاق . ولم يكن لدى العـــالم المتوسطي شيء يبيعه بالمقابلة ، سوى الاقمشة الملوّنة وانتاج صناعته الرائجة . ولا شيء من هذا يصدّر بعيداً على العموم ، على الرغم من توفر الادلة على وصول الاقمشة السورية الى بلاد المغول . ولكن العجز يسد بتصدير النقود ، فتكوّن منذئذ وضع سيستمر حتى في العهد الروماني .

بيد ان هذه التجارة كانت جزيلة الفائدة لجميع المعنيين ، لا سيما للوسطاء ، على ما نرجح . وقام تنافس شديد بغية الاشراف على طرقات هذه التجارة، وحاولت كل بلاد ايصال هـــذه الطرقات اليها ، لتأمين الخامات الثمينة ولجني الارباح الطائلة من اعادة توزيعها او تحويلها . وقد تعددت هذه الطرقات. ولم تكن الطريق البحرية في ايدي الاغريق لأن اكتشاف الرياح الموسمية لن يحصل الا بعد زمن . فقد سيطر عليها البحارة العرب ، وحاول البطـــالسة توجيه معظم تجارتها نحو مرافئهم في البحر الاحمر ، وغالباً ما افلحوا في محاولتهم ، بينما عني السلوقيون ، في اقصى الخليج الفارسي ، بمرفأ « الاسكندرية خاركس » التي سيطلق عليها فيما بعد اسم انطاكية. وكانت هنالك طريق برية تمر في تركستان وتبلغ بحر قزوين ثم تنتهي الى البحر الاسود بعد ان تجتاز اودية القفقاس : ويبدو انها قد اهملت . وانطلقت الطريق البرية الرئيسية من البختيـــار وانتهت ، بفضل القوافل الايرانية ، الى بلاد بابل. واسس السلوقيون هنا مدينة «سلوقية دجلة» التي هي عاصمتهم الشرقية والتي استخدمت مستودعاً لكل البضائع التي تنقل براً او بحراً . ثم تفرعت الطرقات نحو الغرب . ولكنها تبعت كلها – بسبب قلة استخدام وادي دجلة وبلاد ما بين النهرين العليا – مرحلة مشتركة هي وادي الفرات الذي سارت فيه صعداً مسافات تتفاوت طولاً وقصراً . وقد افترق بعضها بسرعة عن هذا الوادي واجتازت الصحراء التي اخذت تزدهر فيها « مدن القوافل » واتجهت بخط مستقيم نحو مرافىء فينيقيا . وافترقت طريق اخرى عن الفرات في سوريا الشمالية واتجهت نحو انطاكية، عاصمة السلوقيين الغربية،ومرفأ «سلوقية بييريا». واتجهت اخيراً اطول هذه الطرق الى ميله وافسس بنوع خاص ، على بحر ايجـــه ، مروراً في كيليكيا ووسط آسيا الصغرى . فأثارت هذه النقاط المتوسطية التي انتهت اليها الطرقات اطماع الدول المختلفة : فقد تنازع اللاجيون والسلوقيون بعناد السيطرة عليها . وكانت الغلبة للسلوقيين طيلة القرن الثالث . فسيطروا اذ ذاك على سوريا الجنوبية والشاطىء الفينيقي ، كما سيطروا على سلوقية بييريا حوالى ثلاثين سنة . اما في الشمال ، فانهم قد أمنوا ، حـين لم يسيطروا مباشرة ، حماية او تحالف معظم الطريدة الساحلية في آسيا الصغرى . ثم قلب السلوقيون الموقف رأساً على عقب ، واذا طردتهم روما من آسيا الصغرى لمصلحة الاطاليين ، فانهم قـــد احتفظوا ، حتى

الفوضى النهائية ، بسوريا وفينيقيا. واستهدفت حروب كثيرة فتح او اقفال نوافذ آسيا على البحر المتوسط : فقد حرص الملوك على الاشراف على المرحلة الاخيرة من التجارة مع الشرق البعيد بالاضافة الى العلائق المباشرة مع اليونان القديمة .

رجحان السياسة على الاقتصاد : الملوك يضعون يدهم على الحياة الاقتصادية

وفي ذلك ما يلفت النظر الى صفة بارزة من صفات الحياة الاقتصادية في الملكيات الهلّينية . ففي كل الحقول تلقّى الانتاج والمبادلات احتثاثاً قوياً كانت نتيجته نمواً عظيماً . ولكن الدولة تدخلت في كل مكان لتوجيه هذا النمو توجيهاً يتلاءم ومصالحها .

كانت هذه المصالح ، في أغلب الأحيان ، أميرية ، بكل ما لهذه الكلمة من معنى ، تستهدف زيادة دخل الضرائب او إقامة احتكارات لمنفعتها الخاصة أحياناً . وكانت أحياناً تجارية أيضاً تستهدف زيادة المخزون من المعادن الثمينة في أراضي الملكية . فان زيادة انتاج بضائع الاستهلاك لا تهم الملوك إلا بالنسبة لحاجات الاغريق الذين رغبوا في إرضائهم لاجتذابهم اليهم او لابقائهم على مقربة منهم ، ولكنها لا تهمهم بالنسبة للجماهير البلدية . وكان المهم في نظرهم ، كما كان في نظر المستبدين المستنيرين من قبلهم ، الموارد والمصنوعات المعدّة للتصدير التي يجب الحصول عليها بأدنى سعر ممكن ، كي يستطيعوا التغلب على المنافسة . فلم يستهدفوا اذن رفع مستوى حياة الطبقات الريفية الدنيا ، التي تؤلف سواد رعاياهم : فإن إبقاءه منخفضاً ، على نقيض ذلك، شرط لسعر الكلفة المنخفض . وقد سبق ورأينا ان هذا المفهوم الضيق كان نكبة للاقتصاد اليوناني ، فسبّب أيضاً ضعف السيطرة اليونانية على الشرق . فلم يكن الشرق ، في نظر الملوك ، سوى ارض للاستثمار سعوا جهدهم ، بتحسين المناهج ، الى زيادة دخلها بغية زيادة وسائل عملهم السياسي. وقليلون جداً هم الملوك الذين لم يكتفوا بالدخل المباشر القريب ، بل فكروا بالمستقبل: ولعلهم السلوقيون دون غيرهم ؛ ولكن الهزائم التي منوا بها لم تسمح للمستقبل بأن يبرهن انهم كانوا على حق .

لم يبلغ الاهتمام بالدخل المباشر القريب وتحسين مناهج الاستثمار في أية ملكية ، ما بلغه عند اللاجيين . فقد اقاموا في مصر نظاماً يصح في تحديده التعبير « اقتصاد مباشر » بالتفضيل على « اقتصاد موجّه» ؛والمقصود بذلك اضيق تدخل دولي مباشر لا يهتم إلا لجباية الاموال الاميرية. وقد مهدت الطريق امامه كل تقاليد البلاد الناشئة من الظروف الجغرافية نفسها التي فرضت وجوب مراقبة فيضان النيل والاستفادة منه الى ابعد حد ، وهو في الوقت نفسه علة ومعلول لانقياد الفلاحين المنظم . ولكن الملكين الاولين من الملوك البطالسة استفادا منه بصرامة منطقية ومرونة في الابتكار ودقة في التنظيم تثير كلها دهشة المعاصرين الذين قطعوا ، على صعيد « الاقتصاد المباشر » ، المرحلة التي تجوز فيها الدهشة. فتوصلا ، لخير خزانتهم الاكبر ، الى التوفيق بين « التصميم » والسلطة والرقابة والتلزيم والضرائب والاحتكار .

القسم الاكبر من مصر مُلـــك الملِك المباشر . يلزّم قطعاً صغيرة وفاقاً لدفتر شروط دقيق جداً ، ويستثمر ، فيما خص الزراعات الرئيسية ، وفاقاً لأوامر الملك . يحدد وزير الاقتصاد كل سنة المساحة الواجب بـذرها في كل مقاطعة ، اقله فيما خص القمح والنباتات الزيتية والكتان . ويوزع الموظفون الاوامر العائـدة للبذر بين المزارعين ويتأكدون من تنفيذها . وتسلّف الدولة حبوب البذار . ويصدر الامر بجمع المواسم التي تحجز وتخزن في مكان عمومي تحت حراسة اشخاص مسؤولين يصادرون في كل قرية. وهكذا تحصّل بالتفضيل حقوق الدولة بنسبة متساوية تحددها هي : إعادة البذار مع فائدته ، استيفاء المتـــأخرات المطلوبة للخزانة ، دفع الضرائب وقيمة التلزيم . ثم يرفع الحجز ويستطيع الفـــلاح التصرف بما تبقى له ... اذا لم يكن الصنف خاضعاً لاحتكار ما . وهنـــالك في الواقع اكثر من احتكار ، لا على الحبوب ، بل على الزيت مثلاً الذي نعـــلم عن احتكاره الشيء الكثير بفضل برديّ يحمل نص امر صادر عن بطليموس الثاني . ويتضح من هذا الأمر ان الحبوب الزيتية يجب ان تبـــاع كلها ، دون أي استثناء ، الى ملتزم وانه يحظر على الفلاح ان يقتني في بيته هاوناً او معصرة او اي شيء آخر من هذا النوع . وتخضع العمليات اللاحقة كلها ، منذ نقـــل الحبوب الى معصرة الزيت حتى بيع الزيت الى المستهلك ، مروراً بعمليتي السحق والنقل ، الى سلسلة من التلزيمـات التي تفرض عليها الضرائب واعمال الرقابة التي تعاقب ادنى مخـالفة بالجزاء النقدي . اضف الى ذلك ان الدولة تحدد السعر في كل مرحلة من هذه المراحل فتستطيع من ثمّ ان تعين حداً ادنى لأرباح الملتزمين . فنتج عن ذلك انه كان بالامكان الحصول على زيت الريتون ، مع انه مستورد من الخارج ، بسعر دون سعر الزيت المحلي بمراحل ، لو لم تراقب الدولة استيراده وتفرض عليه رسوماً مرتفعة جداً .

تعفينا هذه الأمثلة من استعراض الاحتكارات والضرائب التي لا حدّ لها . وهي تظهر ، بما فيه الكفاية ، ان الحياة الاقتصادية كلها في مصر اللاجية ترتبط بالملك ، وان نموّها لا يفيد سوى الملك . وقـــد يؤدي رضى الملك ، الذي يظهر باقطاعات عقارية قابلة الابطال توجب استثمار الاراضي الحديدة ، الى اثراء بعض المقربين المحظين . واستطاع الاغريق النشيطون الماهرون ، الذين لقوا كل ترحيب في المملكة ، ان يحصلوا فيهـــا بسهولة على قسط وافر من اليسار . اما الجماهير البلدية فقد اضطرت الى العمل كي توفر لسيدها سبل اثبات سلطته وسخائه ، في حـــال انها لم تتأكد يوماً من انها ستبلغ اوضع مستوى حياتي .

لم يبلغ « الاقتصاد المباشر » هذه الدرجة من الاحكام في الملكية الاطالية التي ارتفعت فيها، على كل حال ، نسبة الاغريق والشرقيين « المستغرقين » الذين يصعب تطبيق هـــذه الاساليب الشديدة حيالهم . غير ان اختلاف الاساليب لم يحل دون وجود نزعة عامة مماثلة . ان المثـــل اللاجي لا يمكن تحقيقه الا في ارض الفراعنة : ويبدو ان الاطاليين قد حاولوا الاقـــتراب منه جهد المستطاع . فهم قد امتلكوا قسماً كبيراً من السهول واستثمروها بواسطة فلاحين فداديين

يفلونهم من ارض الى ارض كما يطيب لهم . واقتطعوا قسماً من الحصاد في الاراضي المقطعة للفلاحين اليونانيين . وفرضوا اموالاً اميرية باهظة حتى على المدن اليونانية التي حدث ان حجزوا ممتلكات معابدها مقابل مساعدة سنوية للخدمة الإلهية . وكان لهم مصانع ملكية يعمل فيها العبيد رجالا ونساء . وتصرفوا بمواد، خامية او مصنوعة، اتجروا بها او وزعوها لدعم دعاوتهم ودبلوماسيتهم . فلم تستطع الطبقات الاجتماعية الدنيا عندهم ، كما عند اللاجيين ، ان تشعر بأي تغيير في مصيرها المادي ، بفعل السيطرة اليونانية ، غير وطأه ادارة اشد حرصاً على مصالح الملك المباشرة واكثر دقة في تحصيل مطاليبها .

لا نجد التراخي في هذا المجال الا عند السلوقيين . ولا يعني ذلك ان هذا المثل الأعلى بالغريب عنهم . فمن حيث هم ملاكون كبار ايضاً ، فان لديهم وكلاء يراقبون استثمار اراضيهم بواسطة فلاحين مرتبطين بها . وقد حصلوا ، اقله في بعض المناطق ، كبلاد بابل التي تتوفر لدينا المستندات حيالها ، ضرائب تستلزم رقابة الاشخاص والمواشي والاشجار والحاصلات وكافة المبيعات. فلم يأنفوا اذن من رقابة النشاط الاقتصادي رقابة شديدة. ولكن اتساع رقعة مملكتهم قد وفر لهم دخلاً كبيراً دون اللجوء الى الرقابة التي لجأ اليها اللاجيون . لا بل ان مملكتهم اوسع من ان يكون ذلك ممكناً ، لانه يفرض عليهم اختصاصيين وموظفين كثيرين جداً . فاضطروا والحالة هذه الى تنازلات عديدة تاركين لجماعات بشرية مختلفة حياتها الاستقلالية شريطة دفع ضريبة اجمالية سنوية هي رمز خضوعها . ويبدو ، حتى في الاراضي الملكية ، ان ادارة قرى الفلاحين لم تكن ضيقة ولا مزعجة . ونتمتع ، بقسط اوفر من الاستقلال ، السكان المرتبطون بالامراء ذوي الاخاذات او بالمعابد التي يدير كهنتها « الارض المقدسة » ، وخصوصاً « القوميات » المحلية التي سارت في حياتها ، كاليهود مثلاً ، على شرائعها الخاصة ، اي وفاقاً لتقاليدها ، والمدن ايضاً يونانية كانت أم غير يونانية. اجل قد يحدث ان تلح الحاجة الى الضرائب وان يفرض تموين الجيش ، مثلاً ، بعض المساعدات العينية، او ان يقرر الملك مؤقتاً ، بسبب حاجته الى المال ، وضع اليد على كنز معبد من المعابد . ولكن ذلك لم يعتمد قاعدة ولم يصطبغ بصبغة النظام اللاجي : فليس ما يقيد عمل الرعايا اليومي بتنظيم دقيق معدّ للتمهيد لما يشبه مصادرة ارباحهم .

٤ ــ الاتصال بين المجتمعين

من المحتم ان يترك هذا الخلاف اثره في الحياة الاجتماعية . اجل باستطاعتنا ان ننظر الى هذه الحياة من زوايا عديده . ولكن الجدّة الكبرى ، في هذا النطاق ، مردها الى دخول الاغريق بين الاجانب بنسبة متفاوتة الارتفاع . فقد برزت من ثم معضلة عظيمة الاهمية هي معضلة الاتصال بين حضارات متباينة الجوهر واستساغة جماعة بشرية لجماعة اخرى وتبادل التأثيرات والانفعالات . غير ان معطيات هذه المعضلة تختلف اختلافاً كلياً اذا الملك شجّع هذا الاتصال وهذه الاستساغة او لم يشجعهما .

انما المقصود هنا هو المدينة اليونانية .

المدينة اليونانية والمواطنون الاصليون

لا يستطيع الملوك الهلينيون ، لاجتذاب الاغريق الذين لا غنى لهم عنهم ولإبقائهم عندهم ، ان يكتفوا بتأمين الفوائد المالية لهم . فالاغريقي لا يشعر حقاً انه في جوّه إلا كمواطن في مدينة ، اي ليس فقط كساكن مدينة تتوفر فيها بعض الابنية والتجهيزات المادية ، بل ايضاً كعضو ، بكل ما للكلمة من معنى قانوني ، في جماعة تدير شؤونها بنفسها : بهذا الشرط وحده يمكنه ان يتوق الى تحقيق المثل الاعلى للانسان الذي يكمن في جوهر مثله الاعلى للحضارة . ويهمنا هنا ، دون ان نعود الى امر العلاقات السياسية والادارية بين المدينة والسلطة المركزية الذي يطرحه هذا المثل الاعلى على بساط البحث ، ان نستخلص نتائجه حيال المجتمع البلدي .

تريد هذه المدن ان تكون ديموقراطية ، وهي ديموقراطية في الواقع . ولكن كما ان المبادىء ذات الاهمية العالمية في الظاهر لم تتناف ، في المدينة الديموقراطية الاولى التي هي أثينا ، مع وجود الاجانب المقيمين والعبيد ، كذلك لم ير الاغريق ، في المدن التي أسست في الشرق ، ضيراً في ان يوجد الى جانبهم في مدنهم نفسها ، سكان ينتسبون الى طبقة اجتماعية يعتبرها القانون متدنية . ومعظم هؤلاء السكان عملياً من البلديين المنقطعين للمهن المدنية الحقيرة وللاعمال الزراعية في الاراضي الريفية التي تمتلكها المدينة . ولهذا التخلف القانوني ما يبرره في نظر الاغريق التخلف الحضاري ، وقد وجدت فيه غطرستهم ومصلحتهم ارضاء كافياً لكي ينتقلوا من فكرة الحضارة الى فكرة العنصر : فالبلديون ، بالتحديد ، أدنى من الاغريق وعليهم ان يخدموهم كما يخدم العبيد اسيادهم . تلك هي العقيدة الصافية التي طلع بها العهد الكلاسيكي والتي تركت رواسب عملية كثيرة في العهد الهليني على الرغم من بروز مثاليات تناقضها تناقضاً كلياً .

ولكن الاتصالات تتم على الرغم من كل شيء . فالرجال بين الاغريق أنفسهم كانوا الى حدّ بعيد أكثر عدداً من النساء : فاقتضى في أغلب الاحيان السماح بالزواج المختلط . اضف الى ذلك ان الحياة اليومية جعلت الشرقيين الذين يعيشون في المدينة يحتكون ، احتكاكاً على الاقل ، بالحضارة اليونانية . وألف الاغريق في المدينة بورجوازية تسيّر الامور على هواها ويقتفي الآخرون أثرها في اللغة والزي والعادات . وتوصل البلديون أحياناً الى دخول بعض الجمعيات والى ادخال اولادهم في الاندية الرياضية التي توزع فيها التربية اليونانية الاصيلة . وفي الظروف الملحة ، كالحرب او تدني نسبة الاغريق مثلاً ، استفاد بعضهم ممن تخلقوا بالاخلاق اليونانية من الترفيع رسمياً الى مستوى اعلى بما فيه مستوى المواطنية . اضف الى ذلك ان الملك ، دون ان يتقيد بهذا الشرط ، قد لمس فيهم معاونين جليلي الفائدة فعطف عليهم ورفعهم احياناً الى اعلى المراتب .

كان قيام المدن اليونانية وتعددها ، بالضرورة ، اذن ، عاملاً قوياً من عوامل نشر الحضارة

اليونانية . ولكن ذلك لم يكن كله لمصلحة الملوك . فالمدينة تولت شؤونها الخاصة ، ممـــا بسّط جهاز ادارة الدولة ؛ ولكن ذلك لم يعف من مراقبتها وحتى التفاوض معها ، مما أخّر تنفيـذ الاوامر . ولم تنشأ ، مادياً ، اية مدينة حديثة الا بنفقات باهظة تتحملها في البداية الخزانـــة الملكية . وكانت اراضيها تقتطع من الممتلكات المستثمرة لحساب الملك ، في حـــال ان الرسم السنوي الذي تدفعه يبقى ابداً دون دخل هـــذه الاراضي فيما لو بقيت تحت تصرف الملك ؛ ناهيك عن الاحسانات التي سيرى من الموافق فيما بعد ان يتكرم بهـــا عليها . ثم ان البلدي « المستغرق » كان مدعوا ، عاجلاً أم آجلاً ، الى ان يصبح يونانياً ، مما يوفر عليه بعض الواجبات المالية ويخلصه من العبودية الاقتصادية التي كان نظامه السابق يخضعه لها .

كان من ثم على الملوك الهلينيين ان يختاروا احد امرين : اما ترسيخ نتائج فتح الاسكندر عن طريق تشجيع « الاستغراق » بتعمير مملكتهم على الطريقة اليونانية ، واما الابقاء جهـــد المستطاع ، لا سيما بتحديد انشاء المدن الجديدة ، على الحاجز الفاصل بين المجتمعين مع فوائـد ذلك للخزانة الملكية . وبديهي انهم لم يختاروا كلهم حلا واحداً ، وباستطاعتنا ، انطلاقاً من النزعات الاقتصادية ان نستخلص نزعات السياسة الاجتماعية عند هذه السلالة او تلك . وهنالك في الواقع نزعتان : نزعة اللاجيين ونزعة السلوقيين .

١ – الحل اللاّجي في مصر

الاغريق والبلديون في مصر : المدن

احتاج اللاجيون الى الاغريق ، شأن الملوك الآخرين ، فاجتذبوهم الى مصر بتأمين تسهيلات المعيشة لهم ، وبتوفير اجور مرتفعة جداً احياناً اذا كان هؤلاء الاغريق موظفين او عسكريين ، اقله لكبار الرؤساء بينهم . وقد اختلفت علاقات هؤلاء الاغريق بالبلديين خارج المدن عنها في المدن نفسها .

قامت في مصر بعض المدن اليونانية اقتصرت فيها السلطة الملكية ، التي وضعت لها نظامها الاساسي والتي كان باستطاعتها تحويره ، على مراقبة الادارة التي هي مشتركة مبدئياً . وكانت الاسكندرية بين هذه المدن « على مقربة » من مصر لا في مصر نفسها . وألّفت هذه المدن ، من الناحية النظرية ، مناطق حرّة داخل البلاد المصرية شعر الاغريق فيها كأنهم في بلادهم . وكان في عداد سكانها جماعات غير يونانية : أجانب وخصوصاً يهود جاؤوا باعداد كبيرة لا سيما وان فلسطين قـــد خضعت للاّجيين حتى أواخر القرن الثالث ؛ وبلديون أيضاً ، كما هو طبيعي ، حفظ لهم مؤسس الاسكندرية نفسه مكانهم بجعل أسوارهـــا تضم قرية راكوتيس المصرية . وحدث من ثم في هذه المدن التطور المحتوم . فتأثرت العناصر غير اليونانية بسرعة بالحضـــارة اليونانية مما أرغم منذ البداية على محاولة الحد لا من اقامة هذه العناصر في المدينة بل من تسربها الى المجتمع اليوناني . وتتناول معلوماتنا الاسكندرية بنوع خـــاص حيث تجلى الخطر جسيماً بفعل

نشاط الحركة التجارية التي توفر المزيد من ظروف العمل الحر . ولكن هذه المعلومات تكشف الستار عن ذهنية عامة . فقد حرّم الزواج المختلط بين الاغريق والبلديين وقسّم سكان المدينة الى فئات متميزة أخضع الانتقال من احداها الى فئة اخرى لتنظيم شديد ليس الخداع معه بالامر اليسير . ولم يمنح حق « البورجوازية » بمعناها الحصري دون احتياطات حتى للاغريق العريقين . وما لبثت الاسكندرية ان أمست احدى كبريات مدن العالم القديم ، فأمست بالتالي أكثرها هياجاً بسبب وجود القصر الملكي فيها وما يستتبعه هذا الوجود من صخب سياسي ، وبسبب تنافس الجماعات البشرية التي يبرز اتصالها اليومي الفوارق بين أوضاعها القانونية : وسيبلغ هذا الهياج ذروته في القرون الاولى بعد المسيح في الاضطرابات المعادية لليهود .

وتقع مسؤولية هذا الوضع في المدن على الاغريق أنفسهم اكثر منها على الحكومة بسبب تمسكهم بامتيازاتهم . ولكن الملوك من جهتهم يتحاشون زيادة عدد المدن اليونانية . فقد قام منها ، أولاً واخيراً ، ثلاث في مصر : نوكراتيس ، المستعمرة القديمة على الدلتا ، والاسكندرية التي أسسها الاسكندر ، وبطوليابيس ، المدينة اللاجية الوحيدة ، التي أنشأها بطليموس الاول في مصر العليا . ولا يعقل ان يكون الملوك اليونانيون قد اكتفوا بهذا العدد إلا عن قصد وتصميم ، للحدّ من « استغراق » البلديين والحؤول دون قيام مناطق حرة كثيرة في مملكتهم تحدّ من سلطتهم المطلقة . فان رعاياهم يفلتون من أيديهم بعد ان يقيموا في المدن . لذلك بدا الابقاء على الوضع الاجتماعي لسواد المصريين شرطاً للابقاء على وضعهم الاقتصادي : فاللاجيون كانوا بحاجة الى يد عاملة يحصلون عليها ويسخرونها على هواهم .

الريف

ولكن وجد ايضاً اغريق في مصر في غير هذه المدن الثلاث . ولم يحدّ شيء من حريتهم في الاقامة والانتقال . غير ان مشاريع الدولة الاحتكارية لم تفسح سوى مجال ضيق لاقدامهم ومبادهاتهم التجارية . لذلك فان اكثر الذين عاشوا في الريف المصري لم يأتوا اليه من تلقاء انفسهم : فالملك الذي يقدّر تفوقهم التقني قد اقامهم فيه لاعتبارات مختلفة . وقد استخدمت الادارة ، التي لا تعترف بغير اليونانية لغة رسمية ، عدداً كبيراً منهم حتى في مراتبها الدنيا . وقد اقطع بعض المحظيين منهم اراضي واسعة نشطوا في استثمارها بمساعدة قيمين يونانيين وفاقاً لمناهج افضل . واعتمد اللاجيون اخيراً على نطاق واسع نظاماً استعمارياً عسكرياً لمصلحة الجنود اليونانيين في الدرجة الأولى .

ان هذا النظام يعفي الملك من دفع الاجور بين التعبئة والتعبئة . وله الفضل بالاضافة الى ذلك في ابقاء رجال الجندية الممتازين في مصر وفي حملهم على الزواج وانجاب الأولاد فيها . يبقى الجندي مرتبطاً بوحدة معينة من وحدات الجيش تحت امرة رئيس معين ولكنه في الوقت نفسه يتصرف « بقطعة » ارض تؤمن له زراعتها أوده وأود عائلته وحتى أود حصانه اذا كان فارساً . وتتفاوت مساحة القطعة بتفاوت مرتبته ومركز الوحدة التي ينتمي اليها .

وعلى الرغم من ارتفاع عدد هذه القطع في بعض المناطق لا سيما في الفيّوم حيث افضت الاعمال الى توسيع رقعة الاراضي الزراعية ، فانها قد كانت مع ذلك منتثرة هنا وهناك يخضع توزيعها لعاملي الترفيع والشغور : ونادراً ما عاد التصرف بها لشخص واحد ، كما لم يكن من الضروري ، من جهة ثانية ، ان يتجاور فيها الجنود المنتمون للوحدة نفسها في الجيش . وتبقى الارض مبدئياً ملكاً للملك ولا يتصرف بها الجندي إلا تصرفاً مؤقتاً : عند وفاته تستعيد الادارة القطعة ويمكنها ان تسلمها لمن تشاء . ولكن تطوراً محتوماً أدى بسرعة الى التنكر لهذا الوضع القانوني. فالملك يكون سعيداً جداً في ان يبقى في القطعة الابوية ابن الجندي المتوفى شرط ان يصبح هو نفسه جندياً . وهكذا غدا الجنود رويداً رويداً يوصون بأراضيهم لأراملهم أو يرهنونها أو يبيعونها للغير : فأصبحت الارض المقطعة للجنود ، عملياً ، ملكاً خاصاً في النهاية .

وهكذا أقام الاغريق في أملاكهم في الريف المصري . عاشوا فيها بين البلديين ، وقد زاد من الاتصال بينهم انه تعذر تشييد بيوت جديدة كافية لجميع هؤلاء السكان الجدد . واستعمل الملك لاسكانهم حقه في المصادرة : ففرض على ملاكي البيوت ان يتنازلوا عن نصفها للجنود ، تنازلاً مؤقتاً في البدء ما لبث ان اصبح نهائياً كتملك الارض المقطعة . واذا أدى هذا الوضع أحياناً الى تساكن حقيقي، فانه كان أبعد من ان يجعل هذا التساكن ذا فعالية من حيث التقارب العنصري . اجل لم يبغض المصريون الاجانب بغضاً مبدئياً ، ولكنهم رأوا في هؤلاء الجنود دخلاء يحرمونهم من قسم من بيوتهم ، وزاد في حقدهم التصادم اليومي المتعدد الذي يسببه الجوار القريب : ولم يرضوا مرغمين بهذا التدبير إلا بعد زمن طويل .

اضف الى ذلك انهم نظروا الى الاغريق نظرتهم الى من يجسم ادارة مزعجة متطلبة يثقل ممثلوها المباشرون والملتزمون مطاليبها بتجاوزاتهم . ومن حيث ان البلديين ، من جهة ثانية ، فاقوا الاجانب عدداً الى حد بعيد ، لم ينتشر الاستغراق انتشاره في المدن . لا بل غالباً ما تأثر الاغريق أنفسهم بالاخلاق المصرية ، لا سيما وان الزواج المختلط الذي حرّم في المدن ، قد سمح في الارياف في ما يظهر . ولكن نظاما شبه مدني خاصاً بمصر ظهر مع ذلك ببطء ، أقله في القرى الكبيرة ، ولا سيما قواعد الاقسام الادارية الهامة : بورجوازية حاولت الاحتفاظ بطابعها اليوناني بفضل جمعياتها وتربية أولادها في الاندية الرياضية وبلغت تقريباً ما حاولته ، ولكن بكثير من الزيف والافساد .

الملكية اللاجية والمجتمع البلدي

من حيث ان الفلاحين لم يستغرقوا، فانهم لم يخلصوا يوماً لسلالة كانت أبعد من ان تصبح سلالة قومية بسبب اعتدادها في الحرص على البقاء يونانية . ومهما بلغ من امر انقيادهم السلبي ، فان هدوءهم كان منوطاً بالوضع المادي الذي يوفر لهم . وقد وعى الملوك ذلك ، وانسجاماً منهم مع المثالية الملكية ، من جهة ثانية ، أوصوا عملاءهم بالعدل والنزاهة وتقبلوا شكاوى رعاياهم وتباهوا بتقويم الاخطاء وبتوزيع السعادة .

ولكن شتان بين النظرية والواقع لأنه قام بينهما هوّة لم يتح لتقنية الادارة اذ ذاك ان تزيلها . فلم تحل الرقابات على انواعها دون تجاوزات الموظفين ولا دون اختلاسات ملتزمي الضرائب أو الاحتكارات المسؤولين شخصياً عن كل نقصان والمقضي عليهم من ثم بالافلاس اذا ما برهنوا عن نزاهة كلية . ومن حيث ان النظام الاقتصادي والمالي كان مصمماً بحيث لا يترك للبلديين إلا الحد الادنى من كفاف العيش ، فقد آل مصيرهم الى بؤس لا يطاق بفعل التجاوزات أو القحط وكلاهما لا مناص منها بين آونة واخرى .

أخذت الآلة بالصريف باكراً جداً . فلجأ الفلاحون المصريون ، بصورة فردية ومتفرقة أولاً واكثر تواتراً ثانياً ، الى ابسط وسائل الاعتراض : الاضراب . وليس المقصود بالاضراب رفض العمل والبقاء في المنزل، اذ ان للملك حق المصادرة والسخرة،بل الاختفاء او الهرب الى مكان تجعلهم امتيازاته بمأمن من ملاحقة الشرطة ، اي الى أحد المعابد على العموم ، فحاولت الادارة مكافحة ذلك بالحد من الحق الممنوح للمعابد في الحماية وباضافة قسَم على عقود العمل بمتابعة العمل حتى النهاية « وبالامتناع عن الذهاب الى معبد إله او مذبح ملكي او مكان حماية او مكان محصّن » . ولكن ذلك لم يمنع انتشار المقاومة السلبية .

وقد حدثت في اواخر القرن الثالث واوائل القرن الثاني ، ثورات علنية في مصر العليا وفي الدلتا . وكان مصدرها ، كما يقول بوليب ، غطرسة المصريين الذين ارتكبت الدولة خطأ في تسليحهم وتدريبهم كالجنود المقدونيين لمواجهة ضرورات الحرب ضد السلوقيين والذين نسبوا لأنفسهم الفضل في احراز النصر . ليس من ريب في ان هذه التدابير العسكرية كانت بمثابة اعلان الانتفاضات . ولكن سبب الانتفاضات البعيد العميق كان وطأة الرسوم على انواعها التي اثقلت كاهل البلديين .

التف الثائرون حول زعماء اطلق بعضهم على انفسهم لقب الفرعون ، فعاقبهم اللاجيون عقاباً صارماً . ولكن ما ان تم اخضاعهم حتى عمد عدد من الملوك الى سياسة التنازلات، لا سيما حيال الطبقة الكهنوتية التي اعادوا اليها امتيازاتها وتكرموا عليها بهبات سخية . ووسعوا مساحة الاراضي المقطعة للجنود المزارعين الذين من اصل مصري ، حتى دون الحاقهم بوحدات عسكرية ارفع شأناً عن طريق تغيير قوميتهم الرسمية . وخصوا ببعض الامتيازات المصريين الذين قبلوا بالاستغراق ، وقد بلغتنا اخبار بعض حالات ذات مغزى في هذا المجال . فاتخذ مصري يدعى « نختسافيس » اسم « مارون » اليوناني ثم حصل على لقب « مقدوني » . وقد حصل مصري آخر يدعى ديونيزيوس — بيتوسارابيس على لقب « صديق الملك » . غير ان كل ذلك لم يكن سوى امور استثنائية . فالسواد الاعظم لم يؤخذ بهذه المغريات التي لم تغره قط . ولعله لم ير في مثل هذه التنازلات سوى دافع آخر جديد للاستمرار في تعلقه بتقاليده .

واذا حدث من جهة ثانية ان ضعف السلطة الملكية المتزايد ، الذي أدّى الى الفوضى الادارية

وعقم الانظمة الشكلية » ، قد خفف من الظلم الذي شكا منه الفلاح ، فانه قد سهل في الوقت نفسه اختلاسات الموظفين التي ما زال الفلاح ضحيتها ، دونما ملجأ بعد بروز هذا الضعف . واستمر الهرب الذى غدا ، عند الريفيين المصريين ، تقليداً لم تقو روما نفسها على استئصاله .

يستحيل إذن نكران الفشل النهائي في كافة الحقول السياسية والاقتصادية والاجتماعية الذي منيت به الادارة اليونانية في مصر : وكان بوسع روما ان تقطف هذه الثمرة الناضجة للفتح ، قبل ان تقدم على ذلك بزمن طويل . والشيء الخطر في هذا الصدد هو ان اسباب الفشل كانت داخلية بنوع خاص : فالصعوبات الجدية لم تأت من الهزائم التي اوقعها باللاجيين العدو الخارجي ، بل من داخل مصر ، لأن انضواء الرعايا لم يحصل . ورد بعض المؤرخين المتأثرين بالاقتصاد الحرّ هذا الضعف الداخلي الى مبدأ النظام المباشر والموجه نفسه الذي اعتمدته الملكية مثلاً أعلى ولكنه لم يلزم باستمرار الانسان ولا الأشياء . ان هذا الاستنتاج مُغالى فيه اذا كان المقصود اعطاءه صفة الشمول والديمومة . فالاقتصاد اللاجي لم يكن بعد ليستطيع الحصول والاعتماد على جميع الوسائل التقنية ، البشرية والمادية ، الضرورية لبلوغ الهدف . فالأجدر ان يردّ هذا الضعف الى التصميم على اقصى استثمار اناني الذي ساد تطبيق هذا النظام ، لأن اللاجيين لم يسعوا الا الى زيادة مواردهم المباشرة التي جنوها من احتلالهم ومن رعاياهم ، ولم يريدوا استخدام هذه الموارد الا لمصلحة الملك وسلطانه الذي هو اداة سياسته الخارجية بدلاً من استخدامها لرفع مستوى حياة المصريين اي لضمّهم الى الاغريق تحقيقاً لمصلحة هؤلاء واولئك المشتركة .

٢ – الحل السلوقي في آسيا

سياسة السلوقيين الاقتصادية

كانت سياسة السلوقيين ارحب آفاقاً . ولعلهم ادركوا مهمتهم منذ البدء ادراكاً يختلف عن ادراك السلوقيين . وهنالك حالة عائلية تقدم دليلاً ذا مغزى على هذا التباين . في السنة ٣٢٤ ارغم الاسكندر ، في « سوزة » ، ثمانين من كبار ضباطه على الزواج من نساء ايرانيات ، كما فعل هو نفسه . فكل الذين وصلتنا اخبارهم ابطلوا زواجهم بعد موت الفاتح ، متنكرين بذلك لسياسة الامتزاج التي ارادها الاسكندر ، ومرتدين الى عصبية عنصرية اكثر انسجاماً مع التقاليد اليونانية . ولم يشذّ عنهم سوى واحد فقط هو سلوقس نفسه الذي كان مدعوّاً لأن يؤسس السلالة التي كان القسم الأكبر من آسيا الغربية من نصيبها . فهو لم يطلّق « افاميا » البختيارية او انه لم يطلقها الا في عهد متأخر ؛ واطلق اسمها على عدة مدن انشأها يكاد يوازي عددها عدد تلك التي اطلق عليها اسم والدته « لاوذيكي » ، كما سلّم مملكته الى ابنه انطيوخوس الذي انجبه منها . فلم يأنف السلوقيون فيما بعد ، اقله في بعض الظروف ، من تزويج بناتهم الى بلاطات ثانوية في آسيا الصغرى او التزوج من بنات هذه البلاطات التي لا ريب في انها استغرقت باطراد ولكنها من اصل محلي ، لا سيما اسرة الـ « متريدات » الايرانية ، اسياد كبادوكيا البونتية . وليس من ريب في انها مصاهرات

دبلوماسية ، ولكنها تناقض بوضوح حرص البطالسة في العهد نفسه على نقاوة الدم التي كان من مبالغتهم في المحافظة عليها انهم رأوا خير حل لها في زواج الملك من شقيقته .

بيد ان الواجب يقضي بأن لا نبالغ في اهمية هذا التفرد من الوجهة العملية . وان هنالك في الحقيقة اسباباً اخرى لسياسة السلوقيين : فهي لا تخضع لمبادىء مقررة في الحرية حددتها الوراثة خضوعها لضرورات ملحة . فالسلوقيون ايضاً يستهدفون الثروة للتمتع بالقوة . ولكن مساحة مملكتهم وعدد رعاياها ، وكلاهما يفوق مساحة وعدد رعايا مصر ، اتاحا لهم تأمين موارد كافية دون اثقال مطاليبهم . اضف الى ذلك ، وهذا هو الامر الجوهري ، انهم لم يحكموا ، شأن اللاجيين ، شعباً واحداً ، واحداً بحضارته التقليدية ، ومرغماً على الوحدة بوحدة ظروف المعيشة نفسها وبالنظام الذي تفرضه عليه الطبيعة . فليس ما يشبه دولتهم في اختلاف عنصرياتهـــا : الاغريق والاسيانيين والساميين والايرانيين ، وكلهم شعوب يختلفون جنساً ولغة وديانة وتنظيماً اجتماعياً ومستوى تقنياً ونوع معيشة . القوة العسكرية واتفاق الظروف هما اللذان جمعا هؤلاء الرعايا المختلفين تحت سلطة سيد واحد . غير انه لا يعقل ان يتوق هذا السيد الى مراقبة حياتهم اليومية باقامة ادارة تتوفر لديها وسائل العمل والموظفون للسيطرة على هـــذا الواقع المتعدد الاجزاء ، فاضطر اضطراراً لاعتماد اساليب اخرى .

لا تترك اعمال السلوقيين مجالاً للشك حول الاسلوب الذي اعتمدوه بالتفضيل على غـــيره : نشر الحضارة اليونانية. فهم لم يروا فيها حضارة متفوقة تقنياً في الحقلين الاقتصادي والعسكري فحسب ، بل العاد الاكبر المشترك الوحيد بين رعاياهم . اجل بقي امـــامهم ان يحوّلوهم اليها. ولكنهم لم يخشوا نتائج هذا التحويل بل شجعوه وفاقاً لخطة مرسومة بالاقدام على انشاء المدن وبالتأثير على النخبة الاجتماعية بين الشعوب البلدية .

السلوقيون والاكثار من المدن

بلغت جهودهم في سبيل « تمدين » مملكتهم على الطريقة اليونانيـــة شأواً بعيداً يقع في النفوس موقعاً جليلاً : وهم قد برهنوا في هذا المجال ايضاً ، وللأسباب نفسها ، عن تقيدهم بمثـــل الاسكندر ، ولكن بصورة اكثر ظهوراً واستمراراً منها في الزواج المختلط. ومن اشهر ما انشأوا مدينة « انطاكية — على — العاصي » في سوريا ، ومدينة « سلوقية — على — دجلة » في بلاد بابل . ولكنه من السهل علينا ان نذكر مدناً اخرى كثيرة ، ويعزو التقليد الى سلوقس الاول وحده تأسيس ٥٩ مدينة : ١٦ انطاكية (على اسم ابيه) و ٩ سلوقية و ٥ لاوذيكي الخ ... اجل قد خف هذا النشاط بعد ذلـــك ؛ ولكن انطيوخوس الرابع ، حوالى السنة ١٧٠ ، قد جدده بعض الشيء .

من الثابت ان الملكية قد سيطرت ، اقله في قسم كبير من القرن الثالث ، على الساحـــل الايجي في آسيا الصغرى الذي سبق له ان كان يونانياً او مستغرقاً ، وانها استطاعت بالتالي ، باكثر سهولة من المملكة اللاجية ، ان تجـــد الاغريق في اراضيها نفسها : فعند ما رغب انطيوخوس

الرابع في توسيع مدينة انطاكية في بلاد فارس ، ارسلت له مدينة « مغنيزيا – على – مندريس» جمهوراً من المهاجرين المزارعين ، وهي نفسها التي ارسلت مهاجرين آخرين لتأسيس انطاكية في بيزيديا. ومن الثابت ايضاً ان عدداً من هذه المدن لم ينشأ من العدم، اذ كثيراً ما يقصد بالانشاء ابدال اسم او وضع ، او رفع مدينة بلدية راهنة الى مرتبة المدن اليونانية . ولكن مهما بلغ من امر شكلية هذا الانشاء فانه قد انطوى دائماً، اقله، على اقامة سكان جدد، اغريق او مستغرقين، يكتسبون صفة المواطنين ويفقدون قوميتهم السابقة ، وما كانوا ، بالتالي ، ليرضوا بهذا التغيير لو لم يجدوا فيه افادة مادية ، اي ملكاً عقارياً في ما يعنينا .

لذلك يجب الا تستسهل الصعوبات التي تنطوي عليها سياسة تطبق بمثل هذا الاتساع . فحتى اذا لم تكن المدينة جديدة بالكلية – وهذا ما نواجهه احياناً – فانها تخضع لبعض التجديد على الاقل : اذ ليس من مدينة يونانية لا تضم في وسطها أسواراً وحصناً وساحة عامة وشوارع ومعابد وأبنية عامة اخرى ؛ وليس من مواطنين اصليين دون بيوت واراض . وانما يقع عبء كل ذلك على الملك الذي يتخلى عن قسم من اراضيه ويتحمل نفقات التأسيس الأول . ولا نعجبن من ان يكون التصميم على مثل هذه البساطة – مربعات هندسية تتفق على كل حال مع مبادىء التجميل الهليني منذ القرن الخامس – وان تكون قياسات الساحات العامة والشوارع موحدة تقريباً : ويجب ان نعتقد انه قد قامت ، في خدمة الادارة ، مكاتب دروس ومصالح هندسة عمارة نرجح ان مهامها كانت مرهقة لأنها حاولت ، بنجاح شبه دائم ، التوفيق بين الخطوط الرئيسية للتصاميم الموحدة وبين الظروف الخاصة بكل موقع . فكان المجهود المبذول عظيماً؛ وعظيمة ايضاً كانت الكلفة التي جرّت اليها ضخامته ومدته في الارواح والأموال .

وبالاستطاعة تقدير تجرد هذا المجهود تقديراً افضل ، اذا لم ننس ان المدينة ، من حيث هي مدينة ، تتمتع بحد أدنى من الحريات الادارية والسياسية احياناً . فالملك ينشىء المدينة في اراضٍ تخضع لسلطته المطلقة : فهو يتخلى اذن ، لهذه الغاية ، عن قسط من سيادته . وغني عن القول انه لا يتوخى مما يقدم عليه مجرّد الخسارة . فالمدينة الجديدة التي يقيم فيها حامية عسكرية تؤلف نقطة دفاعية يتوقف امامها غزو الاعداء . ثم ان المدينة تدفع له الجزية ؛ فهي تنشط الحركة الاقتصادية في المنطقة المحيطة بها ، فتزداد بالتالي الموارد الاميرية عاجلاً أم آجلاً . ولكن ذلك لا يوازي ما ينطوي عليه قيامها من انتقاص للسلطة الملكية التي تضطر لأن تحسب حساباً لجهاز يتمتع بنظام خاص ، بعد ان تكون من قبل سلطة مباشرة . فتزول الإدارة المباشرة ويصبح على الملك ان يلجأ الى الدبلوماسية حيال رعاياه انفسهم . وحيث كان يكفيه ان يصدر أمراً لفرض ضريبة جديدة او طلب قرض او جمع متطوعين ، اصبح عليه ان يبرهن عن كرمه او ان يركن الى الحيلة للاحتفاظ بتأثيره ونفوذه وان يوجد التوازن في الاستقلال الممنوح للأجهزة البلدية برقابة « وكيل » وان يحاول ضمان ولاء وخوف المواطنين كي يفوز بأيديهم في

حالة الحرب او ان يتلافى ثورتهم فقط . لذلك فان نظام المملكة نفسه قد تبلبل وانقلب بفعل الاكثار من المدن . ولو ان « التحضير » على الطريقة اليونانية نفذ تنفيذاً كاملاً لأدّى الى جمعية من الدول الصغيرة المستقلة المتحاذية لا يكون الملك فوقها سوى عنصر توحيدي مهمته الابقاء على الوحدة وادارة الشؤون العامة اي الدبلوماسية والحرب . ولعل السلوقيين ناقوا الى هذا الهدف توقاً لاواعياً على الرغم من انه لا يغري الملوك اصلاً .

المدن اليونانية والبورجوازية اليونانية في آسيا

غني عن القول ان النتائج جاءت متباينة وفاقاً للمناطق .

كانت المهمة على بعض السهولة في الشطر الغربي من المملكة ، لا سيما في السواحل المتوسطية حيث سبق للحضارة اليونانية ان تأصّلت وحيث لم يأنف الاغريق ، على انهم كثر فيها ، من ان يأتوا من اليونان نفسها للاقامة فيها . فالواقع هنا لا يخيب الآمال . لذلك فان جميع المنطقة الغربية من آسيا الصغرى وساحلها الجنوبي وكيليكيا ، شرقي بحر ايجه ، قد غدت ملكاً للمدن اليونانية ؛ ويجوز القول نفسه عن سوريا الشمالية حيث اطلقت على الجبال والأنهار والمناطق الطبيعية اسماء جغرافية مقدونية . في هذه المنطقة من سوريا ، وبين مدن اخرى كثيرة ، شُيدت انطاكية ، أشهر العواصم الملكية ، وقامت على مقربة منها ضاحيتها « دفنى » حيث انشىء معبد الإله السلالي ابولون . وقد ازدادت اهمية هذه المدينة ، مادياً وسياسياً ، بعد ان ضاقت اراضي دولة السلوقيين الذي اصبحوا في النهاية « ملوك سوريا » فحسب : فبقيت حتى آخر العهد القديم احدى اكبر عواصم الشرق المتوسطي ، منافسة الاسكندرية ومشتهرة بثروتها وبذخها ، ونشاطها وحتى سجسها ، وملذاتها وحتى فجورها . وتابعت المدن الفينيقية القديمة ، ابعد الى الجنوب ، تلقّي الحضارة اليونانية الذي اقدمت عليه مخيرة منذ قبل الاسكندر . ويجوز التأكيد ان النجاح في كافة هذه المناطق قد بلغ الكمال الممكن بلوغه ، ولكن يجب ألا ننسى ان العمل المنجز ، الذي كان منقوصاً عندما استلمت روما الارث السلوقي ، قد اتمته روما بحزم ، واليها يعود بالتالي بعض الفضل في تحقيقه .

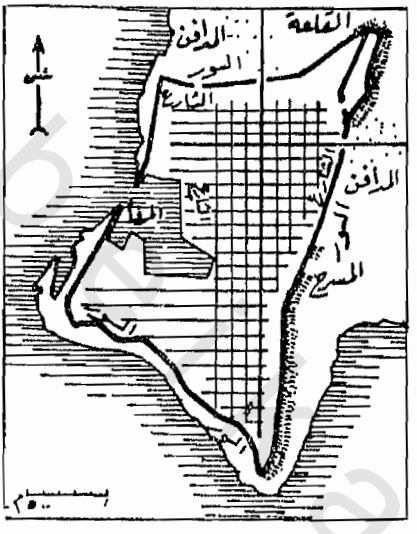

الشكل ٢٧ ـ خريطة لاوديكيا البحرية السلوقية
(وتعرف اليوم باسم اللاذقية)

يجب ألا نغفل ايضاً ان ساحل آسيا الصغرى الجنوبية وساحل فينيقيا وفلسطين قد بقيا في

السابق ، طيلة قرن تقريباً في اوائل العهد الهليني ، في ايدي البطالسة وباشرا خلاله تطبيق هذه السياسة . ويدل تناقض عملهم هذا لسلوكهم في مصر انه استحال على اي ملك الوقوف في وجه نشر الحضارة اليونانية حيث كشف التطور السابق ، التلقائي ، عن ان امكانات هذا النشر لها ما يبررها جدياً . ولكن السلوقيين قد بذلوا الجهود نفسها في مناطق اخرى ، مما يثبت انهم خضعوا لدافع غير ذاك الذي خضع له البطالسة .

ومع ذلك فان الظروف كانت اقل مؤاتاة في وسط المملكة وشرقيها . فلم يتوفر الرجال لمهمة على هذا الشأن في مملكة على هذا الاتساع . وقد نفر الاغريق من الابتعاد عن البحر ، كما ان طبيعة الحضارات المحلية ومميزاتها الخاصة التي لم يسبق لهم ان واجهوها من قبل قد زادت من شعورهم بابتعادهم عن بلادهم . بيد ان مدناً جديدة كثيرة قد انشئت في بلاد ما بين النهرين وبلاد بابل وبلاد سوزا وحتى في قلب ايران . اما المدينة التي عرفت اعظم نمو فهي « سلوقية — على — دجلة » المؤسسة لمنافسة بابل التي أبعد شطر من سكانها لتكثير السكان في المدينة الجديدة . واعتبرت بابل ، بسبب صبغتها الشرقية العميقة ، ابعد من ان يمكن نشر الحضارة اليونانية فيها ، مما لم يمنع انطيوخوس الرابع ، من جهة ثانية ، من ان يحولها هي ايضاً الى مدينة يونانية بعد ذلك بقرن ونصف . ولكن سلوقية — على دجلة ، في هذه الاثناء ، امست مركزاً تجارياً كبيراً ومستودعاً للتجارة مع الشرق الاقصى واحدى اكثر المدن سكاناً في العالم القديم . وقد ذهب « بلين القديم » ، في القرن الاول من العهد الميلادي ، الى القول ان سكانها يبلغون ٦٠٠٠٠٠ . وهذا ما يوازي ، على الارجح ، سكان انطاكية وسكان الاسكندرية ، ولكنه دون سكان روما .

كانت النتيجة المباشرة والملموسة لهذه الجهود انتشار الاغريق في كافة انحاء المملكة . بيد ان نسبة توزيعهم بقيت متفاوتة فكانت مرتفعة هنا ومتدنية هناك ، على ان منطقة واحدة خاضعة للسلوقيين لم تخل منهم . واذا ما حدث ان وجدوا منعزلين ودون تنظيم ، فان ذلك لم يقتصر على المملكة السلوقية ، بل حدث في كافة الممالك الهلينية . كانت ابواب الشرق مفتوحة على مصراعيها امامهم ، وكان باستطاعتهم ان يتنقلوا فيه ويتعاطوا التجارة ويتملكوا الاراضي شأن الرعايا الآخرين ، شرط التقيد بالأنظمة ودفع الضرائب . اما ما يميز المملكة السلوقية عن مصر اللاجية ، فهو انهم استطاعوا من جهة ثانية ان يتلاقوا فيها في كل مكان ، منذ البداية ، مؤلفين جماعات منظمة ، بصفة مواطنين لمدن تنعم « بشريعة » هي دستور يحدد حقوقهم وواجباتهم ، وسكان مدن تتوفر فيها المعابد والمنتديات الرياضية الضرورية للابقاء على حضارة يونانية يستطيعون ان ينقلوها بكل حرية الى اولادهم . وان ما لم يحصل عليه اغريق عواصم المقاطعات المصرية الا ببطء ، حصل عليه اغريق المدن السلوقية فوراً ودونما جهد .

كانوا اذن في الواقع ، منذ البداية ، بورجوازيين محظيين وتّفر لهم تملك قطعة ارض يساراً كريماً ، لا باستثمارها بأيديهم ، بل بمساعدة بعض العبيد او يد عاملة لا يدفعون لها اجوراً

مرتفعة . فكانوا بالتالي بورجوازيين يكادون يتساوون ، من حيث المستوى الحياتي ومن حيث ميولهم للحياة الجماعية والحياة الخاصة على السواء ، مع اولئك الذين انتسبت اليهم في الوقت نفسه الطبقة الحاكمة في مدن اليونان القديمة : فقد همهم كثيراً ان يتشبهوا بهؤلاء وان تتفوق مدنهم على مدن اليونان القديمة بفخفخة ابنيتها واعيادها وبشهرة مدارسها وفنانيها . وقد توصلوا الى مبتغاهم في اكثر من حالة ، بمساعدة الملوك او دونها ، اقله على مقربة من المتوسط . وهكذا فان ازدياد البورجوازية اليونانية وتفرقها في آسيا يمثلان احد تحقيقات العهد العظمى وحدثاً اجتماعياً كانت نتائجه كبيرة الاهمية على الحركة الفكرية ، كما سنرى . بيد انه من الجلي ان السلوقيين ، بفضل سياستهم التحضيرية والتضحيات التي تحملوها في تنفيذ هذه السياسة ، ان لم يخلقوا هذا الحدث الاجتماعي الذي لاحت دلائله قبلهم ، قد اسهموا على الاقل اسهاماً بعيداً في الاتساع الذي اتسم به في مملكتهم .

عمل المدن اليونانية

كان احد اهدافهم ، من وراء عملهم هذا ، شأن الاسكندرية من قبل، نشر الحضارة اليونانية . وقد بدا لهم اجتذاب الشرقيين الى حضارتهم الخاصة وسيلة لضمان ولائهم . وهي وسيلة مريبة على كل حال لأن السلوقيين لا يستطيعون الزعم بأنهم الاسرة الوحيدة التي ينتسب اليها فاسيلفس يوناني ، ولأن زعماء آخرين ، اقله في بلاد البختيار ، لم يُقللهم السلوقيون على الرغم من انهم نظروا اليهم كمغتصبين ، قد استمروا في بذل جهود مماثلة . وقد صادف السلوقيون في النهاية متاعب سياسية حتى في المدن الملكية ، كالعاصمة انطاكية مثلاً . فهل يستنتج من ذلك ان مصلحة الحضارة اليونانية تغلبت ، عند بعض ممثلي السلالة، على مصلحة السلالة نفسها ؟ ولكن المرجح انهم اعتبروا ان المصلحتين تتلاقيان، وفي هذا الاعتبار كل الحق لو بقيت السلالة قوية . وكان العدو الحقيقي ، العدو المشترك ، في الواقع ، البدوي او الجبلي السجس المستلب الذي رفض الخضوع لادارة منظمة والاكتفاء بعمل منتظم والتكيف وفاقاً لمقتضيات تقنية زراعية عليا ، معترضاً بذلك ما تتوق اليه كافة الحكومات ، اي النظام وزيادة الانتاج والمبادلات . ففي هذا الصراع ضد العاصي ، كانت المدينة افضل سلاح ، لا كمركز رقابة عسكرية فحسب ، بل كمركز اشعاعي تنتشر منه العادات الواجب نشرها ، اي كقدوة واداة تحويل وارتداد .

جعل عدد المدن التي انشئت أو حوّلت وفاقاً للطريقة اليونانية ، من المملكة السلوقية ، حقلاً اختبارياً واسع الأطراف صادف فيه كسب البلديين أدبياً ظروفاً أكثر مؤاتاة منها في مصر اللاجية . أجل لم يحصل كل البلديين المقيمين في أرض مدينة من المدن على المواطنية الكاملة . فان المنطقة الريفية التابعة للمدينة قد أمنت استثمارها باستمرار لحساب الملاكين ، وهم مواطنون في أغلب الأحيان ، يد عاملة من الفلاحين الذين لم يطرأ على مصيرهم القانوني والعملي أي تغيير . وكانت في المدن نفسها فئاتٌ من السكان الى جانب المواطنين ذوي الحقوق الكاملة ، أي جماعات

ذات وضع أدنى كالأجانب المقيمين مثلاً . غير اننا لم نر في أية مدينة آسيوية أنظمة أشد تدقيقاً وعداء لقطع الحبود القانونية منها في الاسكندرية . أجل كان الاستغراق بالفعل أمراً محتوماً بسبب الاتصال اليومي وبسبب الاطار المادي نفسه للمدينة ولكل ما يستلزمه زخرفها البنائي ويدخله من عادات شأن المثال الانساني وبسبب الانسجام البيئي الذي كان بالنتيجة لمصلحة الطبقة المحظية الممثلة بالاغريق : كان التطور في كل هذا مماثلاً لذلك الذي حدث في المدن المصرية الثلاث . ولكن الاستغراق القانوني ، خلافاً لما جرى في هذه المدن ، قد تم ، في ما يظهر ، دونما صعوبة ، بعد جيل أو جيلين .

تكوّنت اذن في المدن طبقة من البلديين المستغرقين الذين رفعوا رويداً رويداً الى مرتبة المواطنين أي أصبحوا رسمياً من الاغريق . وقد استلزم ذلك من جهتهم حمل اسم يوناني ، على اننا نرى ، في هذا المجال ، كيفيات كثيرة كان من شأنها تخفيف أثر الانتقال . فلدينا أمثلة عن أشخاص عرفوا بإسمين واحد يوناني وآخر سامي . ولدينا كذلك أمثلة كثيرة عن أسماء يونانية مركبة يدخل فيها اسم أحد الآلهة ، وهي طريقة تسمية قلّما لجأ اليها الاغريق وكثيراً ما اعتمدها الشرقيون فيما سبق : وليست هذه الأسماء في الغالب سوى أسماء سامية محوّرة بعد تمثيل إله شرقي بإله يوناني . واستلزم الاستغراق أيضاً اعتماد الزي اليوناني والأخلاق اليونانية واللغة اليونانية : ونامس ذلك على كثير أو قليل من التمكن وخلوص النية أو من الشمول لأن النساء لم يتأثرن كثيراً بالنزعة اليونانية لأنهن لا يخرجن كثيراً ويحافظن على التقاليد القديمة .

بيد ان الاستغراق ، عملياً ، كان شاملاً في أكثر من حالة لاسيما بين الطبقات الميسورة التي كان لأبنائها متسع من الوقت للتردد على المدارس والأندية الرياضية . فتكوّنت بورجوازية من أصل محلي لم يكن لها وجود من قبل في القسم الأكبر من الشرق حيث كادت الحياة المدنية تقتصر على فينيقية وبلاد بابل ، وكان تكوّنها أسهل وأوسع منه في مصر . وقد توصلت الى الانصهار في البورجوازية اليونانية الأصل التي كانت مثالاً لغيرها واستطاعت بنعل تنظيمها ان تحافظ على حضارتها . وهذا ما يفسّر ميزة التطور الاجتماعي في المملكة السلوقية : فان هذه المملكة قد اتسمت بالحضاره اليونانية بنسبة تحضّرها أي بنسبة انتسابها الى البورجوازية بنوع خاص .

اختلفت النتائج العملية اذن وفاقاً للمناطق أي وفاقاً لكثافة الاغريق والمدن . وجاءت النتائج جديرة بالاعتبار في غربي المملكة . فقد بلغ من تأثر مناطق واسعة في آسيا الصغرى بالحضارة اليونانية ان شعوبها التي اعتبرت « برابرة » في السابق لم تتميز عملياً عن الاغريق بسيء : كالكاريين والليديين بأجمعهم ، والفريجيين والكيليكيين بأكثريتهم . أجل ان هذا التطور الذي بدأ من قبل لم يبلغ الكمال الا في عهد السيطرة الرومانية . ولكن العهد السلوقي أدخل المزيد من السرعة على حركته . ويصح القول نفسه عن الساحلين السوري والفينيقي وعن جزيرة قبرص . أما في شمالي سوريا فقد توطدت الحضارة اليونانية في المدن فقط ، اذ أن ظهور اللغات

المحلية فيما بعد، بفعل اندفاع الديانة المسيحية، يدل على أن الأرياف لم تتأثر كثيراً بهذه الحضارة؛ ولكن الريفيين قد حُرموا بسبب ذلك من نخبة اجتماعية كان باستطاعتها ، لو وجدت ، ان تنظم مقاومة حضارتهم التي كتب لها بالتالي جمود قاتم .

أما في المناطق الاخرى فكان الاغريق والمدن أقل عدداً وعلى شيء من التشتت والانعزال. ففي بلاد ما بين النهرين الوسطى والسفلى لم يمثلوا سوى جزر صغيرة في محيط المساحات الشاسعة المتروكة لجماهير البلديين . أضف الى ذلك ان روما لم تستطع مواصلة عمل السلوقيين فيها لأن قسماً كبيراً من إرثهم ، حين استلمته ، كان قد انتقل الى الفارتيين الارساسيين الذين استقروا في بابل منذ السنة ١٢٩ قبل المسيح والذين اضطرت أكثر من مرّة لأن تدافع بصعوبة كليّة عن حدود الفرات ضد هجماتهم . فالحضارة اليونانية اذن لم تشع عملياً سوى في مدن نادرة لم يتوفر الوقت والطاقة البشرية للاكثار منها في ما دعي بحق « الشرق الاقصى السلوقي » .

وتجدر الاشارة مع ذلك ، أقله في بعض المدن ، الى مقاومة الاغريق المدهشة والنافذة لاستشراق كان من الطبيعي ان لا يقف عددهم الضئيل في وجه نجاحه السريع. وان البورجوارية اليونانية ، تساندها البورجوازية المستغرقة على الارجح ، قد دافعت طويلاً عن حضارتها وأبقت عليها على الرغم من تفوق عددي ساحق تمتع به السكان الريفيون الذين حافظوا على قسم كبير من أنظمتهم الاجتماعية التقليديةوالدينأعادت لهم انتصارات الفارتيين انظمة غير يونانية. اجل ساندت روما بعض الوقت الحضارة اليونانية في مدينة صغيرة كـ « دورا أوروبوس»على الفرات الاوسط التي كانت احدى حصون حدودها . ولكن بعض الكتابات المكتشفة في بابل وسوزة القديمة التي أصبحت « سلوقية — على — الافلايوس » تكشف عن استمرار اللغة والتنظيم والاخلاق اليونانية زمناً طويلاً بعد ان حلت السيطرة الفارتية محل السيطرة السلوقية . اضف الى ذلك ان هؤلاء الملوك الجدد قد أطلقوا على أنفسهم اسم « أصدقاء الحضارة اليونانية » ؛ وفي السنة ٥٣ قبل المسيح أرسل البريد الذي اشتمل ، فيما اشتمل، على رأس كراسوس الروماني ، الى « ملك الملوك » في أرمينيا حيث كان ممثلون يونانيون يمثلون باللغة اليونانية ، أمامه وأمام بطانته ، لمناسبة عيد سلالي ، رواية كاهنات باخوس لأوريبد : فيفرض هذا السلوك المستهجن ، يسلكه أولئك الذين كانت انتصاراتهم بمثابة عودة هجومية لحضارة ايرانية هزمها الاسكندر ، بقاء عناصر يونانية فيالمدن تتمتع بنفوذ كاف للتأثير على الملوك وربما بقدر من القوّة الفعلية يبد ومن المفيد معه مراعاة جانبهم . وماذا نقول عن بلاد البختيار النائية التي حال الاحتلال الفارتي دون كل اتصال مباشر بينها وبين باقي العالم اليوناني والتي بقيت مع ذلك ، حتى بعد العهد الميلادي ، مركز اشعاع لحضارة يونانية نبضت بحيوية كافية لأن تبسط نفوذها حتى على المناطق الشمالية الغربية من العالم الهندي ؟ وهكذا فان المدن اليونانية ، حتى حيث حالت ضآلة كثافتها دون استمالة البلديين الكثيرين اليها ، قد دامت مع ذلك في أكثر الظروف مناقضة للمنطق . فليس من

دليل أفضل على حيوية مشاتل رخصة وزعها الملوك طيلة قرنين كاملين بسخاء وجرأة نادرة على هذه الاراضي البعيدة : فماذا عسى النتائج ان تكون لو ان هذه المشاتل حصرت في مكان واحد واقتصرت على غربي الفرات مثلاً .

البلديون خارج المدن

اذا كان تأسيس المدن اليونانية عمل السلوقيين الرئيسي ، فانهم مع ذلك لم يكتفوا به لأنهم قد حاولوا ، في ما يظهر ، التأثير ، خارج المدن ، أقله على بعض طبقات المجتمع البلدي .

انطوى هذا المجتمع على مظاهر مختلفة جداً بسبب تنوع الشعوب التي تألف منها . بيد ان نظامه ، على العموم ، كان خلواً من كل شيء ديموقراطي : فقد أخضع ، في كل مكان تقريباً ، جماهير غفيرة محرومة من اليسار المادي ، وحتى من الحريات القانونية غالباً ، الى سيطرة نخبة محظية . أما فضل هذه النخبة على من سواها فقد يكون النسب ، اذ قد قامت امارات وارستوقراطيات وراثية . وقد يكون المراتب الدينية ، اذ قد قامت ثيوقراطيات أفسدت الوراثة منها المبدأ على كل حال . ولكن فضلاً آخر أكثر ظهوراً خارجياً ، بسيطاً وحتى بدائياً ، هو الثروة ، قد رافق في كل مكان الحالة الاولى او الحالة الثانية . فالملكية اليونانية وجدت اذن أمامها في آسيا مجتمعاً بلدياً أكثر تفاوتاً منه في مصر حيث كان مستوى حياة كافة السكان وبقي متدنياً جداً ، باستثناء الكهنوت الذي وجّه اللاجيون لامتيازاته ضربات قاسية بغية اخضاعه للقانون العام . وفر هذا الوضع للسلوقيين امكانات مناورة واختيار : ولكنهم منذ البداية لم يعيروا اهتمامهم ، عن قصد ، سوى الطبقات الاجتماعية العليا .

كان باستطاعتهم محاولة مزج رعاياهم واعتماد نوع من الاستعمار الداخلي مثلا للتوفيق بين السكان والموارد المحلية ، ولكنهم لم يفعلوا . أما الحالات الوحيدة التي نعرفها عن « مستعمرين » بلديين فمردها الى أسباب أخرى ، عسكرية قبل كل شيء . وهكذا فان انطيوخوس الثالث ، اذا ما اعتمدنا على ما أورده مؤرخ يهودي ، قد أصدر أمراً ، في السنة ٢١٠ ، في أعقاب الاضطرابات التي حدثت في ليديا وفريجيا ، بأن ينقل اليها ٢٠٠٠ عائلة يهودية من بلاد بابل يكون أفرادها رعايا أكثر اخلاصاً ويحملون السلاح عند الحاجة للدفاع عن وحدة المملكة . وكذلك أنشأ السلوقيون « مراكز » في غربي آسيا الصغرى ، حاذين بذلك حذو الملوك الفرس الذين سبق لهم وأقاموا هناك بعض الايرانيين . ولكن كلمة « مراكز » كلمة غامضة قد تعني وقائع مختلفة جداً : قد تكون مستعمرات عسكرية كما قد تكون قرى تقام فيها بعض العائلات وتخضع بالتالي لاحصاء سنوي يتناول الشبان البالغين سن الخدمة العسكرية . ومهما يكن من الامر فان المستفيدين من هذه المراكز قد ألفوا جماعات بشرية متراصة في حال أن اللاجيين قد وزعوا جنودهم المزارعين وفاقاً لشغور الاقطاعات الفردية . وهكذا فاننا نعرف جماعات من الفرس والكردوك الآتين من أعالي دجلة ، والغلاطيين والميسيين ، دون ان يتيسر لنا التمييز بين

ما حققه الاخيمينيون والسلوقيون والاطاليون في ذلك . ونعرف بنوع خاص « مراكز » للمقدونيين لأن الطريقة قد اعتمدت لهؤلاء أيضاً ، مما أفضى بعد ذلك احياناً ، الى ولادة مدن تباهت بأنها استطاعت ، حتى في عهد الامبراطورية الرومانية ، ان ترسم على نقودها خوذة رفاق الاسكندر . ولكن هذا الاستعمار الريفي كان استجابة لمشاغل عسكرية : فهو قد استهدف اما ان يوطّن في أرض المملكة الجنود الذين تخشى هجرتهم واما ان تسهّل تعبئة الجيش وإمّا ان يحفظ الأمن في المناطق المضطربة أو الحدود . ولم يفكر السلوقيون في عملهم هذا بتحسين حال المحرومين من رعاياهم ولا بتخفيف ما يقوم بينهم من فوارق عنصرية .

لا ريب في ان توحيد اللغة قد استمر في ظل سيطرتهم . أجل ان الآرامية قد استمرت في الانتشار ، شأنها في عهد الفرس ، في مناطق واسعة من المملكة لم تنتصر فيها الحضارة اليونانية : فقد حلّت أخيراً محل اللغة العبرانية في فلسطين . ولكن الادارة الملكية بقيت اذ ذاك بعيدة عن هذا التطور : فهي لم تعرف ولم تستعمل سوى اليونانية التي لم تتوطد الا في المدن الكثيرة السكان .

ان الوحدة التي كان السلوقيون يرغبون في تحقيقها هي الوحدة في الحضارة اليونانية ، وهي الوحيدة التي كان من شأنها تطوير السكان والبلاد تطويراً حقيقياً . ويمكن ان نقدّم دليلاً على ذلك انهم قد سعوا مباشرة ، أقله هنا وهناك ، الى طبع البلديين بالحضارة اليونانية دون ان يستعينوا بالمدن . ولكن نشاطهم لم يتناول في هذه الحال سوى أعضاء الطبقات الحاكمة . فان نصاً مسمارياً يعود الى السنة ٢٤٣ قبل المسيح يضيف الايضاح التالي الى اسم « أنو — اوباليت » ، « ذي المركز الثاني »، في مدينة أوروك من أعمال بلاد بابل السفلى: « الذي أعطاه انطيوخوس، ملك البلدان ، اسماً آخر هو نيكارخوس » . وبعد ذلك باثنتين وأربعين سنة ، اطلق على شخص يحمل هذا الاسم ، قد يكون من أحفاده ، ويحمل اسم سيفالون اليوناني أيضاً ، لقب « زعيم أوروك » . وهكذا أيضاً فان انطيوخوس الثالث يعهد بقيادات عسكرية رفيعة الى بعض البلديين كان أحدهم ميتريدات ابن شقيقته . وحين أصبحت فلسطين في أوائل القرن الثاني ممتلكة سلوقية انصبت الانعامات الملكية على أعضاء الارستوقراطية اليهودية الذين عرفوا ان يبرهنوا انهم يقدّرون تفوق الحضارة التي يمارسها الملك. فقد كان هنالك اذن ضغط على النخبة الاجتماعية التي هي أسهل منالاً وأشد تأثراً باغراء ما تستطيع حكومة ملكية ان تغدقه على رعاياها المخلصين ؛ ويغلب ان هذا الضغط قد اختلف باختلاف المناطق .

اعوز السلوقيين في الواقع ، للتأثير على الجماهير الشعبية ، جرأة لم يقدموا عليها . فهم لم يحوّروا نظام اولئك الذين اطلق عليهم الاغريق اسم « الشعوب » ، لاسيما شعوب الريفيين ، المنحطّين، الذين يقابلهم الجنود . فقد استمرت العبودية والفدادية والتبعية التي تنظمها الاعراف دون أي تغيير . واحتفظت مصانع المعابد بعمالها كما احتفظت الأملاك الريفية بفلاحيها المرتبطين

وراثياً بالأرض . واحتفظ كذلك الحكام القدماء بمراكزهم على الرغم من توصل بعض الاغريق الدخلاء الطموحين الى احتلال مكان لهم بين المحظيين. ولم يضع الملوك في أي مكان نصب أعينهم تحرير العبيد الذي كان مع ذلك شرطاً أولاً لاستمالتهم الى الحضارة اليونانية .

من الجلي انه كان أسهل على الملوك ان يبقوا على الأنظمة الاجتماعية القائمة ويحصروا مجهودهم في احتلال النخبة احتلالاً أدبياً . فان فكرة انقلاب شامل ، أو مجرد اصلاحات تدريجية ، لم تراود قط أفراد اسرتين شريفتين احداهن مقدونية والأخرى ايرانية . ولو راودتهم لكان الواجب قضى عليهم باهمالها لأن الأنظمة الادارية كانت أوهى ، بسبب بدائيتها ، من أن تقوم مقام الأنظمة الاجتماعية التي يجب القضاء عليها ، ولأن الملكية ، المهدّدة أبداً بخطر أعدائها الخارجيين ، كانت عاجزة عن الاقدام على عمل داخلي هام .

النتائج

فهل نجحت هذه السياسة الاجتماعية ، الحرية بأن تنعت بالتحرز لو كان باستطاعتنا التغاضي عن تأسيس المدن اليونانية ، في توفير الهدوء الذي صبا اليه الملوك السلوقيون على الأقل ؟ علينا هنا ان نعطي بعض الايضاحات .

لم يحدث ، على ما نعلم ، ثورات حتى ولا اضطرابات بسبب البؤس ، على نقيض مصر والمملكة الانطالية بنوع خاص حيث عقبت موت آخر ملوكها ، في السنة ١٣٣ ، اضطرابات ذات طابع اجتماعي ، جزئياً على الأقل ، اذ أن عبيداً ثائرين قد لعبوا فيها دوراً كبيراً جداً . واذا لم يحدث ذلك عند السلوقيين فلأسباب بسيطة . فقد سهل عليهم أكثر من الملوك الآخرين، كما رأينا ، ان لا يثقلوا كاهل رعاياهم بالضرائب . ثم ان ابقاءهم على النظام الاجتماعي التقليدي قد تلافى خطر الثورات : اذ جاء تواطؤ الأسياد الأجانب مع الطبقات المسيطرة يوفر السلامة لهؤلاء واولئك .

ولا يعني هذا ان الملكية السلوقية لم تعرف الصعوبات الداخلية الناشئة عن البلديين . ولكن هذه الصعوبات تبدو لنا ، بنوع خاص ، وكأنها ردات فعل ضد محاولات النيل من ديانة بعض الشعوب . وليس ما يوازي ، في هذا المجال ، من حيث الشهرة — وهي على كل حال شهرة تبالغ في أهمية الاحداث الحقيقية اذا ما قسنا هذه الاحداث بمقياس المملكة الكبرى — ثورة اليهود التي تعظمها كتب المكابيين كملحمة وطنية . ومن الخطأ ان نتوقف عندها هنا لأننا لا نجد في هذه الثورة مكاناً محترماً لأسباب اجتماعية حقيقية . فهي لا تثبت بأسبابها وتطورها سوى الحقيقة التالية : ان استمالة شطر كبير من الارستوقراطية الحاكمة لم تجدِ فتيلاً حيال شعب يتميز بمثل هذه الفردية الفظة وتختلط عنده الفكرة الدينية والفكرة القومية وتؤلف حضارته التقليدية جزءاً لا يتجزأ من النظام الذي أراده الإله . لذلك فان مثل اليهود كان استثنائياً بفعل وثوق هذا الاتصال ، كما كانت استثنائية أيضاً الاخطاء الخرقاء التي ارتكبها ضدهم بعض الملوك السلوقيين في القرن الثاني . ولكن كيف يمكن ، آنذاك وفي المشرق ، الفصل بصورة مطلقة

بين الديانـــة والحضارة ؟ فثورة المكابيين تثبت اذن أنه استحال على الملوك اليونانيين اعطاء سيطرتهم اسّاً واسعاً ، لا بل اساً متيناً فقط ، باكتفائهم بأخذ النخبة الاجتماعية ، أخذاً يشكّ باخلاصه ، بالحضارة اليونانية . وقد اتضح ذلك في سوريا الشمالية نفسها حيث أتاح عدد المدن اليونانية استمالة هذه النخبة بكليتها : فالمقاومة قد انفجرت ، عاجلاً أم آجلاً ، من الجمـــاهير الشعبية المهملة الخام.

فلا يجب بالتالي ان يخدعنا نجاح المقاومة في فلسطين . وليس الفضل فيه لعرم الثـــائرين وحده ، وهو عزم يثير الاعجاب على كل حال . فقد تلقى الثائرون عوناً غـــير مباشر من الخلافات العائلية التي مزقت السلالة في انحطاطها ومن تدخل الاحنبي أيضاً ، فقـــد ساعدتهم روما في الدرجة الاولى ، وهي التي عطفت على كل ما من شأنـــه ان يزيد ضعف الملكية . وساعدهم الفـــارتيون خصوصاً الدين انطلق هجومهم من حدود ايران الجنوبية وأفضى بهم الى احتلال بلاد بابل نهائياً . وخلافاً لما حصل في المملكة اللاجية ، فان المملكة السلوقية قـــد انهارت لأسباب خارجية أكثر منها داخلية .

غير ان الشيء الاكيد هو ان الفارتيين قـد استفادوا من الوضع الاجتماعي القائم في الشرق الاقصى السلوقي . فادا لم يثر البلديون قط على الضغط الاداري ، كما حدث في مصر ، فانهم ، على الاقل ، قـــد استقبلوا بجمود عدوّ أسيادهم اليونانيين الذين لم يهتموا بعض الاهتمام إلاّ للطبقات الحاكمة . ولكن هذه الطبقات ، باستثناء بعض الحالات الفردية المقتصرة عملياً عـــلى العناصر المقيمة في المدن ، لم تتبنّ سوى حضارة يونانية للمجاملة، أي ظاهرية فقط. ومـــن حيث هي بقيت سليمة واحتفظت بسلطتها ، فقـد سبّبت دونما صعوبة ، بانتقالها الى الاعداء ، انتقال المجتمع البلدي كله اليهم ؛ ففي نجد ايرن بنوع خاص أعلن الفارتيون عن أنفسهم جنوداً للعنصرية الايرانية وخلفاء للاخيمينيين .

يتضح بعـــد كل حساب ان سياسة السلوقيين الاجتماعية قد أفضت بهم الى خيبات أمل خطيرة كما جرى للبطالسة في مصر . فهم شأن البطالسة لم يهتموا قط لرفع مستوى حياة عامة الشعب . وعلى غرارهم أيضاً — وكان الامران مرتبطين على كل حال — لم يفكروا بان يوقظوا ، عند هذه العامة ، الفردية التي تحرر الشخص البشري،وهي مفهوم أساسي في الحضارة اليونانية. أجـــل ، بينما أخضع البطالسة رعاياهم للرقابة الشديدة ولاشراف ادارتهم المطلق ، اقتصر السلوقيون على إبقائهم خاضعين للارستوقراطيات الكهنوتية أو العلمانية ، ولكن الخضوع مهما كان من اختلاف أشكاله واختلاف المستفيدين منه ، قد أفضى في النهاية الى نتائج مماثلة . وقـد سبق لنا ورأينا ان الازدهار الاقتصادي في العالم الهليني قد تضرر بفعل ذلك ، لا سيما ازدهار اليونان القديمة الذي قوّضته منافسة الشرق وحرمته من سوق استهلاك كبير لصناعتها، أعني بها هذه البلدان الجديدة . ولكن الملوك اليونانيين ، بالاضافة الى ذلـــك ، في مصر كما في آسيا ، باستثناء المنطقة المتوسطة في هذه القارة، لم يحاولوا،بفعل محافظتهم وأنانيتهم وعدم ادراكهم، ان يستميلوا اليهم أدبياً الطبقات الوضيعة بين السكان البلديين ، فدفعوا ثمن هـذا الاهمال غالياً لأنهم لم يستطيعوا يوماً إزالة عـداء الخاضعين لهم الذين قامت قوّتهم على اخلاصهم وبشاطهم .

الفصل الرابع

المعتقدات والأذواق والأفكار

اذا ما بقي اتساع وفاعلية الاختبار الهلّيني ، في الحقول السياسية والاقتصادية والاجتماعية، دون الامكانات التي بشّر بها عمل الاسكندر المحدود ، فالأمر على خلاف ذلك حيال المظاهر الأدبية في الحضارة . وانه لمن الصعب علينا ان نحيط علماً بكافة التجديدات الثورية المدعوّة لمستقبل باهر التي جاء بها هذا العهد المضطرب في حقول الديانة والفن والفكر . فهو قد كيّف ، لقرون طويلة ، روح وفكر البشر وفاقاً لمثل جديدة ، بينما سعت الحضارة الكلاسيكية جاهدة الى اخضاعها لأولوية عقل مجرد ، متوفقة في ذلك الى ما هو جوهري . وقد شق بصورة نهائية طرقاً لم تكد تُعرف من قبل .

الحضارة اليونانية والملكية

من الطبيعي ان هذه الوثبة قد ارتبطت بالنظام المادي الجديد الذي فرضته على العالم اليوناني الظروف والتطور التاريخي .

بقي المثل الأعلى ، في تحديده الجوهري ، مماثلاً لمثل العهد السابق : فالهدف هو أبداً تشجيع تفتح الفرد وتحقيق أفضل الامكانات المدين بها لطبيعته البشرية خير تحقيق وأكمله . ولكن هذا المثل الانساني الذي يشرّف تصميمُه ومواصلة تحقيقه ما ينطوي عليه التاريخ اليوناني من ركاكة واخفاق ، قد تجمّل اذ ذاك ونما . كانت حضارة البولس ، بتوجيهها إياه وفاقاً لحاجاتها الخاصة وبحصره في إطار ضيق ، قد وضعت له حدوداً هي حدود الشرائع المبنية على العقل وعلى مصلحة المجموع الحقيقية ؛فكان من المحتم ،في العالم الهليني الذي وسّعه فتح الشرق توسيعاً مفرطاً ، أن تمدّد هذه الحدود وأن تتراخى الاقتسارات؛ فالرقابة والادارة، اللتان تؤمنها سلطة أكثر بعداً ، أقل ثقلاً على الفرد . وليست الانطلاقة بعد اليوم للامكانات التي تتفق مع العقل ، أي الامكانات الجسدية والفكرية فحسب ، بل أيضاً للامكانات التأثرية والعادمة القياس .

بهذا أيضاً طبعت الملكية بطابعها ، الى حد بعيد ، حضارة الأزمنة الجديدة . وان المثالية التي بنيت عليها قد أسهمت في تطوير النزعة الانسانية القديمة بتوسيعها. فقد أحاطت الملك بهالة،

لا بل باكليل من نور ، يخضع فيه العقل للصوفية ، والبرهان للثقة بقوى فائقة الطبيعة . وقد بدا الملك ، بفضل هذه المثالية ، كمثل يقتدى به وكنموذج للانسان المتجمّل بالمحاسن والمواهب بما فيها نعمة الإله الذي يمنحه حرية ووسائل عمل تتيح لشخصيته أن تتفتح في كمالها .

أجل ليس باستطاعة الجميع بلوغ الدرجة القصوى من درجات الملكية بكل ما تنطوي عليه هذه الكلمة من معنى . ولكن خبرة نصف القرن الذي عقب وفاة الاسكندر تبين ان بلوغها ليس وقفاً على أبناء الملوك ، والتوق الى مثل أعلى لا يستلزم الأمل الوطيد في تحقيقه . ولا ريب أيضاً في أن وجود ملكيات على قليل أو كثير من التنظيم يهدّد بالحد من حرية الفرد . ولكن هذا الخطر لا يطال سوى الحرية السياسية . واذا ما نظرنا الى النزعات الشاملة في البواس الصغيرة ، التي تبرز في شرائعها ، والتي غالباً ما يكفي ضغط الرأي العام لتقريرها ، اذا لم تقررها المحاكم ، يصبح من الصعب ان لا نعتقد بواقع تحرير في نطاقات أخرى ذات ارتباطات لا تحصى ، أولها النطاق الديني . فالتساهل يغدو أمراً واجباً على ملوك مدينين للفتح ، بالتحديد وفي أكثر الأحيان ، بممارسة الملك على رعايا غرباء يمارسون شتى العبادات . أضف الى ذلك ان الاعتراف بتفوق يبرره كل شيء ليس مرادفاً للاستخراء : فلماذا لا يجدر بالانسان الحر ان يعجب ويحب ويبذل نفسه يا ترى ؟ ومن ثم فان الواقع الملكي يقود الى مفهوم نزعة انسانية أعظم اتساعاً وتنوعاً من النزعة القديمة ومثل أعلى يهز أوتاراً أكثر عدداً فيوقظ اصداء أطول مدى ، لأنه لا يخنق ، باسم عقل متفوق ، بعض النزعات العميقة في الطبيعة البشرية .

ثم ان الملوك قد ناصروا الآداب مناصرة محسوسة جداً بغية احاطة بلاطهم وملكهم بمجد يشعرون أنه أعظم ديمومة ونبلاً من المجد العسكري أو السياسي . وقد حرصوا ، حيال الحضارة التي تباهوا في الدفاع عنها ضد البرابرة ، لا على تأمين انتشارها فحسب ، بل على التوسع فيها أيضاً . وقد اهتموا ، بفعل ثقافتهم الشخصية وذوقهم المرهف أحياناً ، بابحاث هذه الحضارة ونجاحاتها ، وكرموا الذين حققوها وساعدوهم مادياً ، مرتاحين ارتياحاً تاماً في اجتذابهم اليهم ومعاشرتهم . فواصلوا بذلك تقليد الاستبداد اليوناني وتقليد الملكية المقدونية القديمة التي سبق لها واستقبلت اوريبد في شيخوخته وغمرته بمظاهر الحفاوة والتكريم ؛ كما ساروا على مثل أقرب عهداً هو مثل الاسكندر الذي أحضر معه أو استحضر الى آسيا كتّاباً وفلاسفة وفنانين وعلماء . وليس من اغريقي حقيقي أبعد النزعة الانسانية عن مشاغله : فأسهم هؤلاء الاغريق عن قصد في اعطاء هذه النزعة مزيداً من الفتنة ووسائل العمل وقوة الجاذب . فمن هذه الزاوية أيضاً تبدو الحضارة الهلينية كحضارة ملكية .

لم تتوفر هذه الرعاية دون مقابل ؛ ولكن أنظمة أخرى كثيرة قد تحملت مقابلاً أشد ارهاقاً . ففي هذا النظام نال الهجاؤون — وهم قلياو العدد على ما نعلم — عقوبة قحتهم ؛ وكان هنالك فنانون وشعراء بلاط اتقنوا فن التملّق . ولكننا لا نرى تنسيقاً علمياً يجب التساؤل ،

في حال وجوده ، عما اذا كان مفروضاً أم تلقائياً ؛ كما لا نرى كلاً عقائدياً يدخل فيه كل مظهر من حركات النفس والفكر في تلاحم بمجموع واحد . فالقاعدة هي في التنوع الحر للاضطرابات والمحاولات الشخصية ، ولم تعرف النزعة الانسانية انطلاقتها العجيبة الا لأن نشاط الملوك لم يتعرض للشرط الأول للنزعة الانسانية .

لامركزية ووحدة

وهنالك ارتباط آخر بالظروف الزمنية يتراءى في التوزيع الجغرافي لمراكز اشعاع الحضارة الجديدة .

كان للحضارة الكلاسيكية مركز رئيسي هو أثينا . واحتفظت هذه المدينة ببعض سناها الغابر : وقد حرصت كل السلالات، في فترة أو أخرى من تاريخها، على اظهار « عطفها » نحوها ونحو ما تمثله . لم تعد تخلق الا نادراً ؛ ولم تعد الانطلاقة الخلاقة تصدر عنها . فمعظم نفوذها يأتيها من ماضيها ومن استثمار هذا الماضي على يد رجال مهرة نشيطين . فأخذت في احتلال المركز الذي ستحافظ عليه حتى آخر العصور القديمة، أي انها غدت مدينة يأتي اليها أبناء العائلات الميسورة لاكمال دروسهم في البيان والفلسفة والهواة الأثرياء لاختيار النسخ عن الروائع الفنية المشهورة في مصانع الفنانين أو المصنوعات التي يكرسها مصدرها . وقد نعتها أحد المسافرين في القرن الثالث نعتاً ساخراً بقوله عنها أنها « مدرسة لرجال المرمن » : أي ان الحياة الجريئة قد هجرتها .

أما في العالم الجديد فقد لمعت احدى المدن لمعاناً خاصاً نعني بها الاسكندرية . وقد بلغ من لمعانها هذا ان التعبير التاريخي السائر ، « الحضارة الاسكندرية » ، أصبح مرادفاً لـ « الحضارة الهلينية » . فعظمة المدينة المادية وسحر دورها وازدهارها الاقتصاديين وثروة ملوكها العجيبة النادرة وتفخّل بلاطها المرهف ودارا كتبها وآثارها، كل ذلك أعطاها نفوذاً واشعاعاً لم يضاهيها نفوذ واشعاع آنذاك . ولكن مهما يكن من أهمية أثرها فانه أقل توجيهاً شاملاً من أثر أثينا في العهد السابق .

وكانت هنالك عواصم وبلاطات أخرى . وبذلت سلالات أخرى جهوداً مماثلة لم تبق نجاحاتها ، في هذه الحقول أيضاً ، نجاحات يستهان بها . فاسم برغاموس بنوع خاص قد لفت الأنظار منذ أعمال التنقيب الألمانية في أواخر القرن التاسع عشر . وكذلك فان انطاكية في سوريا، وحتى بيلاّ في مقدونيا التي كان ديموستينس الأخير في وصف سكانها وملوكها بالبرابرة، قد تحتلان المركز نفسه، اذا ما أسفرت أعمال التنقيب فيهما عن مكتشفات على أهمية مكتشفات برغاموس ومكنت من وضع بيان كامل بتحقيقاتها .

ويجب خصوصاً ألا نفكر بمراكز اقامة الملوك دون غيرها . فهنالك ، الى جانبها ، المدن الكثيرة الآهلة والمنتعشة بتلك البورجوازية التي يؤلف انتشارها أحد الأحداث الاجتماعية الرئيسية في العهد الهليني وتجديداً لم يبق دون نتائج ثقافية . وكان لهذه المدن ، على العموم ،

صفات مميزة ، وقد توصلت ، بفضل جهود أقل تشتتاً ، الى الاحتفاظ باستقلالها في بعض الحقول الاختصاصية . أما أعظمها شهرة وازدهاراً ولمعاناً فمدينة رودس التي بدأت منافستها لأثينا ، منذ القرن الرابع ، في حقل مدارس البيان ، وشملت في النهـــاية حتى حقول النشاط الفني . ولكن كل مدينة ، في الواقع ، في العالمين اليونانيين القديم والجديـــد على السواء ، تعتز كبرياء وتنشىء المزيد من المعابد والأبنية والمدارس . فابتعدت الحضارة اليونانية عن مركزهـــا في منافسة ليس حب التظاهر فيها ، في حال وجوده ، الباعث الوحيـــد ، ولا الباعث الرئيسي . وكأن الحضارة اليونانية تستهدف ، من وراء ذلك ، توزيع ثرواتها توزيعاً أفضل على الأراضي الشاسعة التي انتشرت فيها خلاياها الحضرية .

مما يثير الاعجاب ان هذا التنافس لم يقوّض وحدة الحضارة الهلينية . فهي من أقصى النطاق الجغرافي الذي انتشرت فيه الى أقصاه ، تنطوي على مميزات عامة مماثلة ترتدي مظاهر خاصـة ليس وجودها نفسه قاعدة مطردة . فكما أن الاغريقي يستطيع السفر وتعاطي التجارة في كل مكان ، كذلك فانه يشعر وكأنه في بلاده عندما يلتقي اغريقاً آخرين . وقـــد انتهى التطور ، الذي استهدف في القرون السابقة إزالة الفوارق الاقليمية في وحدة ثقافية ، الى نجاح يكاد يكون كاملاً . إذ ذاك ، وإذ ذاك فقط ، توحدت القومية اليونانية على أسس أدبية واسعة جداً . أجل لم يكن لهذه القومية وجود سياسي ، شأنها في الماضي على كل حال . ولكنه أصبح من واجبها أن تتكوّن ثقافياً بسبب التمازج بين الاغريق في الاراضي التي هاجروا اليها وبسبب التصـــامن الذي أوجده بينهم اختلاطهم اليومي مع ممثلي الحضارات الأخرى، فاذا كانت الحضارة اليونانية عاداً أكبر مشتركا لرجال يأتون من مناطق نائية جداً ، فانها بالاضافة الى ذلك المقياس الوحيد الذي يميزهم عن اولئك الذين ينظرون اليهم كمرؤوسين . فهم يتقاربون حتى تبرر المصادفة بينهم جيداً ، اذ أن هذه الثقافة المشتركة ، في نظرهم ، تبرر امتيازاتهم .

ببد انه من الخطأ الاعتقاد بأن هذه الثقافة المشتركة ، التي يفسر ظهورهـــا تضامنهم واعتزازهم ، لا تمثل سوى ثمالة الحضارة الكلاسيكية التي ورثتها ، بعد إزالة الميزات الاقليمية . فهي لم تستلم كل شيء من هذا الارث ؛ وقد تحملت ، راضية ، تضحيات لم تقتصر على الفوارق فقط . ومقابل ذلك ، فانها قد اغتنت بالامتدادات أو الاكتشافات بفضل جسارات أتاحها لها توسع إطارها العديم وازدياد مواردها المادية . أضف الى ذلك ان الحضارة ، أية حضـــارة ، لا تحيا بلا ضرر في التعايش مع غيرها : فالحضارات التي تنتسب اليها النساء والحـــدام والشعب تتسرب ، أقله بواسطة الولد ، الى الحضارة التي ينتسب اليها السيد. ثم ان تصدع وتشتت النخب القديمة المحصورة وضرورة ارضاء رغبات بورجوازية تكاثرت تكاثراً عظيماً تبرز كعوامـــل تجديد أيضاً . أجل قد يكون المستوى الفكري الوسط تضرر هنا أو هنـــاك بهذه الظروف العامة . ولكن قيماً عاطفية مهملة حتى ذاك التاريخ قد وجدت لها مكاناً أوسع في رعة انسانية أكثر انطباقاً على تركيب الانسان .

١ ــ الديانـــة

العبادات المحلية

لم تجرّ السيطرة اليونانية نتائج خطيرة على العبادات التي كان يمارسها البلديون الشرقيون ، اذ أن هذه العبادات قد حافظت ، على العموم ، على ميزتهـــا الخاصة وحيويتها .

ففي مصر بقي كل شيء دون تغيير ظاهر . الملك يراقب الكهنوت عن كثب تلافياً لمقاومته الممكنة التي يخشى أثرها على السكان . ويكلف موظفيه مراقبة ادارة ممتلكات المعابد، لا ليحد من ثروتها فحسب، بل ليجعلها مرتبطة به وليدخل « الأرض المقدسة » نفسها ، أي أمـــلاك الآلهة العقارية ، في النظام الاقتصادي الموجه الذي أخضع له كل وادي النيـــل . ومنذ أواخر القرن الثالث على كل حال ، حين بدأ البلديون يثيرون الصعوبات الحطيرة ، ارتخت هذه الرقابة ، فحصلت الطبقة الكهنوتية ، التي أمسى عطفهـــا أكثر ضرورة ، على حصانات وامتيازات واعطيات جديدة شتى . ومارس البطالسة ، من حيث هم فراعنة ، حقوقهم كآلهة وكوسطاء بين مصر وآلهتها . ولكنهم لم يهملوا واجباً واحداً من واجباتهم . فرمّمت المعابد القديمة وشيدت المعابد الجديدة ونقرت في الجدران النقوش البارزة والكتابات الهيروغليفية التقليدية ، وتؤلف كتابات معبد هوروس في ادفو التي تعود الى هذا التاريخ أحد مصادرنا الرئيسية حول ما كانت عليه الطقوس المصرية منذ أقدم العهود . ومن ثم فقد تأمن الاستمرار الديني ، أو بالأحرى أعيد الى حاله ، لأن اعادة ضم مصر الى الامبراطورية الفارسية ، قبيل فتح الاسكندر ، قد رافقتها أعمال عنف واكراه حتى حيال الآلهة . فقد خلف الاسكندر سيداً بغيضاً ، ثم جـاء الأباطرة الرومان ونهجوا هذه السياسة . فشعر الفلاحون شعوراً ينطبق على الواقع ان ديانتهم القومية ، المجددة ، تواصل حياتها الدائمة .

أما معلوماتنا عن آسيا ، حيث جاءت النجاحات التي أحرزتها الحضارة اليونانية في بعض المناطق بفوارق دقيقة ، فنادرة جداً اذا ما قيست بمعلوماتنا عن مصر . وعلى كل حال فان السلطة الملكية لم تبلغ ، في أية منطقة من مناطقها ، تلك القوة التقليدية على كافة مظاهر حياه البلاد ، كما لم تبلغ الادارة الهلينية فيها كمال الادارة اللاجية . فهنا أيضـــاً برهن الاسكندر عن احترامه للمعتقدات والطقوس ، لا بل انه تظاهر في بلاد بابـل بمظهر المصلح الذي يعوّض عن كفر ملوك الفرس الأخيرين . والصعوبات المالية وحدها ، في ظروف نادرة نسبياً على كل حال، هي التي دفعت بخلفائه الى اعمال العنف . فقد وضع الملك يده ، هنا وهناك ، أو حاول أن يضع يده، على كنوز المعابد. وأقدم انطيوخوس الثالث بكل قحة على ابتراع الذهب والفضـــة من معبد اكباتان في السنة ٢١٠ ، ولكنه قتل على أيدي بعض الجبليين بعد ان نهب أحد المعابد في بلاد سوزة . وبعد ذلك بعشرين سنة تقريباً اضطر ابنه انطيوخوس الرابع الى الانسحاب حين عزم على القيام بعملية مماثلة . وانفجرت الخصومات الأولى بين السلوقيين واليهود حول موضوع

كنوز معبد أورشليم . ولكن هذه السياسة لم تطبق وفاقاً لتصميم أو قاعدة ، لأن المستندات الوفيرة العائدة للعهد الهليني التي اكتشفت في مدينة أوروك الصغيرة من أعمال بلاد بابل السفلى تجعل الافتراض الثاني أكثر احتمالاً . فالملوك الذين لم يحملهم شيء على شمل هذه المدينة الصغيرة بعطف خاص قد أصلحوا وأنشأوا بعض المعابد فيها . وقد بقيت هذه المعابد مراكز اقتصادية يبدو أن نشاطها قد تمتع بامتيازات مالية . وعاش الكهنة باستمرار عيشتهم الماضية : فقد استنسخوا كتب الطقوس ووضعوا مجموعات الملاحظات الفلكية بصورة أعظم وفرة وانتظاماً منها في عهد السيطرة الفارسية . ومما لا ريب فيه ، اذا تأخرت الديانة المحلية في بلاد بابل ، ان مسؤولية هذا التأخر ، الذي لا تزال أسبابه الحقيقية سراً خفياً ، لا تقع على عاتق الملوك اليونانيين. وفي غير مكان أيضاً لم تنل موجبات الخزينة ، حتى اذا عمل بها، من الحرية الدينية. ولم يحصل أي اضطهاد ، وقد حورست الديانة المازدية بحرية مثلاً في نجد ايران ، على الرغم من أخطار ارتباطاتها بالأسياد المعزولين وبالروح القومية الايرانية التي من شأن التهديد الفارتي ان يجعلها مريبة : وفي بلاد فارس ابقي بعض الاخيمينيين كرؤساء محليين واطلق عليهم لقب « حراس النار » أي أنهم لعبوا بالتالي دوراً دينياً .

لم يسبب استغراق البلديين نفسه ، حيثما حصل ، أية مشكلة دقيقة ، لأن هذا التطور لم يستلزم أي ارتداد بما تنطوي عليه هذه الكلمة من معنى عصري وديني . أما الاغريق فغالباً ما أعطوا المثل وتبنّوا بعض الآلهة الشرقيين أو حاولوا أن يستكشفوا فيهم مظاهر بعض آلهتهم الخصوصيين ؛ كزفس بنوع خاص الذي تمثلوه في كل « بعل » سوري أو فينيقي . ومن حيث ان لائحة آلهتهم كانت قابلة الاطالة فقد بلغ منها ان السرقيين المستغرقين وجدوا فيها آلهتهم دونما جهد . ولم يحدث في غالب الأحيان أي تغيير جوهري في الطقوس أو في الواجبات المفروضة على المؤمنين . ومن ثم فقد حدث التطور في كل مكان تقريباً دونما صعوبة .

الحضارة اليونانية والديانة اليهودية

ولم يشذ بصورة خطيرة عن هذا التعايش ذي الطابع السلمي وحتى الودي في أغلب الأحيان، سوى فلسطين ، حيث جعل طابع الشريعة الدينية الخاص والسلطة التي كانت لهذه الشريعة على كافة أوقات وعادات الحياة اليهودية ، التعايشَ أمراً دقيقاً للغاية .

سارت الامور على خير ما يرام طيلة قرن ونصف في عهد سيطرة البطالسة أولاً والسلوقيين ثانياً . فأدار اليهود شؤونهم بحرية ؛ ولم يكتف الملك بأن لم ينل من عبادة المعبد ، بل تحمل نفقات ذبيحة يومية تقدم باسمه ، واستفاد الكهنة من بعض الاعفاءات المالية . ولكن الديانة اليهودية القديمة ، بفعل اتصالها بالحضارة اليونانية التي كانت آخذة في التقدم حول فلسطين ، قد تأثرت بصورة حتمية ، أقله في أوساط الارستوقراطية اليهودية ، التي استهوتها هذه الحضارة ورغبت في ارضاء الملوك اليونانيين . وانتشرت الحضارة اليونانية انتشاراً أوسع في مجتمعات

اليهود المهاجرين المقيمين في مصر أو في المدن الآسيوية . ولكن التطور قد ظهر في فلسطين نفسها أيضاً ، ففسر بعضهم الشريعة على هواهم ، حتى قيل انهم اهملوا الختان ، ولبسوا ثيابهم وكسوا رؤوسهم ، من جهة ثانية ، على الطريقة اليونانية ، وشجعوا التربية اليونانية التي تعلّم في الأندية الرياضية : أعني بذلك ممارسة ألعاب القوى في حالة فاضحة من العري . وبكلمة مختصرة فان تياراً استغراقياً ، هو تيار « المستغرقين »، قد نما شيئاً فشيئاً في أورشليم ، فكانت ردة الفعل ولادة شيع مختلفة متفاوتة في استقامة رأيها ارادت كراهيتها لكل تسوية يوماً بعد يوم .

انتهت الحوادث المختلفة الى النزاع الدامي . فصمم أحد الملوك السلوقيين على ان يضع يده على كنز الهيكل ، فكان حادث الوزير هيليوذوروس الذي قلبه وطرده فرسان سماويون . ثم أقدم الملك انطيوخوس الرابع على عمل انتقامي يهدف الى نشر الحضارة اليونانية ، فعين رئيساً للكهنة يستجيب لجميع رغباته ، وظن بأنه أفلح في مجهوده فأطلق على أورشليم اسم «انطاكية» وشيد فيها حصناً أقام فيه حامية عسكرية وانتهك حرمة الهيكل بذبائح دموية وبادخال تمثال زفس الأولمبي اليه وكرس معابد محلية بأسماء آلهة يونانيين وأراد فرض أكل لحم الخنزير . فانفجرت اذ ذاك ، في السنة ١٦٦ ، من أعماق الشعب ، ثورة المكابيين التي استهدفت الملك والمستغرقين معاً والتي انتهت ، بفضل ضعف المملكة السلوقية ، الى قيام دولة يهودية مستقلة .

لا ترد هذه الأزمة الى تصلب الاغريق بقدر ما ترد الى تناقض الحضارتين وما أوجده من سوء تفاهم متبادل بين المسؤولين عنها . وقد كان لخرق انطيوخوس الرابع دور كبير فيها ، أو بالأحرى لخطإه في تقدير نضج التطور الذي تحقق والانقياد الممكن لأوامره . ولكن الشر الأكبر مردّه بنوع خاص الى اغراء الحضارة اليونانية لبعض اليهود والى ان الشعبين لم يصعا الحد نفسه بين الحضارة والديانة . فاستهوى الاغريق ، بالتالي ، أن يفسروا التمسك بالدين كبربرية متصلبة ، كما استهوى الملوك ان يفسروا المقاومة الدينية كمعارضة سياسية .

أضف الى ذلك ان التعايش ، على الرغم من شتى أعمال العنف ، لم يبق دون ثمرة حتى عند اليهود . فقد انتهت دولتهم المستقلة ، في أواخر القرن الثاني قبل المسيح ، الى ملكية حمل أول ملك فيها اسماً يونانياً هو ارسطوبولوس . ويكفي هذا الحدث للدلالة على ان مناهضة الحضارة اليونانية التي بدأت بثورة المكابيين قد اخفقت، أقله في هذا الموضوع . ثم ان الأدب اليهودي الذي عرف حينذاك تجديداً أكيداً قد تأثر، مع محافظته على طابعه الديني، بالفلسفة اليونانية كما نرى ذلك في كتابي « الجامعة » و « الحكمة » . ويتضح ان واضع هذا الكتاب الأخير ملم بالافلاطونية من مفهوم الألوهة التي لا تتصل اتصالاً مباشراً بالعالم. وهكذا فقد تمهدت الطريق لمؤلفات « فيلون » في العهد التالي .

بيد ان مثل هذه الاتصالات ، التي تأثر بها اليهود العائشون بين « الأمم » خصوصاً ، لا سيما

في الاسكندرية حيث نقلت التوراة آنئذ الى اللغة اليونانية على يد السبعين ، كما يؤكد التقليد ، الذين وكل اليهم بطليموس الثاني هذه المهمة — لم تحل دون استمرار سوء التفاهم ، أقله بين الجماهير . فقد سبب سوء التفاهم هذا ، حتى آخر العهد القديم ، مآسي كثيرة أخرى . واستمر تمسك اليهود بديانتهم بفضل الشيع المعـــادية لكل خروج على الشريعة التي تفسّر تفسيراً حرفياً ملزماً . ثم أكمـــل السخط والثورات على الملوك اليونانيين او المستغرقين وعلى روما ما كان ناقصاً : فتغلبت الشريعة في النهاية على الرغم من ضغط الحضارة والجيوش الاجنبية .

هكذا استمر وجود أشد الديانات الشرقية تميزاً ، في حركة انتفـــاضية لم يبد الاسياد اليونانيون أي تصلب مقصود أو أية دعاوة دائمة لخلقها أو لتفاقمها . واذا ما استثنينا العبـــادة السلالية ، التي لم يكن ليأنف منها غير اليهود ، لم يفرض الملوك موجبات دينية في الشرق فبقيت الديانات المحلية على ما كانت عليه .

سنى الديانة اليونانية الخارجي

أما معتقدات الاغريق أنفسهم وطقوسهم الدينية فقـد طرأت عليها تغييرات عميقة . فلم تعرف الديانة اليونانية التقليدية ، ديانة آلهة الاولمب وآلهة المدن ، مثل ذاك السنى الخارجي . وقد أفضى انشاء كل مدينة جديـدة في الشرق الى تشييد معبد على الأقل لأن حماية الجماعة الجديدة وتلاحمها يستلزمان عبادة إله مدينـة على الاقل . وكثرت الهبات للمعابـــد المتمتعة ببعض الشهرة : فازدادت النذورات والتماثيل والمذابح في ديلوس ودلفي وأولمبيا . وأخذ الاثرياء والملوك على أنفسهم ، ولا سيما الملوك رغبـة منهم في الدعاوة ، تخصيص رؤوس أموال ضخمة للقرض أو للأعمال العقارية فأوجدوا بذلـك أوقافاً تقوية يستخدم ريعها للتقادم أو للأعيـــاد الدينية . وفي كل مكان زادت الاعياد عدداً وعظمة ترافقها الذبائح والصلوات والتطوافات والالعـــاب التي حاولوا نقلها ، من حيث أنظمة المباريات والمكافآت ، عن الالعاب الاولمبية أو الدلفية ، بغية تأمين الشهرة نفسها لها . وقـــد اسند تبرير هذه المظاهرات التقوية الى انعامات الآلهة ومعجزاتهم ، لا سيما الخلاص الذي تم على يدهم في ظرف خطير او ظهورهم للبشر . وسعوا آنذاك الى الحصول على معاضدة هاتف غيب ، لا سيما هاتف غيب دلفي الذي يبدو نشاطه المتزايد في هـــذا المجال وكأنه يواصل عمل المنظم الاكبر للحيـاة الدينية اليونانية . ثم أرسلوا السفراء الى المدن والاتحادات والملوك بغية الحصول على امتيازات للاعياد وللمعبد ، وللمدينة نفسها اذا امكن ذلك . وخير مثل معروف هو مثـل « مغنيزيا — على — المندريس » حيث تتيح كتـابات عديدة تتبع المساعي المحققة في أعقـــاب ظهورات أبولون وإلهة المدينة الرئيسية ، ارتميس لفكوفريني (« ذات الحواجب البيضاء ») . فبعد السفراء الاول بأربعة عشر سنة أرسل سفراء جدد حصلوا على نتائج باهرة : إذ جمـــع أربعة ملوك وخمسة اتحادات وأكثر من ستين مدينـــة التصريحات والتعهدات العاطفة على عيد الإلهة الدلفي وعلى المدينة نفسها . وما هذا سوى مثل بين أمثلة كثيرة .

جرى كل ما جرى وكأن الديانة اليونانية، التي استعادت شبابهـا بفضل الانتصارات السياسية التي حققها ممارسوها ، تثير في أتباعها تقوى أشدّ حرارة من أي وقت مضى وتحقق باجماع الرأي على الحمد والشكر ، احتلال عالم جديد احتلالاً أدبياً .

انحطاطها الراهن

بيد ان ازدهار الديانة الكلاسيكية هذا لا يمثل سوى مظهر فقط من مظاهر الحياة المدنيـة أي مظهر من ظاهرة عامة ومميزة في العهد الهليني . وليس هذا المظهر أشدّ وقعاً في النفوس من كثير غيره ، ولكنه أكـثر صنعة الى حدّ بعيد . فالتقوى نحو آلهة المدن كانت تؤلف جزءاً من مصطلحات الحياة المدنية ، ولم يستهدف التنافس في الظهور بين المدن ، في هذا المجال ، سوى غايات زمنية جداً . فهي إنما ابتغت امتداد شهرتها واجتذاب الزائرين والحجاج وتشجيع التجارة المحلية وإلهاء السكان ومحاولة تجنب بعض الحملات عن طريق الاعتراف بـ « قدسية » المدينة و « حقها بالحماية »، أي، عملياً ، الاعتراف بحصانتها حيال شتى أعمال العنف . وعملياً لم يكن لهذا النشاط ، المرهق للدخل المحلي ، أي شيء مشترك مع العاطفة الدينية الحقيقية . وهل كان بالامكان ان تكون الامور على غير هذا الوضع حـين تقتصر حياة المدينة نفسها أيضاً ، في غالب الاحيان ، على ظواهر شكليه ؟

أضف الى ذلك ان أدلة عدم أهلية الديانة الكلاسيكية قد برزت بشكل جلي أكثر من ذي قبل . فقـد أضرّ بها على الدوام انهـا لم تستجب لاضطرابات قلب الانسان وعقله . ولم تأت إلا بتعليم اخلاقي فرديّ بدائي ، دونما اهتمام لما هو عادل وغير عادل ، مكتفية بالنشاط الخارجي ، لا بل متخذة ، في غالب الاحيان ، شكل ومعنى صفقة تجارية يعقدها المؤمن مع الإله . وقـد تركت الفرد دون سند ودون وعد ودون امل مطمئن أمـام شبح الموت المقض . ولم ترتبط أو أنها لم ترتبط ارتبـاطاً جيداً بمفهوم عام للكون وجوهره وتنظيمه . وقد اضيف الآن ، الى هذه العيوب الدائمة، حقيقة ومشهد ضعف المدينـة أي الاطار البشري الرئيسي الذي ترعرعت فيه وارتبطت به ارتباطاً قلبياً . وقد برهن اخفاق المدينة السياسي للجميع ان الآلهة الذين التمست منهم الحماية لا يستطيعون أو لا يريدون تأمين السلامة والسعادة لمواطنيها . فتعلم الانسان ، على حسابها ، ان مفهوم المواطن لا يحـدّده تحديداً كاملاً ويهمل منه بعض مظاهر كيانه ، تلـك المظاهر بالذات التي يجعلها شقاؤه أبرز ظهوراً .

وكانت روابط الآلهة الاولمبيين بآلهة المدن أوثق من ان تبقى بعيدة عن هذا الفتور . بيـد ان بعضهم ، وزفس بنوع خاص ، قد بدا وكأنه لم يتأثر به ، ولكن السبب في ذلك هو ان اسمهم قد استخدم لاستغراق آلهة شرقيين . ويبدو في الحقيقة ان ديونيسوس قـد تمتع بتعلق أشد قوّة . فالنجاحات التي احرزتها عبادته ، وهي مدهشة اذا ما فكرنا بالمركز الثانوي الذي احتله في السابق ، لم تناسب مشاغل زمنية فقط . اجل اعتبره اللاجيون والاتاليون جـداً لهم ، ولم تكن السياسة بعيدة عن التقوى التي تباهوا بها حياله . ولا ريب ايضاً في ان صفته

كإله المسرح قد عينته بصورة طبيعية كي يصبح شفيعاً لجمعيات الفنانين الذين تفسر كثرة التمثيليات آنذاك نجاحهم وأهميتهم . ولكن هنالك اسباباً أخرى لنجاحات عبادته . ومن حيث ان هذا الإله تراقيّ المنشأ ، فإنه كان أقرب الى الآلهة الشرقيين من جميع الآلهة اليونانيين الآخرين الذين دخل بينهم في عهد متأخر . فمنذ الاسكندر ، وعلى خطاه ، اتضحت اسطورة أسفاره ونجاحاته في آسيا وتوسعت بعد ان كانت اسطورة موجزة : فكيّفته تكييفاً افضل يتفق وظروف العالم الهليني . اضف الى ذلك احيراً ان « طفولاته »قد أوجدت حوله، بالتفضيل على اي إله آخر ، جوّاً من العدوبة الرقيقة النضيرة قادراً على استغواء مشاعر ذاك العهد . فلو كان على الديانة اليونانية ، ان تستمد من ذاتها ، دون اي اكتساب جديد ، وسائل تجديدها ، لأمسى ديونيسوس، على الارجح، اعظم الآلهة اهمية .وهو الوحيد ، على كل حال، الذي ابرز عند اتباعه، آنذاك، في ما يظهر، شيئاً آخر غير الحركات الاصطلاحية الخالية من المعنى الديني الحقيقي.

التحديدات الدينية : العبادة الملكية والسلالية

حدثت مع ذلك تجديدات متفاوتة الاهمية لارضاء ميول البشر العاطفية واحتلت كلها مكاناً في الحياة الدينية وعبرت أحياناً عن ايمان عميق حقيقي .

فهناك في الدرجة الأولى العبادة الملكية والسلالية . وقد عالجنا فيما سبق أصولها اليونانية والاشكال التي تلبستها وتنظيمها حيث انتهت الى عبادة رسمية . وقد رأينا ، لجهة العواطف التي تتعلق بها ، توافقها العميق مع نظرية الفاسيلفس أي الانسان المتفوق على البشرية المتوسطة تفوقاً يصبح من الشرعي معه ان يمثل بالإلوهة التي يمتلك قوتها . فهي قد عبّرت في الوقت نفسه عن الاعجاب وعرفان الجميل واستنزال الانعامات الجديدة .

ولكن هل كل هذا بكاف للكلام عن عاطفة دينية ؟ انه لمن المغالاة نفيه نفياً باتاً شاملاً . فاذا كان التطور اللاحق قد عمّق وعقّد ادراكنا لمثل هذه العاطفة فمن الجدير بنا ان نعود الى الفكرة المكونة عنها سابقاً . لنصغ الى النشيد الذي ألفه أحد الشعراء والذي أنشد في أثينا اكراماً لأحد الانتيغونيين : « الآلهة الآخرون بعيدون ، وهم اما لا آذان لهم واما لا وجود لهم واما لا يعيرون حاجاتنا أي اهتمام . أما أنت فنحن نراك هنا ، لا من خشب أو من حجر بل حاضراً حضوراً فعلياً . لذلك فنحن نبتهل اليك انت أيها العزيز بين الأعزاء ؛ اعطنا السلام قبل كل شيء ، لأنك أنت سيد السلام » . تعبّر هذه الجمل عن روحية نفعية لا يقبل بها ذوقنا . ولكن هذه الروحية أقرب الى الايمان اليوناني الذي انتظر أبداً من آلهته انعامات مباشرة ملموسة : وقد انقضى وقت طويل قبل ان تبدو مثل هذه الملاحظات ناقصة وغير كافية، فجاءت خبرة الشرق الدينية تفعل فعلها في هذا المعنى بالذات . بيد ان فجاجة الاعتراف ، من وجهة النظر اليونانية ، وفي اوائل العهد الهليني ، لم تنتقص من تأثيره على الجماهير .

فليس اذن باستطاعتنا ان ننكر ان العبادة السلالية ، في حضارة وفي نظر أناس عزوا الى

القوة ، كقوة ، مصدراً وطبيعة الهيّين ، ربما جاءت تعبيراً عن تدين لا يقل واقعية عن التدين الذي عبّر عنه من قبل في عبادات آلهة المدن . فهذه العبادات الأخيرة أيضاً كانت رسمية ومفروضة ومتحجرة في طقوس اصطلاحية . فلم تضف العبادة السلالية الى هذه النقائص سوى التسهيلات التي وفرتها لتملق خسيس ولخضوع أكثر سلبية لأوامر سلطة أعظم قوة : وهذا التباين تباين في الدرجة لا في الجوهر . فيجب من ثم ان تفسر هذه العبادة كاستعاضة عن العبادات القديمة التي غدت آنذاك غير كافية لإيقاد ايمان الجماهير . وان هي لم تدخل على الحياة الدينية عواطف جديدة فقد وفرت لها على الأقل أشكالاً جديدة .

التجديدات الدينية . عبادة إله الحظ

لم تخل الفلسفة الهلينية ، أقله في بعض مدارسها ، من الاصداء الدينية . فقد ساعد نجاح تعليم افيميروس الذي زعم ان اقدم الآلهة اليونانيين ، بما فيهم زفس نفسه ، قد عاشوا حياة البشر ، لا بل حياة الملوك المحسنين ، فألهم رعاياهم الشاكرون ، على تقبل وازدهار العبادات السلالية . وذهبت تعاليم أخرى الى أبعد من ذلك . فانتهت الرواقية مثلاً الى مفهوم إله واحد، خالق وسيد الكون،ولا يمثل الآلهة المعروفون سوى مظاهره التي يسهل على الانسان الوصول اليها . فتوفقت بذلك الى الاحتفاظ بالاساطير مفسرة إياها كرموز . ولكن هذه النظريات السامية لم تكن لتبلغ وترضي سوى نخبة قليلة العدد .

أما الديانة الشعبية فيبدو انها لم تنقل عن الفلسفة سوى مفهوم واحد هو مفهوم « إله الحظ ». وقد نشأ هذا المفهوم عن المدرسة المشّائية التي واصلت تعليم ارسطو، وعرف نجاحاً كبيراً جداً عند اغريق يتفاوتون مستوى عقلياً . وقد مثل هذا المفهوم حظاً عاماً يرتبط به مصير الانسانية جمعاء ، وليس قط مرادفاً للصدفة الخرقاء أو لحتمية لا تعفو . وعزيت اليه بعض الاهواء ، ولكن عزيت اليه أيضاً بواعث أملاها عقل لا يدركه الفكر البشري لسوء الطالع. واذا لم يكن هنالك أية طريقة لتليينه ، فانه لم يكن من الممنوع الابتهال اليه فحسب، بل التفكير في اسباب المصائب أيضاً وفي استخلاص النتائج الضرورية : وقد سيطرت فلسفة الحظ هذه على مؤلفات بوليب التاريخية في احدى مراحل تحضيرها . ولكن قد سُلّم بالاضافة الى ذلك ، لاسيما في الأوساط الأمية او شبه الامية، بوجود حظوظ كثيرة، واحد لكل فرد وواحد لكل جماعة فتمكنت التأثيرات الشرقية، اقله في هذا الحقل، من ان تفعل فعلها عن طريق مفهوم« غاد *(Gad)* » السامي، الحامي الخاص لكل مدينة. وقد درجت عادة مدعوة لديمومة نادرة ، عن طريق تشخيص إله الحظ في انطاكية الذي ذاعت شهرته بفضل تمثال لافتيخيداس ، تقضي بتشخيص المدينة بصورة امرأة تتوج رأسها الابراج . ومن المسلم به ان التقوى كانت أكثر حرارة نحو الحظوظ التي تبدو اعظم قوة ، وبنوع خاص حظوظ الملوك التي كانت موضوع عبادة وتقسم الأيمان باسمها . ويمكن القول ، على العموم ، ان عبادات قليلة عرفت الانتشار الذي عرفته هذه

الديانة : فلم يكن في الحقيقة من ديانة افضل انسجاماً مع اختبار عالم مجهول شاهد الكثير من الارتفاعات المحائية التي عقبتها كوارث فجائية ايضاً .

التحديدات الدينية : القلق والخلاص

تتلمّس دون صعوبة ، مع العبادة الملكية ، بقدر بعدها عن مجرد التملق، وفي عبادة إله الحظ، اجماع الرغبة في تأمين السعادة بفضل قوى متفوقة. وقد تكدّد الاضطراب النفوس وبحث الناس عن الخلاص بقلق شديد . وقد عبروا عن هذه النزعة بقوة نادرة في لقب « المخلّص » الذي اطلق آنذاك على الكثير من الآلهة القدامى والجدد، والكثير من الملوك أيضاً : فكان شعورهم بأنهم في مأمن من اخطار الحياة والموت الشرط الأول للسعادة .

وقد ابتهلوا بحرارة الى اسكليبيوس ، الإله الشافي ، للتخلص من الآلام الجسدية . فهو قد قبل منذ زمن بعيد في مصاف الآلهة اليونانيين وكان له معابده ، وأشهرها في كوس احدى جزر بحر ايجه، وفي ابيذورس من اعمال الارغوليد. فتوافدت اليها جماهير غفيرة لم يسبق لها مثيل من ذي قبل . وكانت شهرة مؤسسته الطبية الدينية التي تخرّج منها الأطباء الكثيرون احد مقومات ازدهار كوس حيث حرصت الدولة على حمايتها واستمرارها عن طريق المساعدات المالية . اما في ابيذورس فقد اقتضى توسيع الابنية حيث كان المرضى يقضون ليلهم ويجمعون ، في الاحلام التي تراود سباتهم ، الدلالات التي يفسرها الكهنة لتوجيههم في معالجة آلامهم : وتشهد اليوم نذورات كثيرة ، ترافقها الكتابات التفسيرية ، بجميل المرضى المدينين لجود الإله بشفاء عجائبي .

ومن الآلهة النصراء والرحماء والمخلّصين ، على غرار غيرهم لا بل اكثر من غيرهم ، اولئك الذين استطاعوا طمأنة الانسان حيال اخطار الحياة الثانية . وتوصلوا الى ذلك بايقاف المؤمن على اسرارهم . وقد سبق للحضارة اليونانية الكلاسيكية ان عرفت هذا الشكل من الحياة الدينية التي انتشرت في حينه انتشاراً غريباً في معابد يونانية وشرقية قديمة وجديدة . فعلى بعض المسافة من أثينا حافظت الفسيس الرسمية على زبنها واستمالت الكثير عيرهم ؛ ولكن الفسيس جديدة قد انشئت على مقربة من الاسكندرية لم تقم ، والحق يقال ، الا بنشاط ثانوي . غير ان السوق التي راجت هي سوق اسرار اخرى بسبب ما انطوت عليه احتفالاتها من مسرحية وتأثير ، حتى انها قد اتهمت بالشعوذة والدعارة . وكان لديونيسوس ، الذي سبق تكريمه في الفسيس ، اسراره الخاصة التي اصبح لها فروع كثيرة . واذا وجد الاغريق هذه الاسرار في تراث اجدادهم الديني، فانهم لم يأنفوا من الاشتراك بغيرها مما يمت بصلة الى العبادات الشرقية كعبادات « اتيس » و « وسيبيل » في آسيا الصغرى وعبادات اوزريس وايزيس في مصر .

نحن لا نعلم حق العلم تفصيل هذه الاحتفالات التي توجب على المشترك المبتدىء ان يعتصم بالصمت حيالها . ليس من ريب في ان الطقوس والصيغ قد اختلفت باختلاف الآلهة . غير ان

المؤمن قد وجد في كل مكان تهدئة لاضطرابه وقلقه : فانه كان يحضر قيامة إله ميت ، فيقف بذلك على اسرار الموت والتجدّد . قد تكون اسرار الفسيس قد وقفت عند هذا الحد . ولكن الاسرار الاخرى قد قادت المشترك الى ابعد من هذا . فبعد تطهيرات مختلفة كان يتمثل بالإله ويشترك في طبيعته الإلهية . وكان ايضاً يتعوّد حالات نفسية جديدة كالانخطاف ومحبة الإله المتألم اللذين من شأنهما إدخال الذهول الى قلب اكثر الناس خشونة . كما كان يواجه مفاهيم جديدة لم تتعرض لها العبادات اليونانية قط عملياً ، كمفهوم الخطيئة ، ومفهوم الطهارة ، لا الطهارة الجسدية التي يحصل عليها بالاستحمام والصوم فحسب ، بل الطهارة الأدبية ايضاً . فوفّر له كل ذلك ، بالاضافة الى الوعود التي لا تقدّر بثمن ، تنمية حياته الداخلية ، التي كانت متروكة لنفسها فغدت منذ ذاك مستنيرة وثابتة . وهذه كلها فتوحات لم تكن النفس البشرية لتقبل بالتخلي عنها بعد الآن .

التجديدات الدينية : العبادات الشرقية وسيرابيس

أضيف كثير من هذه الاسرار الى عبادات آلهة شرقيين : ولكن الاغريق ، على الرغم من ذلك ، لم يحيدوا عنها . فقد برهنوا أبداً ، على الصعيد الديني ، عن قابلية للاقتباس ، معترفين بنواقص معتقداتهم الخاصة ومستعدين للاستعاضة عنها باقتباسات عن الشرق . بيد انهم ، عندما تبنوا رسمياً عبادات غريبة ، بذلوا الجهد لتكييفها ولتطهيرها ، اذا صح التعبير ، باخضاعها للعقل : هذا كان مصير عبادة ديونيسوس في قلب اليونان الكلاسيكية ، اثينا . اما العبادات التي بقيت هي هي ، محتفظة بميزاتها وطقوسها الاصلية ، فقد استطاعت التسرب الى بعض المدن ، لا سيما الى المرافىء ، ولكن احياناً وبصورة خاصة فقط : هكذا استفادت عبادة إيزيس ، في البيره ، من بعض التساهل ، ولكنها لم تحظ بالاعتراف الرسمي . وتبدل الوضع منذئذ تبدلاً كلياً . فأقيمت الاتصالات بالآلهة الشرقيين بصورة حتمية مباشرة وعلى اوسع نطاق ، شاءت الدولة تسهيلها أم ابت . ولم تحاول الدولة ، في اي مكان ، من جهة ثانية ، التعرض لها فسنحت للاغريق فرصة تنميات روحية كثيرة قد تبدو خيانات محضة في نظر الحضارة اليونانية الكلاسيكية .

وقد حدثت تقاربات مدهشة . فتعرض يهوه نفسه للضمّ ، على الرغم من تميّزه وارتباطه الوثيق بشعب معين . فإن كلمة « الاعلى » كانت منذ قبل ذلك صفة لزفس . فاعتمدت لاسم اكثر غموضاً هو « ثيوس » (الاله) ، فاوجد بذلك اله جديد ، شبه غفل ، يسهل التوفيق بينه وبين بعض التعاليم الفلسفية ، لم يتردد الكثيرون ان يروا فيه إله اليهود . وآثر غيرهم تمثيل إله اليهود بديونيسوس ، باسمه التراقي ساباذيوس ، الذي كان من السهل ، بصدده ، تلبيس بعض الكلمات كسبت وصباؤوت . وحملت استدلالات أخرى على الكلام عن زفس الدمشقي وزفس الدوليكاني اللذين ليسا سوى الإله حدد في دمشق ودوليكي . ودفعت إذ ذاك نزعة غريزية النفس

اليونانية على البحث عن إله كلّي القدرة يستجيب الصلوات ، وعلى خلقه عند الحاجة . وهكذا فقد شقّت الطرق ، ولو بصورة غامضة جداً ، التي كان باستطاعتها ان تؤدي الى التوحيد .

حاول البطالسة توجيه هذا المجهود وفي الوقت نفسه توحيد الاغريق والبلديين المصريين في عبادة مشتركة . فأوجد بطليموس الأول ، توصلا لهذه الغاية ، إلهاً جديداً هو سيرابيس ، ونظم عبادته بعد ان استشار اغريقيا والكاهن المصري مانيتون ، وهوالذي عهداليه وضع موجز لتاريخ مصر الفرعونية باللغة اليونانية . وقد شيّد المعبد الأول للاله الجديد في منف المدينـــة المصرية الصرفة ؛ ولم يشيد له معبد آخر إلا في عهد بطليموس الثـالث في الحيّ البلدي من الاسكندرية المعروف باسم راكوتيس . ولم يكن اسم الإله نفسه سوى إله الأموات في منف ، « اوزريس – أبيس » الذي شوّهه الاغريق فدعوه اوزورابيس وسارابيس وسيرابيس . وقد احتفل بعبادته في هذه المدينة ، وفاقاً لطقوسها الخاصة ، الكهنوتان اليوناني والمصري ، وكان الكهنة المصريون أكثر عدداً الى حد بعيد . غير ان النفوذ اليوناني لم يلبث ان وطد سيطرته ، لا سيا بفضل تمثال النقاش « برياكسيس » الذي ابتكر طراز الرسم الاصطلاحي للاله ، كما يغلب على الظن . فهو قد سكب فيه خاصيـــات منقولة عن آلهة يونانيين عديدين كزفس ، بسبب قوته ، والإله الشافي اسكليبيوس وإله الأموات هادس : فاذا به قد مثّل انساناً مهيباً ، يفيض محيّاه عطفاً ورحمة ، كثيف اللحية وأجعد الشعر ، يكسو رأسه المكيال رمز الخصيب ، جالساً على عرش ، قابضـاً على عصا طويلة بيده اليسرى وملقيـاً يده اليمنى على كلب . واذا كان الإلهان المصريان ايريس وانوبيس قد اشتركا مع الإله في معبد منف أيضاً ، واذا دفن فيه كل « ابيس » يموت ، فقد وجد فيه منحى ثانية هيكل لدبوبيسوس ، كما قام أمامه بناء سداسي الشكل أُحيط فيه تمثال هوميروس بخمسة تماثيل لفلاسفة يونانيين وخمسة تماثيل لشعراء يونانيين أيضاً . فكان الإله والعبادة ، بالتالي ، يونانيين ومصريين في آن واحد ، يغلب فيها طابع الحضارة اليونانية .التي لم ترض يوماً بالتنكر لما كان ولا يزال سبب عظمتها . ولذلك فليس من الغريب اذا لم يكترث البلديون المصريون عملياً لسيرابيس ، في حال انه تمتع بمركز ممتاز في الأوساط اليونانية ، بفضل ما انطوى عليه من خصائص غريبة عن الحضارة اليونانية الكلاسيكية ، كما يرجح . وقد كرست له ، في كل مكان تقريباً ، معابد احتفل فيها بالأسرار أيضاً : في آسيا الصغرى ، وديلوس ، وتراقيـا ، والدونان نفسها . وهو الذي مهّد الطريق أمام انتشار عبـادة وأسرار ايزيس في الامبراطورية الرومانية جمعـــاء .

على الرغم من ان الاحتياطات المتخذة للحفاظ على نصيب العنـاصر اليونانية ، استمر إذن استقلال ونفوذ الشرق دينياً بلا منازع . وقد اجتذبت عباداته ، دون أي تساهل ، العديد من المؤمنين اليونانيين الذين وصلتنا منهم ، باللغة اليونانية ، شهادات تقوى لا تحصى نحو آلهة « برابرة » لا غش فيهم . فامتدت عبادات هؤلاء الآلهة ، بواسطتهم ، نحو الغرب ، الجزر ولا سيا ديلوس

أولاً ، واليونان ثانياً . وقد اسهمت بعض الاسهام في هذا الغزو بلاد بابل نفسها التي فقدت ديانتها القديمة كل قوة توسعية واقتصرت في نشاطها على محاربة الفنـاء ، وذلك بواسطة التنجيم والسحر اللذين مارسهما من أطلق عليهم اسم « الكلدانيين » او « المجوس » أيضاً — لأن هذه العلوم الباطلة قد أشيعت ، على العموم ، باسم زرادشت — وتجدر الاشارة هنا الى ان جميع الديانات الشرقية ، التي ستتقاطر الى روما فيما بعد وتنتشر منها في المقاطعـات الغربية من الامبراطورية ، قد بدأت تتوسع حتى قبل الفتح الروماني : فلم يكن دور السيطرة الرومانيـة ، على هذا الصعيد كما على غيره ، سوى توسيع نطاق التطور السابق .

فلا يبدو إذن من الغلو بشيء التكلم ، بصدد الاغريق ، عن ثورة دينية كان فتح الاسكندر منطلقاً لها . فان هذا الفتح ، بتخليصهم من اقتسارات الديانة المدنيـة ، قد حرر فيهم احساساً وصوفية خفيين ولكن مكبوتين . وقد أتاح لهم ، باقامتهم في عالم اتسعت آفاقه تمكنوا فيه من اغتراف الدروس ، اختبارات أثارت حمـاسهم الحاد . فاكتشفوا في آن واحد ثروات الشرق المادية والروحية التي سحرتهم لفترة طويلة . واذا لم يفرض عليهم استخدام الثروات المادية أي تمرين ، فقد توجب عليهم ، حيال الثروات الروحية التي كانوا أمامهـا شبه مبتدئين ، ان يرضوا بالتتلمذ لرعاياهم . فقد أحسوا نهائياً ، في هذه المدرسة ، بما يجعل نفوسهم غير راضية وتعـلموا تقوى جديدة قوامها القلق والحمية .

٢ — الفـــن

الفن اليوناني والفنون البلدية

باستثناء بعض التقنيـات ، لم يكن الشرق ، في الحقل الفني ، ليبرز معلماً حيال الاغريق الذين ثبت تفوقهم فيه منذ زمن بعيد . لا بل ان أثر الفن اليوناني ، منذ قبـل الاسكندر ، قد تسرب الى أماكن كثيرة من ساحل آسيا المتوسطي وحتى الى البلاط الفارسي . فكان الفن الهليني بالتـالي فناً يوناني الجوهر بصنـاعييه وبتحقيقاته . ولم تحافظ الفنون المحلية على حيويتها إلا في بعض المناطق المحدودة جداً . واذا ما نظرنا الى الشرق في مجموعه ، رأينا ان هذه الفنون لم تجد عملياً فرصة سانحة للظهور ، إذ ان النخبة الاجتماعية ، التي كان باستطاعتها احياءها عن طريق طلبـاتها ، قد احتقرت او أعرضت عنها بعد ان فقدت روحها القومية .

ولم يخرج عن قاعدة هذا الانحطاط العام سوى شواذ نادرة . وبالاضافة الى اوروك في بـلاد بابل ، حيث يفسر استمرار حياة كهنوتية يعطف عليها السلوقيون تشييد وترميم المعابد التقليدية ، تكوّن مصر السنذوذ الرئيسي . وفي وادي النيل تساوى تصميم الملوك اليونانيين على الابقـاء على التقاليد الاجتماعية في الحقل الفكري وفي الحقول الاخرى . فشيدت المعابد المصرية وزينت جدرانها بالمشاهد الكلاسيكية : ولكن هنالك فوارق طفيفة ، كالسعي وراء التنـاسق في القياسات ، تحمل على الاعتقاد بحوار بل باشتراك اغريق يخضعون لعلم آخر في سنن الجماليات . أما البنـاء

الوحيد الذي يـــبرز فيه الاثر اليوناني بروزاً محسوساً ، بتمثيل أشخاص يرتدون الألبسة اليونانيـــة ، وببعض الجزئيات ، كتكريم ديك أو وجود طفل على ذراع أمه ، فهو مدفن « بيتوزيريس » ، المصري الذي ينتمي الى اسرة كهنة ؛ وقـــد يكون هذا المدفن سابقاً لفتح الاسكندر أيضاً .

تجديد الفن اليوناني

سيطر الفن اليوناني سيطره لم ينازعه فيها منازع ، ولكنه خضع لتجديـد عميق الجذور . بيد ان ذلك لا يعني أنه نقل عن الفنون الشرقية فوق مـا نقلت عنه . ويفسر تحوّلاته ، التي دلّ عليها تطوره السابق ، الظروف المختلفة التي كان على نشاطه ان يـــبرز فيها .

نشأ التجديد عن المدد الذى وفّره، لبعض النزعات الظاهرة منذ أواخر العهد الكلاسيكي ، الميل لاحساس جديد . فادخلت على الفن المعاني الروحية والقدرة على التأثير الديني . فاصطبغت الوجوه ، وحتى المناظر الطبيعية أحياناً ، بصبغة صوفية . ولم يكن كل شيء ، من جهة ثانية، من النوع نفسه في الميل العاطفي الذي أعرب عنه زبن أقل اهتماماً من ذي قبل بالتناسق المنطقي. وكان من شأن التأثر ان ينقلب اضطراباً وعنفاً ، حتى بشكل خارجي . فاستفاد الفن من ذلك عند الاقتضاء ، غير مقتصر على إعادة الأزمات والآلام النفسية ، باحثاً في قوّة التأثير والضوضاء عن وسيلة للتعبير عن هوى النفس .

تحسنت الظروف المادية للحياة الفنية تحسناً عظيماً . فمنذ العهد الكلاسيكي شرعت المدن اليونانية في التزيين والتجميل . واستمرت هذه النزعة ، لا بل توطدت ، وخضعت لهـــا المدن الجديدة العديدة في الشرق على غرار مدن اليونان القديمة ، واعتزت كلها بهذا التنافس . وأفضى نمو البورجوازية الى ازدياد عدد الزبن الميسورين الراغبين في البذخ الكمالي واللذة في الحياة الخاصة والعامة . فنتج عن ذلك ازدياد عظيم في الطلب وارتفـــاع في عدد الفنانين المهنيين الذين غدت حياتهم اليومية اكثر سهولة ، واكثر ازدهاراً في غالب الأحيان . غير ان جودة المصنوعات قد تدنت دونما ريب بفعل ظهور وانتشار ما يمكن تسميته بالنماذج القيـاسية الموافقة لأذواق طبقة اجتماعية أمست اكثر عدداً من ان تبقى نخبة ثقافية واصبحت هي نفسها « قياسية » ، اذا جاز التعبير ، إذ اننا نراها منشابهة جداً في جميع مناطق العالم اليوناني .

أجل كان هنالك ، في الوقت نفسه ، زبن آخرون مولعون بالثقافة العليا ومتمتعون غالبـاً بالوسائل اللازمة لبلوغها ، يطلبون من الفنانين ارضاء أذواق اخرى اعظم رقة، أعني بهم الملوك وبلاطاتهم . وقد انطوت طلباتهم على البذخ والعظمة ايضـــاً اللذين من شأنهما اعلاء شأن جلال السلطة . ولكن التربية التي أعتني بها اعتنـــاء خاصاً منذ ان استطاعت السلالة تأمين بعض الاستقرار ، والبطانة التي حرصت على استمالة اولئك الذين يستطيعون ، بفعـل شهرتهم ، تمجيد حكم الملك، قد أدخلتا عليها مشاغل وتصنّعات تفوق الى حد بعيد تلك التي اكتفت بها البورجوازية

المدنية . وقد حلّت نصرة الفنون هنا كافة مشاكل الفنانين المادية حلاً اكثر شمولاً منه في المدن، غير انها قد وجهتهم شطر تحقيقات، اما فخمة واما بالغة في الدقة، لم تكن دون غيرهـا مناقضة لتحقيقات العهد السابق .

١ – هندسة العمارة

الابنية الكبرى

كان باستطاعة هندسة العمارة الهلينية أن تنقـــل عن الشرق القوس والعقد والقبة مثلاً. غير انها، على معرفتها بها، لم تستخدمها إلاّ نادراً جداً، متمسكة بالاساليب الكلاسيكية التي حصرت جهدها في اتقـــانها . واذا كان عدد الابنية المشيدة آنذاك عظيماً جداً فلم يأت سوى القليل منها ، في تصميمه وتحقيقه ، ببعض الجدّة . وما تجديد هندسة العمارة اليونانية ، خصوصاً ، سوى في جمع العناصر القديمة لتحقيق مجموعات عظيمة .

يبرز هذا الاستمرار في طراز المعبد الذي شيدت منه نماذج لا تحصى بسخاء أملته مصطلحات التقوى الرسمية . والجدير بالملاحظة ان الفنانين ، ان هم اعتمدوا في بناء المعبد مواد وتزييناً غالباً ما تم عن غنى نلمس فيه التباهي ، لم يعودوا بـــه الى القياسات الضخمة التي أهملها الذوق السليم في العهد الكلاسيكي . أما تصاميم المعـــابد الكبيرة التي عكفوا على تنفيذها ، دون التوصل الى إتمامها قبل زمن طويل ، أي في القرن الثاني بعد المسيح للقسم الاكبر منها ، فقد وضعت أقله في القرن الرابع ، كتصاميم معبد زفس الاولمبي الذي يعود الفضل في الشروع فيـــه في أثينا الى بيستراتوس . وقد يفرض هذه التصاميم أحياناً استخدامُ بقايا أبنية سابقة تهدمت عرضاً .

ومما لا ريب فيه ان الأبنية المستهجنة الطراز قد بقيت نادرة جداً . ولعل أغرب مثل عنها، أبرزته اعمال التنقيب ، هو معبد « ديديموس » الذي تعهدت «ميله» إعادة بنائه منذ الاسكندر وواصلتها طيلة قرون. بلغت قياسات أساسه ١١٦ × ٥٢ مقابل ٧٠ × ٣٠ للبارثنون . وانتصبت أمام مدخله عند وجه البناء اعمدة اشبه بالحرج بسبب كثرتها، موزعة على خمسة صفوف؛ واحاط بالبنـــاء صنفان آخران ايضاً . وفي داخل الجدران ، ادّت اثنتان وعشرون درجة تتجه الى الاسفل الى فنـــاء طلق قام فيه معبد صغير لأبولون . لا يمكننا ، امام هذا الخروج عن المألوف ، إلا ان نفكر بالشرق وبقاعات الاعمدة في المعابد المصرية وبالفناءات الداخلية فى معابد شرقية كثيرة . ولكن الى أي تاريخ تعود هـــذه التأثيرات يا ترى، ما دام العمل قد تناول إعادة تشييد بناء التهمته النيران ؟ فقد ابقي مثلاً على التماثيل الجالسة القديمة جـداً ، العائدة لأسرة البرنخيين الكهنوتية ، المرتبة على طول الطريق المؤدية من المرفأ الى المعبد وفاقاً للطرق المصرية التي تحف بها تماثيل ابي الهول والكباش .

وعلى نقيض ذلـــك فقد برز هنالك طراز جديد ، يوناني بحت ، على الرغم من خصائصه المميزة ، ان لم يكن لمعبد فأقله لعمل هندسي غايتـــه دينية : المذبح الضخم لزفس المخلّص في برغاموس . ارتفع على مقربـــة من اعلى قمة في المدينة ، داخل شبه مربع واسع يحده رواق

مزدوج من جهاته الاربع . وقام المجموع على اساس ذات درجات وادى اليه من جهة الطريق المقدسة سلّم عظيم يشارف عليه جناحان من الرواق . ولكن هذا لم يكن بناء بالمعنى الصحيح بل تنظيماً لمساحة خالية من البناء ؛ وفي الحقيقة كان المهندس المعمار ، هنا ، مهندس تجميل .

يبين هذا المثل ان هندسة العمارة الهلينية لم تنفر نفوراً مبدئياً من التحقيقات الفخمة التي من شأنها ان تدهش العقول بقياساتها غير العادية . لا بل كان من المحتم ان تخضع لهذه النزعة الـــتي تتفق كل الاتفاق والوقائع السياسية والجغرافية والمالية السائدة التي اتسع نطاقها الى ما لا حدّ له. اجل لقد صمّم « جبـار » رودس المجوّف كتمثال لهليوس ، الإله الشمس ، إله المدينة ، وصنع من عدّة قدرات ضخمة . ولكن يجب ان نخص بالذكر البرج الثلاثي الطبقات البالغ علوّه ١٢٠ متراً الذي شيّده المهندس المعمار سوستراتوس الكنيدي عند مدخل مرفأ الاسكندرية وكان معدّاً لأن يرشد ، بواسطة النار المشتعلة في قمته التي تعكس المرائي لمعانها الى مسافات بعيدة ، المراكب المتوجهة نحو المرفـأ . (انظر الشكل ٢٦ — ص — ٤٥٧) .

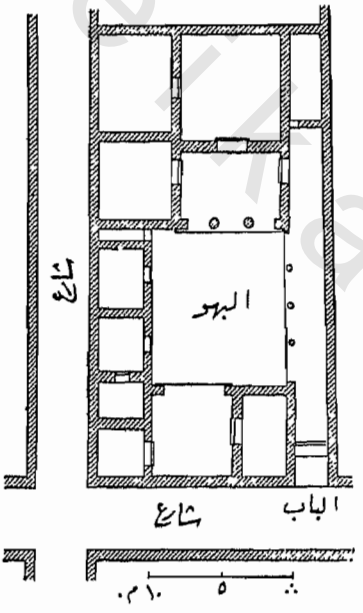

الشكل ٢٨ - بيت هليني في بريينا (ايونيا)

البيت

وهنالك نزعة تجديدية اخرى في هندسة العمارة الهلينية تفسر هازيادة الامكانات المالية أيضاً.

نحن نجهـــل كل شيء تقريباً عن القصور الملكيـة التي لم يكشف التنقيب فيهـــا عن شيء حتى الآن . ويجب في ما يَظهر ألاّ نتصور أبنية عظيمة ، بل أبنية متنوعة ، زاهية ، مجهزة لرخاء العيش اكثر منه للأبهة الرسمية ، موزعة في رياض غناء فتنت الملوك الشرقيين أبداً بنضـارة اخضرارها . والوصف المفصل الوحيد الذي لدينا يعود للسرادق المعدّ لبطليموس الثاني لمناسبة عيد سلالي كبير ، ولقصر عائم معدّ لنزه بطليموس الرابع وبطانته على النيل : وكلاهما مظهر عظيم وتعبير مؤثر عن الملكية اللاجيـة ، ولكن هذا المظهر وهذا التعبير زائلان او عرضيان لا يسدّان فراغ القصر الكبـــير الذي احجمت عن تشييده ، لأنـه ما كان ليستجيب لرغبات ملوكها لو شُيّد .

على نقيض ذلك ، أظهرت اعمـــال التنقيب ، لا سيما في المدن الأسيوية كميله وبريينا ، او البحرية كديلوس ، بيوتـــاً خاصة لا تحصى . وطبيعي ان المساكن الضيقـة الفقيرة التي ازدحمت فيهـــا عائلات الطبقة الشعبية قد ألّفت سوادها الأعظم . غير أنـه قد برز الى جانبهـــا طراز سكني جديد درج الكلام معه عن « البيت الهليني » تمييزاً له عن بيت العهد

الكلاسيكي . وليس من شك في ان البورجوازية ، الراغبة في سعة العيش والرفاهية ، او الفخفخة احياناً ، والمزودة بالوسائل اللازمة لادخال البهجة على حياتها اليومية، هي التي روّجت اعتماده. يشغل البيت الهليني مساحة اكبر : فمساحات البناء كانت اوسع من ذي قبل في المدن الحديثة وفي المدن القديمة ايضاً التي ضمت اليها احياء جديدة . ولم تفتح فيه نوافذ تطل على الخارج ، بل باب واحد فقط يؤدي الى ممر جانبي مظلم : فالبيت الذي هو ملجأ الحياة الخاصة يجب ان يكون في مأمن من المذال . ولكن الغرف — وهذا هو التجديد الكبير — كانت مفتوحة على فناء وسطي مجهز في الغالب برواق ذي أعمدة يقي من المطر والشمس، او اقله ، ببعض الاعمدة التي تنتصب أمام مدخل القاعة الرئيسية .

كان هذا البيت كبيراً وحسن التهوية. وكان مزيناً ايضاً . فقد رصفت ارضه بفسيفساء ملونة اعتمدت فيها الرسوم الهندسية او مواضيع تزيينية اخرى . وكثيراً ما أُلبس القسم السفلي من الجدران بالصفائح الرخامية . وقد أبدل الرخام النادر احياناً ، في دلتا النيل مثلاً ، بالجص الملون . ولم يكن من النادر ان تزين الجدران برسوم تمثل الحدائق او المناظر الريفية .

هكذا نشأ في الشرق المتوسطي ذلك المسكن الخاص الذي سيتوسع ويتزوق مع الزمن ، وتضاف اليه احياناً حديقة كبيرة، والذي سيفضي الى بيت بومبيي الذي تحملنا المقارنات الكثيرة على الاعتقاد بأنه كان يونانياً اكثر منه رومانيا .

المدينة

اذا ما نظرنا الى كل مدينة على حدة، لم يظهر لنا أي تغيير هام في عناصرها التقليدية، الاغورا والمتزاوف والمسرح الخ ، التي كوّنت على الدوام الاطار المادي لحياة الاغريق الجماعية . ولكن تجديداً قد حدث مع ذلك : فان هذه العناصر التي كانت مستقلة حتى ذاك العهد قد جمعت كي تؤلف كلاً واحداً وخططت وأُعدت وفاقاً لرسم عام وحوّلت الى اجزاء من كل منظم تحقيقاً لأهداف جمالية ومادية . اما قسط الهندسة الهلينية في هذا التجديد فهو مفهوم المدينة : فيبدو انها اكتشفت وجود المدينة ووحدتها ككائن مادي لا يختلف في تميزه وتفوقه على مجرد تلاصق الأبنية العامة والمساكن ، عن تميز البولس وتفوقها على مجرد تجاور الافراد . فنشأ من ثمّ التجميل الذي برز منذ البداية كفن وعلم وتقنية ادارية .

اذا ما استثنينا بعض المدن التي انشئت في عهد متأخر نسبياً — كمرفأ البيره واولنثوس — اتضح لنا ان المدينة في العهد الكلاسيكي قد بنيت بلا تبصّر ولا قصد ولم يواجه فيها المستقبل كما لم يهتم فيها لغير المشاكل الخاصة الحالية . أما المدن الهلينية، باستثناء بعضها — كديلوس مثلاً —، فقد صممت وفاقاً لمخطط كان تنفيذه من الأمور السهلة لأنها على الغالب مدن جديدة . وقد أخذ بعين الاعتبار ، في مخططها الهندسي وشوارعها المتوازية المكونة بتقاطعها زوايا مستقيمة، توسعها اللاحق ، فأفسحت مساحات طليقة للساحات العامة وللأبنية الضرورية لتفتح الحياة الجماعية، ووزعت الأبنية العامة توزيعاً منطقياً وفاقاً للغاية الموضوعة لها . فأوجب ذلك نوعاً من الوحدة

في القياس والقاعدة. غير ان طبيعة الأرض قد أخذت بعين الاعتبار، أقله، لتحديد تخطيط السور وموقع كل من القلعة والمسرح الذي كان من شأن اسناده الى منحدر احـــدى التلال ان يخفف نفقات بنائه . ومهما يكن من الأمر ، فقد كانت هنالك مشاغل جماعية ، جديدة في كثرتهـــا وشمولها ، أوجب ذوق ذاك العهد النزول عندها .

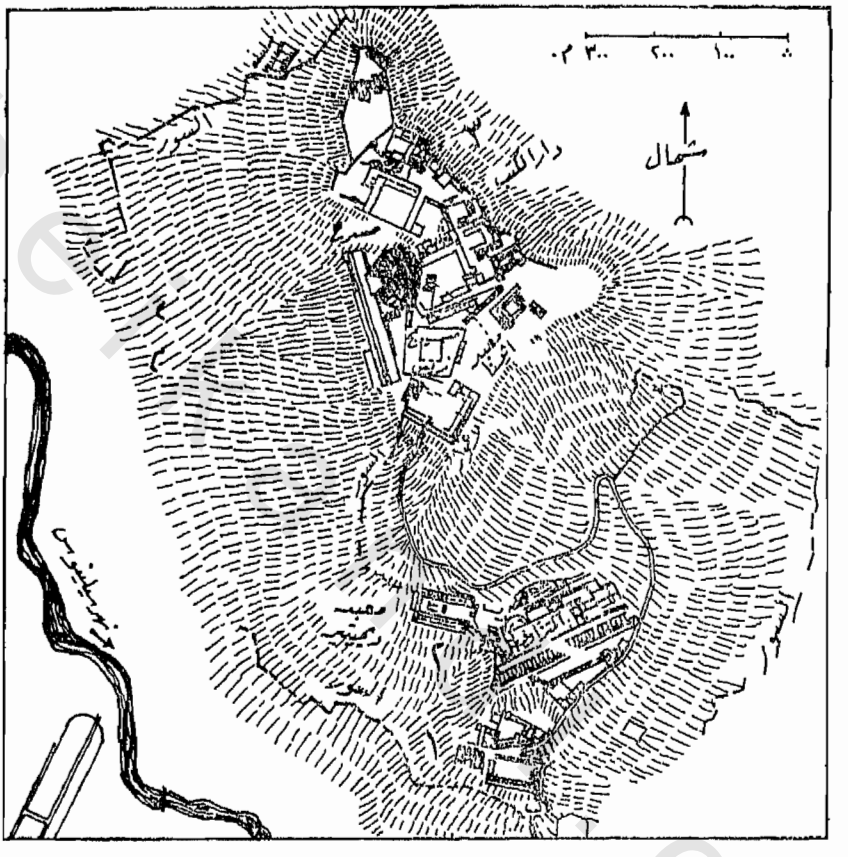

الشكل ٢٩ - برغاموس الهلينية
ثلاث مدن أضيفت الواحدة منها الى الاخرى : المدينة السفلى (١) ، المدينة الوسطى (٢)، المدينة العليا (٣) . وقد استلزم توسع المدينة وانحدارها نحو السهل تعاقب تشييد أسوار أعظم اتساعاً.

مشاغل رفاهية في الدرجة الأولى . فقد حدد عرض اكبر للشوارع ، عشرة امتار تقريبـاً للشوارع الرئيسية ، وستة الى ثمانية أمتار للشوارع الثانوية . ووضعت انظمة للأبنية ، حفظت لنا الكتابات ما تعلق منها ببرغاموس ، قضت بالنظافة والتقيد بحد ادنى من المسافات بـــين البيوت : وقد عين قضاة وموظفون خصوصيون، نقلت روما تنظيمهم فيما بعد عن الاسكندرية، مهمتهم السهر على تطبيق هذه الانظمة وتأمين السلامة ليلا ومكافحـــة الحرائق . واحيطت الساحات العامة المتميزة بالاتساع بأروقة تتفق مع متطلبات المناخ الشرقي ويحلو للكسالى التنزه فيها. وانشئت المجرات والاقنية لتأمين حاجة المدن من المياه . واذا ما عرفت المدينة الازدهار

وساهم الملوك والمواطنون الاثرياء بسخائهم ، برز البذخ بصورة ابنية جديدة ومعابد ومتزاوفات ومذابح وخصوصاً تماثيل برونزية او رخامية غدا عددها في النهاية عظيماً جداً . ومن الجلي ان البورجوازية المدنية المزودة ببيوت انيقة التزيين قد اعارت جمال المدينة الاهتمام نفسه : فكان للتنافس شأنه على هذا الصعيد ايضاً .

اضف الى ذلك ان التجميل الهليني قد خضع لهمّ جديد هو وقع المنظر العام الذي يحصل عليه بتنظيم المدينة تنظيماً جمالياً والتوفيق بين مناظر الأشياء البعيدة توفيقاً متناسقاً وتوزيع الخطوط والمسطّحات والمجموعات التي تنتج عن هندسة العمارة توزيعاً متوازناً معتدلاً . ويبدو في هذا الصدد ان مدينتين ، هما مقران ملكيان ، قد انشئتا بنجاح كامل . فهما قد حددتا على كل حال لأجيال واجيال من الفنانين ، النقاشين والنحاتين والرسامين ، موضوعين من مواضيع مناظر الخلفية . وهاتان المدينتان هما الاسكندرية وبرغاموس . أما الأولى ، وقد بنيت في ارض سهلية ، فقد أعطت الخطوط والمشاهد التقليدية لمنظر المرافىء الذي ألفه جميع المتوسطيين والذي بلغ الكمال هنا بفضل تقدم الاساليب التقنية التي اعتمدت اذ ذاك في كل مكان تقريباً ولكنها لم تعتمد في أي مكان على مثل هذا النطاق الواسع : الجزر الصغيرة والارصفة والبرج المضيء وشتى انواع المراكب ونشاط حركة التحميل والتفريغ ، وتشرف على كل ذلك قمم الاشجار الخضراء في الحدائق الملكية وسقوف الابنية العامة . واما برغاموس ، وقد بنيت على منحدر تلة تشرف على سهل يلتقي فيه نهران ونضدت وفاقاً لمسطحات تفصل بينها سطوح افقية تتراءى خلالها جدران واعمدة وسقوف المتزاوفات والملاعب وتوجت اخيراً بسلام المسرح الحجرية وبأعمدة المعابد ، فقد اعطت المنظر المدني بحصر معناه ، من حيث انها شُيدت كستار خلفي في مسرح ، منطوية احياناً على كل معنى العظمة الملموسة ومذكرة تذكيراً مؤثراً بالمجهود البشري الذي فرض نسفه على الطبيعة وبلغ الذروة في التعبير عن جميله نحو الآلهة : فان ما بدأت أثينا في اعطاء مثل عنه في منحدر القلعة قد ظهر هنا على نطاق اوسع بفضل اضافة باقي المدينة الى هذه التقدمة التقوية الجبارة . فقد ولد حقاً فن جديد هو في الوقت نفسه نتاج وغذاء احساس جديد .

٢ ـ الفنون التصويرية

الظروف العامة

ان الظروف العامة التي كان لها أثرها في الفنون التصويرية تختلف اختلافاً بينا عنها في العهد الكلاسيكي .

ويظهر التغيير بنوع خاص في الظروف المادية . فقيام الملكيات الكبرى وسياستها في نصرة الفنون الجميلة وتضخم الثروة والتنافس بين الجماعات وميل الافراد الى الفخفخة ، كل ذلك أحدث ازدياداً عظيماً في طلبات المصنوعات الفنية . واليك بعض الأرقام المدهشة المذكورة عرضاً في الكلام عن بعض أعمال النهب . فيؤكد بوليب ان « ألفي تمثال على الاقل » انتصبت

في ثرموس ، المركز الديني والسياسي للاتحـــاد الايتولي . واستطاع القائد الروماني الذي دخل امبراسيا عنوة ، وهي مدينـــة في غربي اليونان كانت مغمورة في القرون الكلاسيكية وبقيت ثانوية بعد ذلك على الرغم من انهـــا أصبحت مقراً للملك بيروس في فترة من الزمن ، ان يعرض ويسيّر لدى انتصاره ٧٨٥ تمثالاً من البرونز و ٢٣٠ تمثالاً آخر من المرمر، تاركاً التماثيل الخزفية في أمكنتها مع انهـا من انتاج زفكسيس . وضم موكب النصر الذي رافق فاتح مقدونيا ، بولس اميليوس ، ٢٥٠ عربـة ملأى باللوحات والتماثيل والمنسوجات الثمينة والأواني الذهبية والفضية والشبهية والعـــاجية . وبدت المعابد الكبيرة الجامعة ، دلفي واولمبيا وديلوس التي اثبتت الكتابات والاكتشافات عظمتها ، وبعض المدن كاثينا ، اكـــثر من أي وقت مضى ، وكأنها متاحف او معارض دائمـة . وتاقت كافة المدن الاخرى الى بلوغ هذا الهدف وتوصلت كثيرات الى تحقيقه ، لا سيما تلك التي كانت مقراً للملوك فاستفادت استفادة كبرى من سخائهم وتنافسهم في التباهي والظهور .

كان لهذا الكلف العام اثره الطيب في حياة الفنانين المادية وفي مرتبتهم في الطبقات الاجتماعية وفاقاً لتطور شبيه بذاك الذي حدث لمصلحة رجال الفكر كما سنرى . فلم يرتفع عددهم فحسب ، بل زادت ظروف العمل لكل منهم ايضاً . فاستخدموا مواهبهم ، اكـــثر من ذي قبل ، في معالجة بعض الخـامات النادرة الثمينة التي رفعت من شأن مصنوعاتهم في نظر زبنهم . فظهرت إذ ذاك تجارة المصنوعات الفنية بما تنطوي عليه من نتائج حتمية : تقليد الروائع الشهيرة وارباح الوسطاء وتوسع الاوساط المهتمة للمشاغل الجمالية واتساع اسواق التصريف وتضـــاؤل الأوهام الاجتماعية القديمة . وبموازاة زيادة موارد الفنانين ، شملت الشهرة المحدودة اسماء اكـــثر عدداً وبقيت الشهرة الكبيرة مقتصرة على نخبة قليلة العدد . في العهد السابق شذّ فيدياس ، المقرب الى بريكليس ، عن القاعدة العامة ؛ اما اليوم ، فعلى غرار ليسبوس الذي لحق بالاسكندر الى آسيا، كان لفنانين كثيرين علاقة بعظماء هذا العـــالم . وزادت دعوات هؤلاء من تنقلات الفنانين التي عممت معرفة المصنوعات والتقنيـــات الفنيه فأسهمت إسهاماً عظيماً في الحفاظ على وحدة الفن الهليني .

وهكذا خضع هذا الفن ، بفوارق واشكال خاصة بهذا المركز وذاك، الى نزعات مشتركة موافقة لميول مجتمع قوّى التطوُر المـادي والادبي التحامه الاوّل . اجل سبق لكثير من هـذه النزعات ان ظهرت ولكنها انتصرت الآن . فعبّرت واقعية الصورة عن الفردية العـــامة التي لم ترض ان تنظر الى الانسان نظرتها الى مثال مجرّد . وتوافق البحث عن التأثير ، والتعبير عـــن العواطف الحادة ، والميل الى الجمـــال حتى الشهواني منه ، والتلهي الزائل ، مع المذهب الذي ناهض مذهب العقليين في ذاك العهد . وبرز اثر الثورة الدينية ايضاً ، فعكس الفنُّ إيمـاناً يتميز بمزيد من الفردية والعاطفة وتوجه الى النفس والاحساس، اقله بواسطة موحيات التفسير الصوفي .

وردد هوى الطبيعة والمناظر نفسه صدىً يختلف عن صدى نداء سكان المدن للآفاق العريضة والماء الجارية والاخضرار ؛ فعبّر ايضاً عن تقواهم نحو القوى العظمى سيدة الحياة الأرضية والحياة الثانية .

ويجب من جهة ثانية الى جانب عوامل التجديد هذه ، ان نفرز مكاناً لتقليد الماضي . فان سحر روائع العهد الكلاسيكي لم يزل يفعل فعله في الهواة ، لا سيما الملوك الراغبين في اعلاء مقرهم الى منزلة المناظر التي هي أشبه بالمتاحف في اليونان القديمة . فتكونت إذ ذاك قطعة المجموعات الاولى التي كلفت رؤوس أموال باهظة . غير ان تعذر اخراج الروائع الاصلية من المعابد والمدن قد أرغم على الاكتفاء بنسخها . فارتفع انتاج هذه النسخ ارتفاعاً مطرداً ، لا سيما عندما فتحت اسواق جديدة، في ايطاليا اولاً وفي مناطق الغرب الروماني ثانياً. فاضطرت مدينة كأثينا مثلاً، منذ عهد باكر، الى ان تخصص لمثل هذه الطلبات قسطاً وافراً من نشاط مصانعها ، واذا ما استطعنا اليوم محاولة تخيل تمثال « أثينا » الذي حققه فيدياس للبارثنون، فنحن مدينون بذلك ، بصورة خاصة ، الى النسخة التي اكتشفت عنه في برغاموس . ومن الطبيعي ان امانة هذه النسخ لم تكن مطلقة ، إذ ان تقنية التقليد مع ما تستلزمه من افراغ في القوالب وصقل لم تكتشف بسرعة وان الفنان قد تأثر بالذوق السائد في ايامه او لم يكبح، كما يجب الكبح ، جماح إلهامه الشخصي . وهذا ما يحمل اليوم على التردد والجدل في تحديد تاريخ ، حتى تقريبي ، لعدد كبير جداً من القطع الأثرية . وهذا ايضاً ما أوجد ، أقله منذ القرن الثاني ، ردّة فعل بالعودة الى الفن القديم اخذت في البروز شيئاً فشيئاً حتى بلغ منها انها عبرت عن الاهمال حيال النزعات « العصرية » . وليس من شك في ان هذا التطور ، الذي لا يكوّن حالة وحيدة في تاريخ الفنون ، انما هو ثمن نمو العلم الواسع الذي احتل هو ايضاً ، كما سنرى ، مركزاً هاماً في الحركة الفكرية : فقد حدث كل شيء ، في النطاقات التي لمعت فيها الحضارة الكلاسيكية بمثل هذا السنى ، كأن الحضارة الهلينية شكّت في نفسها فخضعت لتقليد الماضي تقليداً معجباً.

النقاشة

ليس في عداد النقاشين الهلينيين الكثيرين سوى اسماء بارزة قليلة هي بالنسبة لنا اليوم غير مجرد اسماء .

واشهرها على الاطلاق هو اسم « ليسبوس » . بدأ نشاطه قبل الاسكندر ، ولكنه غدا النقاش الرسمي لهذا الأخير في آسيا وعرف ان يطبع الصور الرسمية التي نقشها بألمعية سيكولوجية جنّبتها عبقريتُه الاصطلاح. وهي هذه الالمعية التي تجيز لنا الاعتقاد بأن تمثال « هرميس ازارا » في اللوفر ، الذي تؤكد كتابة تحملها قاعدته انه تمثال للاسكندر ، نسخة عن احدى روائع ليسبوس . ومهما يكن من الأمر ، فان ليسبوس ، ببحثه عن الحركة والايقاع ، وبتحليله الحاد للعريكة والعواطف ، قد شق نهائياً ، أمام خلفائه، الطريق التي سلكها براكسيتيل وسكوباس من قبله .

اذا كان هذا الأخير قد علّم برياكسيس واضع التمثال العبادي الأول لسيرابيس ، فان خاريس ، واضع جبار رودس، احدى« عجائب الدنيا »،وافتيخيداس، واضع مجموعة إله الحظ في انطاكية، قد تتلمذا على يد ليسبوس . ولكننا لا نعرف سوى هذه المجموعة باحدى نسخها التي تتيح لنا تقدير قيمة تصميمها العام : وفرة وبساطة الرموز — تاج الأسوار المسننة ، حفنة السنابل، السبّاخ الفتي القوي الذي يمثل نهر العاصي منفجراً من تحت الصخر —،ومعرفة الحركات كما يتضح من تعقيد وطبيعية الوضع الذي يرفع الرجل اليمنى على كتف السباح واليد اليمنى القابضة على السنابل حتى مستوى الرقبة ، بينما تتكىء اليد اليسرى على الصخر ، والفوارق الرقيقة التي تعبّر عن الجلال والراحة في جلسة كلها مرونة ، وعن العطف والوقار في وجه يتّسم بالعذوبة الحالمة .

بقيت فيما بعد اسماء كثيرة يتعذر علينا ان نربط بينها وبين روائع نعرفها . ومهما بلغ من شهرة هذه الروائع ، كفينوس ميلو وإله نصر ساموتراس الفاتن الذي اهدي تقدمة بعد انتصار بحري احرز في القرن الثالث او القرن الثاني، فان التماثيل قد كتب لها الاغفال والتباس التوقيت. وهنالك عدد لا يحصى من تماثيل افروديت في متاحفنا، لم تكن صناعتها سوى حجة لتعرية جسم المرأة ، حيّرت علماء الآثار ، تشهد بما انطوى عليه الزبن الذين اقتنوها من ميل شهواني يفوق حرارة ايمانهم ؛ وقد تذهب أناقة تماثيل ديونيسوس طفلاً ويافعاً ، وجلال تماثيل زفس الملتحية ، وعضلات تماثيل هيراكليس القوية المرهقة احياناً ، الى ابعد من ذلك لو لم تفرض نماذجها المجيدة امثلة اصطلاحية .

في هذا الفيض من الانتاج ، تراءت بعض النزعات المحلية . فهل كانت هذه النزعات من القوة بحيث نستطيع الكلام عن « مدارس » كما جازف بعضهم مراراً كثيرة ؟ التعبير مبالغ فيه دون ريب لأن التنقلات الكثيرة قد مزجت فنانين يختلفون منشأً جغرافياً ، ولأن مدرسة واحدة لم تمارس احتكاراً، حتى فيما يبدو لنا ممكناً ان نجعله مقرّاً لها. بيد انه يتوجب علينا الاعتراف بأن هذه او تلك من النزعات الكثيرة في النقاشة الهلينية قد برزت ، وفاقاً للأمكنة ، في تحقيقات منفردة او مجموعة على درجة رفيعة من التميز .

وتتحقق هذه الحالة في برغاموس بمزيد من الوضوح ، ولعل ذلك بسبب تأكدنا الترجيحي من نسبة الروائع الصادرة عنها . كان الملوك الاطاليون يهوون روائع العهد السابق ويقتنونها ، وقد أسسوا مدينة — متحفاً لا تضاهيها مدينة في العالم الجديد آنذاك ، فأكثروا من الطلبات لتزيين عاصمتهم ولتوزيع العطايا الثمينة المفيدة لدعاوتهم على عدد من المدن اليونانية في اوروبا وآسيا . وقد استفادوا منها للاحتفال بنزاعاتهم مع الغلاطيين الكلتيين الذين غزوا شمالي اليونان وأقاموا في قلب الانجاد الأناضولية فأرهبوا الجوار بسجسهم النهّاب . ولم يكن ذلك دون بعض التساهل ، اذ ان السلالة ، بعد ان وجدت فيه فرصة لتوطيد سلطتها وتوسيعها ، لم تتردد في

استخدام الغلاطيين ضد اغريق آخرين ، ففسرت هذه النزاعات كصراع الحضارة ضد البربرية . فأحيت بعض النقوش هذه النزاعات احيـــاء مباشراً وأشارت اليها نقوش اخرى اشارة رمزية بواسطة مشاهد ميثولوجية او تاريخية . وهكذا فان بعض المجموعات ، في اسفل الجدار الجنوبي من قلعة اثينا ، قد مثلت ، لا هزيمة الغاليين على يد اطّال الاول ، بل هزيمة الجبابرة ايضاً على يد الاولمبيين وهزيمة الأمازون والفرس على يد الأثينيين . وكذلك فان صراع الجبابرة هو الذي أوحى ايضاً موضوع نقوش الافريز الكبير في مذبح برغاموس .

وهكذا فقد استقر مثال افضى نجاحه الى انتاج المزيد من نسخه ، هو طراز الجندي الغالي، المحارب ، الجريح ، المشرف على الموت ، المنتحر بعد قتل زوجته كي لا تقع في العبودية ، المخيف بعريه وشعره الأشعث وهمته القعساء، المؤثر بخيلائه في الشقاء ، القادر بعد كل حساب على ارعاب وطمأنة المدنيين الهانئين بسعة عيش مترفـة . ومع ذلك فان الانتاج الأعظم هو الافريز الذي ازدانت به ، على ١٣٠ م طولاً و ٢٫٣٠ م عرضاً تقريباً أساس مذبح زفس الضخم في برغاموس. فان هوى النفس الذي يبلغ فيه حدّ العنف المفرط في المحاربين يتمثل في هيجان الأوضاع وتشنج الأوجه والعضلات المنكمشة في مجهود حاقد. وتبرز براعة الفنانين الخلاقة في تنوع الأمثلة البشرية او المسيخة ، وفي قريحة لا تنضب تنوّع المشاهد الكثيرة — فحتى الجبّار الفتي نفسه يخفض رمحه أمام جمال افروديت الرائع — ، وفي دقة رسم الأسلحة وحتى الملابس والأحذية . وبالتالي فان النقاشة الهلينية ، على نقيض النقاشة الكلاسيكية وتحفّظها الكالح ، تفضى ، مـا تنطوي عليه من تفخيم وواقعية فظة ، الى مأساة قاسية جسدية واخلاقية معاً .

ويبدو مع ذلك ان البحث عن تحريك العواطف قد بلغ أوجه في رودس ، بعد ذلك بوقت قصير . وان اشهر التحقيقات فيها ، اعني به مجموعة لاوكون وابنيه المنشنجين تحت تأثير التفاف الثعابين عليهم ونهشها ، الذي أثار اعجاب ميكال انجلو وليسينغ والدي يتهمه تطور الذوق المعاصر بالعنف المسرحي يبدو اسمى تعبير للألم الجسدي في خير بحث تشريحي . فقد استهوى النقـاشة الهلينية ان تنقل عن الميثولوجيا مشاهد الاحتضار هذه ، تعذيب « ديركي » — موضوع المجموعة المشهورة باسم « ثور فارنيز » — او موت النيوبيين . وقد حاولت ان تمثـل ، تصويرياً ، آلاماً اعتمدت المأساة تمثيلها منذ زمن بعيد ولم تعدُ لها وسيلة من الوسائل غير لائقة بها للتأثير في المشاهد رعباً وتقوى .

اما الاسكندرية فقد كانت بلا مراء مركز فن نزعاته أشد تنوعاً. وغالباً ما ينتقص المؤرخون من اهميتها باقصار انتاجهـــا الممتاز على الفنون المعروفة بالفنون الصغرى. وفي الحقيقة لم يُظهر النقاشون وعمالهم ، في أي كان، على المواد الثمينة — ذهب وعاج وجوهر وحزع — مثل هـــذا الخيال الخلاق والمهارة التقنية لارضاء بذخ واناقة زبن اسمى رقة . غير ان الظرف الرقيق ، المسترخي احياناً ، في كثير من هذا الانتاج ، قد أخفى نوايا ارفع مستوى ؛ فهو قد عبق بتدين

على كثير او قليل من الغموض والواقعية والصوفية ؛ وقد اوحى ، بكثير من الرصانة ، بتقوى ورحمة خفيتين . والسيئة ، اذا كان هناك من سيئة ، تقوم في ان الابداع في الشكل وغرابة الابتكار تحملان على الاعتقاد بلعبة لا بتأمل مراقب .

ان النقاشة الهلينية أحبت الواقعية فدفعت بها عن قصد الى فن تصويري فى الموضوع والاملوحة ، محاولة الازضاء تارة والاضحاك او التعطيف تارة اخرى . وكان الولد لها موضوعاً مفضلاً تؤثر فيه تطهّم الوجنتين والإليتين ، رمز الطهارة الصافية ووعد القوّة : فكانت نتيجة هذا التفضيل تماثيل ديونيسوس وصغار آلهة الحب والولد الدي يصارع الاوزة برصانة مضحكة. وقد دعا تقليد الفن المصري القديم الى السخرية الداعبة التي لم تتراجع احياناً امام التصوير الهزلي : اقزام سمجون ، راقصون وراقصات مضحكون ، من شأنهم تفكهة هواة اشمأزوا من الجمال الفني . فلوحظت الأمثلة الشعبية ملاحظة دقيقة ، المصارعون من الدرجة الدنيا ، والفلاحون ، والشيوخ ، والعبيد ، فاكتشفت فيها ظروف انتقادية على شيء مما يثير الاشفاق . وقد حرص النقش النـاتىء ، الذي تأثر تأثراً قوياً بفن التصوير ، على وضع المشاهد الميثولوجية ومشاهد الحياة اليومية في منظر مرفإي او مدني او ريفي . ولم ينفصل التمثال الرمزي نفسه انفصالاً كلّياً عن الطبيعة ، واننا لنجد الى جانب اولاد يلهون بحرية ، نباتات مستنقعات الدلتا على مقربة من شيخ جليل يمثل النيل : وهذه مجموعة شهيرة اسهمت الى حدّ بعيد في نشر فكرة تشخيص الانهار ، إن لم تخلقها خلقاً على غرار ما فعلته للمدن مجموعة إله الحظ في انطاكية .

التصوير والتخزيف والصياغة

ان ما نعلمه عن تحقيقات فن التصوير الكبرى في العهد الهليني لا يتعدى عملياً ، كما سبق وقلنا عن فن العهد الكلاسيكي ، ما بلغنا عنه بالخبر المنقول. فقد عاش ابيل في عهد الاسكندر ولم يستحق احد من خلفائه ، فيلوكسينوس او ايسيون او ثيون ، مهما بلغت شهرتهم ، ان يجاري ذاك الذي حقق التحفة الرائعة التي لم تضاهها تحفة من بعده والتي تمثل افروديت خارجة من الماء وهي تعصّر شعرها . وكي نكوّن اليوم فكرة عن نتاج هذا الفن يجب ان تنطلق مخيلتنا من بعض قطع الفسيفساء او الرسوم الجدرانية الكمبانية ، لا سيما في بومبيي ، التي ليس من شك في انها تقليد لما حُقق منها في العالم اليوناني .

واننا نرى فيها دون عناء بعض النزعات الظاهرة في النقاشة ، وليس هذا بالأمر المستغرب اذا ما اخذنا بعين الاعتبار اشتراك الفنين لا بل تنافسهما في تزيين الأبنية . وهذا ما يبرر موازاة تطورهما ، على الرغم من ان المصورين قد سبقوا النقاشين ، كما يبدو ، في اصطناع بعض التأثيرات. وبرز معنى الحركة العنيفة في فسيفساء متحف نابولي التي تمثل هجوم الاسكندر الصاعق على داريوس في معركة ايسوس. وقد قدّمت الميثولوجيا بوفرة المواضيع المحركة للعواطف التي عولجت بالتفضيل على غيرها . ولكن الفنانين لم يهملوا وضع الاشخاص في منظر راعوي او غامض ، في

حال ان الواقعية الدقيقة او التخيل المفتن والمبتكر قد رافقا معالجة الرسوم الرمزية . وكان للروحانيات وكابوس الموت والفلسفة والأدب أثر في تصميم بعض الزخارف التي يرفع المعبد وتمثال الإله والرمز النباتي او الحيواني من تفهها الراعوي، وفي تمثيل ربات وحي الأدباء والفلاسفة والعلماء والخاصيات المسرحية والعلمية . وكان من شأن الانصاب المدفنية المصورة التي اكتشف عدد كبير منها في تسّاليا وفينيقيا ومصر ان تخرج من الابتذال الاصطلاحي احياناً بفضل طابع الصورة الفردي ، حتى اذا استخدمها زبن من الطبقة الوسطى . وكان فن التصوير الهليني على العموم فناً عظيماً من شأنه ان يساعدنا على فهم الفنون الاخرى فهماً افضل فيما لو أحسنا معرفته .

اما فن التصوير على الخزف فقد تقهقر تقهقراً واضحاً في اعقاب توزع المصانع والحاذب الذي أحدثته مصنوعات ترفية اخرى . فقد فقدت اثينا امتيازها وأنشئت مصانع كثيرة في كافة أنحاء العالم اليوناني ، وحتى في خارجه ، واستخدمت يداً عاملة أقل نجابة ومهارة . أضف الى ذلك ان الزبن ، وهم أوفر ثروة ، غدوا يفضلون الأواني المعدنية التي تؤلف أبداً قسماً هاماً من المغانم التي بهر استعراضها الجماهير الرومانية في مواكب النصر الكبرى غداة حروب الشرق . وقد نقشت على البرونز والفضة مشاهد ناتئة ، ويصح في المواضيع المعالجة، وفي طريقة معالجتها، معظم ما قلناه عن التصوير والنقاشة . وهما ايضاً تكشف اثارة الذكريات الفكرية والدينية والمدنية وحتى المأتمية عن ميول راسخة في هواة يتميزون بذوق رقيق . اما الزبن المتوسطون فيكتفون بالخزفيات الناتئة التي قلدت الأواني المعدنية وازدانت بالمشاهد نفسها وعرفت إذ ذاك رواجاً مطرداً . فلم يعد الحرف مادة لفن مستقل بل غدا تدريجياً بديلاً رخيص الثمن للمعدن .

حدث الشيء نفسه للتماثيل الصغيرة ايضاً . ففي بيوسيا وغيرها ، وفي آسيا الصغرى بنوع خاص ، ما زالوا يصنعونها بالتراب. ولكن دقة صنعها تدنت فأكثروا، الى جانب البورجوازيات الأنيقات والفتيات النصرات ، من تماثيل مستهجنة تستهدف اثارة الضحك . فليس من ريب في ان مستوى الزبن الاجتماعي قد تدنى ايضاً ؛ وزاد تقدم اليسار من طلب مصنوعات تكون مادتها أرفع ثمناً .

لذلك أصبح الحد الفاصل بين هذه الصناعة والصياغة غير واضح تماماً . واحتاج سبك المعادن من برونز وفضة او ذهب والعاج والزجاج والجوهر ، ونقشها وتنزيلها ، الى قريحة ومهارة وتقنية فنانين في خدمة أعلى الطبقات الاجتماعية . وتفوقت الاسكندرية على برغاموس ومدن فينيقيا في هذا الانتاج الشرقي . فان عظمة البلاط اللاجى ومبالغته في الترف ، اللتين قامتا على ثروة لم يضاهها ثروة في أي مكان ، قد خلقتا نمطاً يفسر نجاحه التصديرات البعيدة — اكتشفت أوان زجاجية اسكندرية حتى في افغانستان — والأثر المستمر الذي فعل فعله بعد ذلك في ذوي الثروات من سكان روما . احل ان في هذا النمط محاهاة وتصنعاً واستهجاناً . ولكن فيه ايضاً ، في بعض الأحيان ، شعوراً رقيقاً يرافقه ثقافة وتدين ليسا بسطحيين . ويظهر هذا الشعور نفسه

على وجه بالغ الصفاء تعزوه بعض روائع النقود الذهبية الى بعض ملكات البطالسة .

فقد توصلت هذه الحضارة ، أقله في أرفع نجاحاتها كمالاً ، الى تشريف استخدام المواد التي وفر لها فتح الاسكندر امتلاكها .

٣ ــ الحياة الفكرية

كثيراً ما يُبخس حق الحياة الفكرية، في العالم اليوناني ، بتجاهل حيويتها وتجددها . اجل انها لم تعط نتاجاً أدبياً عظيماً ، ولكن قوة الفكرة وجرأة الرأي لم يعوزاها . ولا نستطيع ، اذا ما أردنا اصدار حكم شامل ، ان نتكلم عن تدني القوة الخلاقة ، بل عن اتجاهها اتجاهاً آخر فقط . أضف الى ذلك ان هذا النطاق هو الذي اثبتت فيه الحضارة الهلّينية قدرة كلّية على الاستساغة .

١ – رجال الفكر والمجتمع الجديد

الظروف العامة

لم يكن تأخر البولس ليبقى دونما أثر . وليس من المستغرب مثلاً ان تزول الفصاحة السياسية والقضائية بانتهاء القرن الرابع لأنه لم يبق في الظاهر ظرف واحد من الظروف التي دانت لها بنشأتها وسناها .

قدّمت الملكية ، منذ ذاك العهد ، إطاراً جديداً فرض تكيّفاً خاصاً وأحدث كثيراً من الموجبات والتسهيلات . فنصرة الآداب حدّت من حرية المؤلف او وجّهتها . وبلغ من السلطة المطلقة احياناً ان لاشتها، واننا نعرف بعض حالات سببت فيها الانتقادات اللاذعة موت الشعراء بعد تعذيبهم . ولكن العلائق طيبة اجمالاً ، وعلى فوارق كثيرة ، على كل حال ، تتفاوت بين التملق والكرامة عند هذا ، وبين التنازل والاعجاب عند ذاك . وكثيراً ما لعب التنافس دوره بين الملوك في اجتذاب فيلسوف او كاتب شهير ، وقد حدث في نهاية وليمة من الولائم ان منح انطيوخوس الثالث هدية ولقب « صديق » لشاعر ألقى ابياتاً من الشعر بعد ان رفض الرقص مدججاً بالسلاح على غرار المدعوين الآخرين . وقد تألق البلاط الملكي على العموم من افراد على ثقافة عالية لم يكن اعتدادهم بظرفهم الأدبي مجرد ادعاء فقط ؛ فهم قد يتصنعون ، ولا ريب في ذلك ، ولكنهم يدركون خير ادراك النوايا الخفية التي ينطوي عليها القلب والقالب على السواء . وحلّ اللطف والرقة فيه محل الشدة الحازمة التي كانت توافق في الماضي جمهور المواطنين الخشنين. واذا تأتى من ذلك بعض الضرر فيجب ان لا ننسى المساعدة المادية الكبرى التي منحت للأدباء والعلماء والأعطيات السخية التي سهلت معيشتهم والمؤسسات التي سهلت أبحاثهم .

نتج عن ذلك ، على غرار ما حدث في الحياة الفنية ، ازالة المركزية بشكل بيّن . ففقدت

اثينا نفوذها الفكري السابق . اجل انها ما زالت مدينة جامعية شهيرة بمعاهد الفلسفة والبيان التي أخذت العائلات الثرية ترسل اليها ابناءها لإكمال تربيتهم. وقد تباهى الملك المقدوني انتيغونوس غوناتاس باعلان ما هو مدين به لإقامته يافعاً في أثينا وللمعلمين الذين تتلمذ عليهم . ولكن لأثينا منافساتها حتى على هذا الصعيد ؛ فان شهرة رودس مثلاً كادت توازي شهرتها . وقد تأثرت أثينا ، بنوع خاص ، في البحث العلمي عموماً وفي اكثر التحقيقات الفكرية والأدبية ، باستثناء الفلسفة والمهزلة ، بمنافسة العواصم الملكية الكبرى التي كانت أوفر ثروة وافضل تجهيزاً وأقرب الى العالم الجديد . وكانت الاسكندرية وبرغاموس على الأخص بفضل مجموعات المخطوطات في مكتباتها وسخاء ملوكها ، أقوى استمالة وأبهر لمعاناً : فلم تعد أثينا « مدرسة اليونان » ، او مدرسة العالم اليوناني المتسع على الأقل .

هنالك سبب آخر من اسباب التبدل ، اعني به امتداد وانتشار البورجوازية المتوسطة في المدن . فلم تبلغ هذه الطبقة الاجتماعية إلا نادراً مستوى ثقافياً عالياً . ولم يستهوها التصنع المفرط الدقة الذي قد يستهوي المقيمين في البلاطات . ولكنها كمجموع احترمت الامور الفكرية . تمثل الاغريقي « الوسط » في العهد الكلاسيكي بالفلاح الذي لم يكن امّياً لعمري، ولكنه كرّس بالضرورة ، منذ عهد باكر في حياته ، شطراً كبيراً من مشاغله للنشاطات اليدوية . اما منذ اليوم فقد تمثل ، اقله في الشرق ، بالمدني الميسور ، الملاّك ، التاجر ، او الموظف ، الذي يتصرف بمزيد من اوقات الفراغ دون ان يبقى عاطلاً . ويفسّر هذا التطور تحسن المصير المادي وبالتالي ازدياد عدد من يتعاطون نشاطاً فكرياً. وقد أثبت هذا النشاط انه ليكن قميناً بتغذية متعاطيه فحسب ، بل بإيلائه ، بصورة شبه آلية ، حدّاً أدنى من المكانة الاجتماعية .

الاغريق والشرقيون

ان تعلّق الاغريق بحضارتهم المتفوقة، سواء انتسبوا الى الطبقة العليا أم الى البورجوازية ، قد حدّ من الاقتباس عن الحياة الفكرية في الشرق .

م يظهر الاغريق عموماً ، حيال هذه الحياة ، مزيداً من الفضول، مع ان كل شيء قد توفر ، لا لتشجيعها فحسب، بل لفرضها فرضاً ايضاً. فقد جمع مانيثون احد كهنة هليوبوليس ، بإيعاز من بطليموس الأول ، كل ما كان معروفاً عن السلالات الفرعونية ، ولا يزال الترقيم الذي اعتمده متبعاً حتى اليوم من قبل المعاصرين . وقد قام بالعمل نفسه « بيروز » احد الكهنة البابليين تلبية لطلب الملك السلوقي انطيوخوس الاول . ولكن الاغريق لم يقرأوا مؤلفاتها ، اذا ما أخذنا بعين الاعتبار الأساطير التي ما زال هؤلاء يتناقلونها . وحتى في القرن الاول قبل المسيح ، اي بعد معاشرة طويلة ، لم يتردد اسكندر بوليهيستور ، عندما وضع تاريخ اليهود ، في جعل موسى امرأة سويّة. وقد بقي محدوداً ايضاً الاقتباس عن العلوم الشرقية المشهورة بتقدمها لا سيما علم الفلك . اعتمد اللاجيون والسلوقيون الروزنامتين المصرية والبابلية ، ويتيح لنا اليوم استخدامهم الرسمي لهما ان نحدّد تواريخهم بدقة تامة ، شريطة ان تكون هذه التواريخ قد بلغتنا كاملة .

ولكن الاغريق في جميع المناطق الاخرى قد اكتفوا بروزنامتهم التقليدية على الرغم من تأخرها. ولم ينتشر حساب خسوف القمر ، الشائع في المعابد البابلية ، إلا في وسط نخبة يونانية محدوده العدد : فحتى في ٢١ حزيران من السنة ١٦٨ ، ألقى اختفاء القمر الرعب في الجيش المقدوني .

فماذا نقول بعد ذلك عن جهل أحاطوا نفسهم به ، عن قصد ، حيال امور الهند يا ترى ؟ كان الاسكندر ، مع ذلك ، قد تجاوز نهر الهندوس ؛ ولكنه مع رفاقه قد اكتفى بالغرائب السطحية دون ان يبذل جهداً جدياً لإدراك خوافي الامور . فقد شبهوا بالفلاسفة الوقحين اولئك الذين اطلقوا عليهم اسم « الحكماء العراة » ، متعجبين بنوع خاص من الموت الطوعي الذي اقدم عليه احدهم ، كالانوس ، باعتلاء النار المتقدة ، عندما رفض الاصغاء الى الأطباء اليونانيين في معالجة مرض اعتبره هو غير قابل للشفاء ، بعد ان التحق بالجيش ، وهو في طريق عودته ، حتى بلاد فارس : وكانت الدهشة كبيره ، بعد موت الاسكندر في بابل ، من انه وعد الملك بأن يراه ثانية في هذه المدينة . وسنحت بعد ذلك فرص اخرى . فقد اقترب بعض الملوك السلوقيين من الحدود الهندية. واستحضر احد سفراء سلوقس الاول، ميغاستينوس، كتاباً غنيا بالملاحظات الدقيقة والتصويرية حول الرحلة التي قام بها حتى عاصمة المملكة المورية ، « باتاليبوترا » (باتنا) على نهر الغانج ، حيث استطاع ان يرى بعض البراهمة . وطلب احد ملوك الهنود ان يرسل اليه بعض النبيذ والتين واحد الفلاسفة . وفي أواسط القرن الثالث ، اوفد آخر ، يدعى « اسوكا » ، وهو بوذي مولع بالتبشير، مرسلين الى انطيوخوس الثاني وبطليموس الثاني وحتى الى «انتيغونوس غوناتاس » في مقدونيا والى « ماغاس » في كيرينا . ولكن هذه الاتصالات لم ترتد سوى اهمية عرضية .

كان الاغريق ، المقيمون في شرقي ايران ، الذين يبدو ان عددهم قد أولاهم مركزاً على بعض القوة في بلاد البختيار ، افضل استعداداً لمعرفة الهند . وقد استفاد بعض زعمائهم من انحطاط الامبراطورية المورية وتوصلوا الى ان يقتطعوا لهم ممالك في البنجاب . وكان « ميناندروس » اشهر هؤلاء الملوك الهلينيين الذين تولوا الحكم في بلاد غريبة . وتدعوه النصوص الهندية ميليندا ، ويظهره احد هذه النصوص ، « قضايا ميليندا » ، مستعلماً الحكيم « ناكاسينا » عن الديانة البوذية . ولكن المملكة الفارتية الفتية ، منذ هذا التاريخ ، قد اندفعت الى الجنوب من بحر قزوين وقطعت الاتصالات بين اغريق الشرق الاقصى ومواطنيهم في جوار البحر المتوسط . ولم يعد باستطاعة التأثيرات الفكرية ان تنتقل الى هؤلاء : لذلك فان الحضارة الهلينية ، من حيث هي لم تعرف الهند ، لم تقتبس عنها شيئاً ذا اهمية حقيقية .

اما الشرق المتوسطي او بلاد ما بين النهرين فيجب الاعتراف بأن الحياة الفكرية فيها كانت على العموم اضعف من ان تستهوي الاغريق . وعلى نقيض ذلك فان الحضارة اليونانية هي التي استمالت الكثير من الشرقيين . ويكوّن هذا الانحطاط وهذه الاستساغة مظهرين من حدث

اجتماعي واحد لان الاستغراق قد حصل بنوع خاص عند النخبة البلدية التي كثيراً ما أغرتهـــا السلالات ، ولدى سكان المدن الذين كانوا على اتصال بالبورجوازية اليونانيـــة . ويستحيل احصاء اولئك الشرقيين الاصليين الذين تكلموا وعلموا وكتبوا باللغة اليونانية بحيث لا يمكن تمييزهم عن الاغريق الحقيقيين . اجل كان عددهم قليلاً في مصر بسبب سياسة التمييز العنصري التي طلع بها وطبقها البطالسة الأولون على الأقل ، وفي بلاد بابل بسبب بعدها وبفعل الفتح الفارتي . ولكنه كان غفيراً في آسيا الصغرى وسوريا وفينيقيا وفلسطين على الرغم من العراقيل التي وضعتها الديانة في طريقهم . ويكفي هنا ان نذكر زينون الذي ولد في كيتيون من اعمال جزيرة قبرص والمحدر من وسط سامي ولم يتوصل يوماً الى احسان التكلم باللغة اليونانية ، ولكن ذلك لم يمنعه من ان يؤسس المدرسة الرواقية الكبرى التي لا يُرى فيها شيء مما هو شرقي . وهنـــاك مثل آخر كلّي الوضوح هو اضطرار يهود الاسكندرية لنقل كتب التوراة العبرانية الى اللغة اليونانية ؛ فان هذا النقل لم يتم ، كما جاء في التقليد ، على يد السبعين ، بناء لأمنية بطليموس الثاني الملحّة ، بل اقتضى زمناً طويلاً واستجاب لرغبة محتمة اعرب عنها اليهود المقيمون في مدينة يونانية بعد ان بدأوا ينسون استعمال لغتهم القومية . لا بل ان اكتشافاً حديث العهد (ايلول ١٩٥٢) حصل في مغارة قريبة من الشاطىء الغربي للبحر الميت يثبت ان استعمال التوراة اليونانية قد جرى في فلسطين نفسهـــا احيـــاناً .

كان نشر الثقافة اليونانية ، إذن ، جدّياً في كافة انحاء الجزء الغربي من امبراطورية الاسكندر القديمة ، وتقع على الاغريق انفسهم ، كما رأينا ، مسؤولية حصر ذلك في بعض الفئات الاجتماعية . فهل تعوّض هذه الفتوحات الفكرية عن انضواء اغريق كثيرين الى الديانات الشرقية ؟ يستحيل في الحقيقة احصاء او وزن هذه الارتدادات التي لا تتنافى على كل حال بمجرد حدوثها في اتجاهين متعاكسين . وحين بسط السيطرة الرومانية ، وحتى طيلة عهود الامبراطورية الاولى ، كان ما بقي من الشرق الهليني ، في الواقع ، سائراً تدريجياً نحو حضارة يونانية في الحقل الفكري ، ونحو حضارة شرقية في الحقل الديني . فليس من سبيل والحالة هذه الى الشك في نجاح اليونان على هذا الصعيد ، وهو نجاح غير مقصود على كل حال . ويبرز هذا النجاح اكمل منه في الحقل الفني . فما زالت هنـــالك فنون محلية تقليدية بفضل مساندة الديانة ، في حال ان جميع الشرقيين الذين اضطروا الى التفكير والتعبير عن فكرهم قد انضووا الى الثقافة اليونانية ؛ وتزيد هذه المكاسب الأدبية ، التي حققت دونما اكراه او ضغط ، من رصيد الحضـــارة الهلينية . اجل انها لم تعد منطوية على نبل ونقاوة الحضارة الكلاسيكية . ولكن الحضارة الكلاسيكية نفسها تعكرت منذ قبل الاسكندر وخضعت لتطور مماثل حتى في اليونان القديمة حيث كانت بعيدة عن الإعداء الشرقي . ويجب بنوع خاص ان لا نحكم باستخفاف على حضارة حققت مثل هذه النجاحات لدى شعوب مغلوبة على نفسها : فهذه الحالة من الندرة بحيث لا يجوز ان نمر بقدرتهـــا على الاستساغة مرور الكرام .

٢ – في خدمة النشاط الفكري

الوحدة الفكرية : الـ « كيني » *La « koinè »*

امتدت الحياة الفكرية الهلينية في الشرق وتفوقت على الحضارات المحلية ، غير مقتبسة عنها سوى القليل ، فليس من العجيب من ثم ان تحتفظ بوحدة تستحق الاعتبار . وتوطدت هذه الوحدة عن طريق اللغة بنوع خاص.

لم يكن هنالك بعد لغة يونانية ، بل لهجات يونانية ، وحتى عدة لغات كتابية . ولم يكف ان يكون كثير من الكتبة المشهورين اثينيين او ان يعيشوا ويكتبوا في اثينا حتى تصبح اللغة الاتيكية اللغة الادبية الوحيدة : فقد كتب بنذاروس باللغة الدورية، وهيرودوتس ، على الرغم من الروابط التي شدّته الى اثينا ، باللغة الايونية . فاللغة الاتيكية لم تكن سوى اعظم لهجات « الثقافة » سحراً في العالم اليوناني . ولذلك فهي قد اتجهت نحو الانتشار ، يساعدها في ذلك تقبّلها لبعض خاصيات اللغة الايونية ، ولا سيما اهمية الدور الذي لعبته اثينا في الحياة السياسية والحضارة العامة . وهكذا فقد جعلت منها السلالة المقدونية ، قبل الاسكندر برمن بعيد ، لغة القصر والادارة : وقد تكلمها الاسكندر في حياته الرسمية واليومية مقصراً تكلم لغة مواطنيه القومية على بعض الظروف الاستثنائية .

قدّمت اللغة الاتيكية ، بفضل ذلك ، جوهر الـ « كيني » ، اللغة « المشتركة » ، التي تكوّنت تلقائياً وباكراً جداً بعد الفتح . واستجابت هذه اللغة لحاجات ملحة في عالم تجوّل فيه الاغريق بحرية ، دونما تمييز في منشأهم الجغرافي ، وألفوا فيه جماعات جديدة يوحدها الشعور بتضامنهم في وجه البلديين . ولم تكن هذه اللغة ، على كل حال ، اللغة الاتيكية الخالصة . فقد ظهر فيها اثر اللهجة الايونية ، اوسع اللهجات انتشاراً في الشرق منذ زمن بعيد . واتجه الصرف والنحو اتجاهاً دائماً الى التبسيط ، بالاستغناء عن بعض الصيغ المعقّدة النادرة الاستعمال . اجل ان الادارة اللغوية قد فقدت بذلك بعض مرونتها وبعض ميزاتها الدقيقة. ولكنها اسهمت اسهاماً فعالاً ، حتى أواخر العصور القديمة، – اذ ان روما قد تركت هذا التحقيق الهليني لبيزنطية –، في خلق واستمرار وحدة العالم اليوناني الادبية والفكرية .

كانت الكيني اذن لغة الدواوين والادارة ، ودرج استعمالها في المدن المجددة والجديدة ايضاً. وقد جعلت الاغريق المسافرين او المهاجرين ، شأنها في ذلك شأن وحدة الاخلاق وتشابه الزخرف المادي في البيوت والابنية العامة ، يخالون انهم في بلادهم ، حتى في مناطق الحدود النائية . وقد سهّلت في الحقيقة انتشار الحضارة اليونانية في اوساط الشرقيين ، ولكنها لم تتغلب في الارياف خاصة ، على السنة لم يأخذ الاغريق على انفسهم استئصالها استئصالاً جذرياً . واذا حدث ان اندثرت اللغات القومية القديمة في الشرق الآسيوي – باستثناء اللغة المصرية – ، فقد تم ذلك ، في الطبقات الاجتماعية الدنيا ، لمصلحة اللغة الارامية . واستمرت نجاحات الارامية داخل المملكة السلوقية على الرغم من انها لم تبق لغة الادارة . ولم تبق اللغة العبرانية في فلسطين

الاكلفة لاهوتية، بينما اصبحت الارامية في النهاية لغة الشعب . ولكن لغة « السبعين » ولغة الاناجيل ، عملياً ، هما « الكيني » نفسها . وكذلك فان الرومان ، هواة الحضارة اليونانية ، تعلموا وتكلموا وكتبوا « الكيني » .

ثم أمست اللغة الادبية الوحيدة في النثر . أجل لم يحدث ذلك فوراً : فقد احتفظ العالم اليوناني الغربي ، خلال بعض القرون بعد الاسكندر ، باللغة الدورية التي لم يستعملها ثيوكريتوس مثلاً، على لسان الملاحين الصقليين فحسب، بل كانت لغة ارخميدس ايضا. ولكن هذه اللهجات المحلية قد اندثرت تدريجياً او انها لم تستمر إلا بحيلة . وقد استعملت جميع الاوساط المثقفة ، عملياً ، اللغة نفسها ، واذا سهّلت هذه الوحدة التنقلات الكثيرة التي قام بها اولئك الذين تفرغوا لنشاط فكري فانها قد، ساعدت الى حد بعيد على انتشار الثقافة .

انتشار الثقافة

يؤلف هذا الانتشار احدى ميزات العهد الرئيسية .

لقد جاء المثل من فوق ، من الملوك والمقربين اليهم الذين اعتبروا الجهل أمراً مخجلاً لأن المواهب السياسية والعسكرية لا تكفي لتحقيق مثال الانسان . فان هذا المفهوم لم يغرب عن البال حتى في فترة انفلات اطماع السيطرة بعد وفاة الاسكندر : فقد برز مؤسس المملكة اللاجية ، بطليموس الأول ، كاتباً موهوباً وحرّر تاريخ الاسكندر بشكل مذكرات شخصية — إلاّ اذا كان الامر على نقيض ذلك -- فقدت لسوء الحظ ولكنها كانت ، للمؤرخين اللاحقين، احد أهم المصادر فيما يعود لحياة الفاتح وحملته العسكرية . ولم يتلاش التقليد حتى بانحطاط الملكيات : فقد كتب آخر الملوك الاّطاليين الذي توفي في السنة ١٣٣ بحثاً في علم زراعة البساتين . ولذلك فان الدُور الملكية قد اشعّت على كافة الطبقات ولا سيما على بورجوازية المدن اليونانية .

وارتدى الاهمية نفسها المثل الذي اعطته النساء في البلاطات الهلينية . اجل غالباً ما اهتمت بعض الملكات عن كثب بالسياسة . ولكنهن قد اشتركن بالاضافة الى ذلك ، بفضل حرية السلوك التي وفّرها لهن نسبهن ومنزلتهن ، في حياة القصر الفكرية ، وهذا ما لم تستطعه نساء المجتمع الراقي في اليونان الكلاسيكية ، بعيداً عن مخالطة الرجال . ففي الاسكندرية ، على الاخص ، أكرمهن الشعراء في قصائدهم ، فأكرم ثيوكريتوس ارسينوي ، وكلياخوس بيرينيس . وانشغلت حاشياتهن بمشاغل مماثلة امتدت الى اوساط اكثر اتساعاً . وهكذا قامت تدريجياً ثورة في الاخلاق التي اقصت النساء الشريفات ، حتى ذاك العهد ، عن امور الفكر . فاختلفت بعض الفتيات هنا وهناك الى المدرسة متملصات من الحرم الذي اكتفت فيه والدتهن بتعليمهن ما كانت تعلمته هي بالاختبار . فسببت بعض الحالات نفوراً في الرأي العام ، كحالة « هيبارخيا » التي ضغطت على والديها للتزوج من الفيلسوف الوقح « كراتيس » وعاشت إذ ذاك مثله عيشة علنية وقبلت الدعوات الى الولائم وناقشت الحضور في الفلسفة والآداب . غير ان ابيقور ايضاً قد جمع

بين تلامذته نساء مصونات تزوجت ابنة احداهن من ضابط سلوقي واصبحت نجيـــة لاحدى الملكات . وكان هنالك اكثر من شاعرة، حتى في مدن اليونان القديمة، في اللوكريد او في البلوبونيز . لذلك فان بداية تحرر المرأة الفكري يجب ان تدخـــل بكليتها تقريباً في رصيد الحضارة الهلينية .

ومن حيث ان الثقافة لم تعد وقفاً على جنس واحد ، فهي لم تعد بالتـــالي وقفاً على نخبة محدودة . ويجب علينا هنا ان نشدّد مرة اخرى على اهمية الواقع الاجتماعي الذي تمثل إذ ذاك في انتشار البورجوازية وتطور اذواقها . فقد تكاثرت الطبقة الميسورة في آسيا وحتى في اوروبا حيث اتسع الافق ونشطت العلائق الاقتصادية فحدث شبه اكتشاف لبعض المنـــاطق المتأخرة والمغلقة تقريباً في اليونان الوسطى او الغربية . وقد اجتهدت هذه الطبقة في كل مكان تقريباً ان تترك لأبنائها ، بالاضافة الى امتيازات المواطن اليوناني القانونية، تربية فكرية تبرّر ، في نظرها ، هذه الامتيازات .

التربية الهلينية

كان هذا في الأساس من تعدّد المدارس ، او بالاحرى من إيجاد نظام مدرسي أخذت الجماعات تهتم له ، يوزع تعليماً تحقق حوله الاتفـاق العملي . وكان هذا التنظيم المزدوج احد التحقيقات الهامة في العهد الهليني، وقد اعتمد عملياً حتى اواخر العصور القديمة.

حتى ذاك العهـــد ، اذا ما استثنينا كريت وسبارطة بنوع خـاص ، حيث عهد بالتربية الى المدينة دون غيرها ، نظرت المدينة الى التربية كما الى شأن خاص واكتفت بالاقتصـــاص من سوء اخلاق المعلمين . فبدا هذا النظام ، الذي كلّف العائلات اموالاً كثيرة ، غير ذي فعـالية حتى اذا لم يؤدّ الى المهذبين الفرديين . فعينت مدن كثيرة قضاة خصوصيين عهدت اليهم مراقبة المدارس ، حتى الخاصة منها ، التي ازداد عددها ازدياداً عظيماً ، واقتصر استخدام المهذبين على العائلات المشهورة بثرواتها الطائلة اي عملياً على العائلات الملكية تقريباً . ويدل هذا التطور ان اهتماماً جديداً قد برز الى الوجود . اجل لم يفكروا بالاعتراف بحقوق الولد ، الذي هو رجـل بالقوة ، وبتفتح امكاناته . ولكنهم أرادوا ، بردة فعل طبيعية للدفاع عن حضـارة كانت على اتصال بحضارات اخرى وتباهت بتفوقها وعنيت في الحفاظ على نفسها ، ابقـاء الولد في حصن الاسرة اليونانية التي يوليها نسبه حقوقاً عليه ويفرض عليها واجبات نحوه .

وهكذا يتضح من جهة ثانية. كيف ان الملوك ، كملوك ، قد فوضوا امرهم في ذلك الى المدن : فلم يقدم احد منهم على سن الشرائع في الحقل المدرسي ، لأن التربية تتعلق بالاغريق دون غيرهم، ولأن المدينة ، نظرياً ، ما زالت إطار حياة الاغريق ، حتى داخل الملكيات . وقد حدث ان حرصت المدن في ظروف غير نادرة ايضاً ، او تظـــاهرت انها تحرص على ولاء الشباب للملكية بتشجيع تأسيس ونشاط جمعيات « شبان » تؤدي الاكرام ، بأشكال دينيـة مختلفة ، للملك ولعائلته . ولكن هذه المؤسسات ، شأن كل ما اختص بالعبادة السلالية في الاطار البلدي،

لم يفرضها الملوك رسمياً. واذا ما أُتيح للسياسة ان تتسرب الى نظام التربية فانها لم تحتل فيه سوى مركز ثانوي جداً .

لم يبلغ من مشاغل المدينة هذه ان أمنت مجانيـة التعليم : اذ ان ذلك يقتضي موارد لم تتوفر لميزانية الجماعة . ولكن العائلة قد ارتاحت مع ذلك ، بهذه الموازبة او تلك ، اقـله من جزء من العبء المالي الذي تحملته وحدها من ذي قبل .

اما مؤسسة الشباب الرسمية فقد كانت مجانية بالضرورة بسبب طابعهـا العسكري الأصلي . وهي قد اشتهرت في اثيـنا ، حيث نشأت على ما نرجح ، وتوصلت الى نفوذ عظيم واستقبلت الشبان من سن الثامنة عشرة حتى سن العشرين لتربيتهم تربية عسكرية . ولكن واجب الانتماء الى هذه المؤسسة الذي لم يكن إلزامياً ، على ما يبدو ، إلا خلال فترة قصيرة من النصف الثـاني من القرن الرابع ، قد زال وأهـمل : ولم يستمر في التقيد به سوى المتطوعين دون غيرهم ، أي بالتالي ابناء العائلات الميسورة. ثم تبدلت روح المؤسسة في العهد الهليني، فسمح للأجانب بالانتماء اليها . وحلّت فيها التمارين الرياضية في النهاية محل التمارين العسكرية . وظهرت في القرن الثاني المحاضرات الأدبية والفلسفية . فغدت المؤسسة ، من ثمّ ، بالنظر لسن الذين اختلفوا اليها ، ان لم يكن بالنظر للمستوى الفكري الذي بلغته ، شبيهة بالجامعات . وقد أُنشىء مثل هذه المؤسسة في مدن اخرى كثيرة غير أثينا، فكانت، شأنها في أثينا ، مجانية ايضاً ، باستثناء النفقـات التي فرضها العرف على الشبان المنتمين الى طبقة اجتماعية عليا .

لم يكن الاغريقي ليتصور التربية دون التدريب الرياضي الذي يجري في المتراوف . وكان الانتساب الى المتراوف بمثـابة شهادة في الحضارة اليونانية التي يتزين الشاب بها بكبرياء وطيلة ايام حياته ، لا سيما في مصر حيث حرصوا مبدئياً على اقصاء سكان البلاد عنها . ولكن المتراوف عدا اذ ذاك مؤسسة بلدية. فأصبح لكل مجموعة يونانية متراوف واحد على الاقل يشيّد ويعنى به على نفقتها ويراقبه قاض اختصاصي يطلق عليه اسم « حاكم المتراوف » . أما الاداره المالية ، ولا سيما تقديم الربوت للمصارعين ، فقد سهلتها عطايا الاثرياء السخية الذين لم يكن الملوك في المؤخرة منهم . فكان تقـديم الزيت او تأسيس وقف معد لتقديم الزيت « للمتراوف » او « للسُبان » احد الاشكال التي اتخذتها في غالب الاحيـان عادة شاملة في الكرم نحو المدن اي نحو مواطنيها اليونانيـين .

وقد بلغتنا ايضاً اخبار بعض الاوقاف المؤسسة للمدارس نفسها . وهكذا فان الرومـيين قد تفضلوا ـ مما جعل بوليب يلومهم « بالنظر لثروة دولتهم والمكانة التي تمتعوا بها بفضل هـذه الثروة ـ من احد الملوك الايطاليين هبة تواري ١٥٠ ٠٠٠ هكتوليتر من القمح : فكان عليهم ان يوظفوا المبلغ الذي يتجمع من البيع ويستعملوا فوائده السنوية لدفع اجور المعلمين. اما في بعض الامكنة الاخرى فكان الواهبون احراراً . ومن الطبيعي ان هذه الاعطيات قد استتبعت تعيين

المعلمين من قبل جماعة المواطنين التي كان لها الحق ايضاً في عزلهم . ولكن عدد مثل هـذه الهبات ، في ما يظهر ، قد بقي ضئيلاً جداً ، فاستمر اهالي الاولاد في دفع رسوم مدرسية . ولذلك فان المجهود الذي فرضه تعميم وتنمية التربية قد مثّل بالتالي تضحية حقيقية من قبل العائلات : وقد برهن الاغريق بقبولها – متذمرين احياناً ، كما نرى ذلك في إحدى مهازل هيروندا س الايمائية – عن الاهمية الكبرى التي اناطوها بديمومة حضارتهم .

افسحت هذه التربية مكاناً عريضاً للاهتمام بالتنمية الجسدية التي توفرها تمارين المتزاوف . بيد ان المباريات الرياضية القديمة قد استمرت ودخل بعضها في برامج اغلبية الاعياد المستحدثة الكثيرة : ففي جميع هذه الاعياد مثلاً اجريت امتحانات خاصة للفتيان والشبان . فغدت الرياضة اكثر من اي زمن مضى ، بعد ان جردت تدريجياً عن غايتها العسكرية ، جزءاً لا يتجزأ من تربية الاغريق ؛ وقد حفظ عنها اكثر من يافع طعمة دائمة .

اما على الصعيد الفكري فتظهر لنا الاطماع اليوم على كثير من التحديد . فليس هناك علوم، او ليس هناك سوى علوم قليلة . وقد اصيب رواج الموسيقى الآلية او الغناء الجوقي ، الذي كان كبيراً جداً في ما مضى ، بنكسة اسف لها المحافظون على التقاليد : واذا لم يعرف هذا الفن القائم بنفسه انحطاطاً اذ ذاك ، فانه قد غدا وقفاً على المحترفين . اما الملاحم الهوميروسية فكانت تقرأ وتعلّم وتلقى وتستنسخ دون انقطاع، كما تشهد بذلك مكتشفات لا تحصى بين البرديات المصرية، وبقيت في الاساس من تربية الولد: ونادراً ما تجاوز درس الشعراء هذا الحد . وفي آخر الدراسة كان الاهتمام يتحول الى علم البيان .

تفوّق علم البيان تفوقاً واضحاً فيما يجدر تسميته بالتعليم العالي. فهو بفعل تنوّعه، وعلى الرغم من تدريسه على يد معلمين ذائعي الشهرة احياناً ، ومن التخصص الصارم في قواعده ، قد بقي ناقصاً جداً . اما بين العلوم التطبيقية فقد انفرد الطب دون غيره في اجتذاب الطلاب الى مدارس شبه مقفلة على كل حال اشبه بالجمعيات الدينية من حيث هي ملحقة بمعابد اسكليبيوس . وخارج هذه المدارس، تلقى عامة مهنيي المستقبل علومهم على ايدي اطباء يمارسون مهنة الطب، اذ ان ممارسة هذا النشاط قد بقيت حرة تماماً . اما التقنيات الاخرى فلم تعلّم في اي مكان بسبب استمرار التقليد القديم الذي حرّمها لأنها تقود في النهاية الى نشاط تجاري. ولم تتمثل العلوم المجرّدة الا بالرياضيات وعلم الفلك ، وكان عدد المتخصصين فيها قليلا ، كما لم يتردد اليها سوى عدد قليل من التلامذة . اما الفلسفة فكان طلابها كثيرين ، مستفيدة في ذلك من النفوذ الذي نعمت به طيلة العهد الكلاسيكي ، لا سيما في اواخره ، بفضل افلاطون وارسطو . غير ان شغفاً عاماً دفع الشبان بالتفضيل نحو علم البيان الذي بلغ الشهرة في عهد السفسطيين اولاً وفي عهد خطباء القرن الرابع الاثينيين ثانياً الذين سبق لهم جميعهم ايضاً ان علموا الفصاحة . اجل لم يعد من شأنه ان يؤدي خدمات عملية كبرى ، بسبب انحطاط الحرية السياسية . ولكن نجاحه لم

يتميز عن نجاح تعليم ايزوقراط الذي مثّل علمُ الادب ، في نظره،الفلسفة الحقيقية ، لأنه يستلزم وضوحاً في الافكار وبرهنة سليمة وامتلاك فن الكلام الذي هو امتياز الاغريقي على البربري . وقد علم قواعد ، هي اشبه بـ « الوصفات » ، معتمداً ، في وقت واحـــد ، التعليم النظري ، ودراسة روائع الفصاحة الاتيكية ، واجراء التمارين على مواضيع خياليـــة لم تلبث ان ألّفت مستودعاً كبيراً . فافضى الى تثقيف عقول رشيقة اتصلت بالمُثل العامة،لا سيما في الحقل الاخلاقي، وقابلة لأن تقيم البرهان بفن ، ودون تصنع ، في شتى المواضيع، ومتوخية، عند الحاجة ، حتى التوصل الى النتائج المتناقضة .

قد يبدو ذلك اليوم موجزاً وسطحياً . ولكنه طابق مثلاً اعلى للانسان المثقف المعد جسدياً وعقلياً للتكيف وفاقاً لشتى المهام التي قد تفرضها عليه الحياة . وقد استمر هذا المثل ، دون تبدل يذكر ، حتى آخر العصور القديمة . ويعود الفضل الى الحضارة الهاينية في توضيح مفهومه وجعله سهل المنال بتشييد نظام تربوي متلاحم الاجزاء .

نصرة الآداب والفنون ومؤسسات الأبحـــاث

ما كانت الثقافة المنتشرة هذا الانتشار لتتجاوز ثقافة وسطاً ؛ ومن جهة ثانية ، ما كانت الثقـــافة التي احدثت ورسخت سوى تراث الاساتذة العظماء . اما التقدم الفكري الحقيقي فقـــد تمّ على مستويات اخرى بالبحث الخلاق الذي تعهدته نخبة معينة . لم يخل العالم اليوناني يوماً من هذه النخبة التي وجدت إذ ذاك لدى الملكيات الكبرى عضداً مادياً وأدبياً معاً من نوع جديد . وهنالك مؤسستان شهيرتان، المتحف ودار الكتب، هما افضل مثل عن نصرة الملوك للآداب والفنون وعن التسهيلات التي وفرتها لانطلاقة الحركة الفكرية . غير انهما لم تكونا المؤسستين الوحيدتين في العالم الهليني .

المتحف ، بالتحديد ، هو معبـد آلهات الفنون الحرة التي كان من الطبيعي ان تحظى باكرام رجـال الفكر . فخصص لهن مذبح على الأقل في حدائق« الاكاديميـــة » (المجمع العلمي) و « الليسّه » (المدرسة) حيث علّم افلاطون وارسطو في اثينا . ثم أسس اصدقاء ومعـــاونو وتلامذة هذين الفيلسوفين جمعيات استهدفت رسمياً تنظيم العبادة ، على انها استهدفت في الواقع تأمين ديمومة هذه المدارس التي كانت في الوقت نفسه معاهد ابحاث ، بشراء وصيانة العقارات . وقدمت الدولة الأثينيـــة في أواخر القرن الثالث، برئاسة الفيلسوف ديمتريوس الفاليري ، الذي سبق له واسهم في اعمال خلفاء ارسطو ، كل التسهيلات اللازمة عـلى الصعيد القانوني ، دون ان تقدم مساعدتها المالية .

يرجح ان ديمتريوس الفاليري الذي حكم عليه بالنفي والتجأ الى بطليموس الاول في مصر قد اقترح على هذا الأخير انشاء مؤسسة شبيهة ، على ما فيهـــا من اختلاف بيّن. فتلقى متحف الاسكندرية من الملك مساعدات اكبر ، ولكنه ارتبط ، بالمقابلة ، بالذي احسن اليه . وعوضاً عن ان يكون معهد فلسفة ينشر تعليماً ويتعمق فيه ، فانه قد غدا مجمعاً لكتبة وعلماء يعينهم

الملك ويعيّن رئيسهم ايضاً . ووضعت تحت تصرفهم ابنية مختلفة قائمة على مقربة من القصر معدّة لحياتهم المشتركة ولنشاطهم . وتعهدت الخزانة الملكية كافة النفقات ، فاستطاع الكتبة والعلماء ان يكرسوا وقتهم للأبحاث دونما اهتمام للماديات او لأي واجب آخر . فكرسوا في الواقع وقتهم لمناقشاتهم ايضاً التي سخر منها بعض الهجّائين ، بدافع الحسد على الأزجج ، بكلامهم عن « معجون الطيور الذي يوزع بسخاء على العديد من كتبة الدرجة الثانية وأكلة الكتب القديمة التي لا قيمة لها الذين يتخاصمون دونما انقطاع في قفص آلهات الوحي ». وكرّسوه احياناً حتى لمجادلاتهم مع البلاط التي كانت السبب ، في القرن الثاني ، في تفرقهم المؤقت . وكانت هذه المؤسسة لا تزال قائمة في القرن الرابع الميلادي ، متحولة الى جامعة على كل حال ، إذ ان أعضاءها كانوا يعلّمون رهطاً من التلامذة .

وقامت في الاسكندرية ، على مقربة من المتحف ، مؤسسات ملكية اخرى سهّلت عمل العلماء : حديقة الحيوانات ، وحديقة النباتات ، ودار الكتب بنوع خاص . اما هذه الاخيرة التي أسسها بطليموس الاول ، على مقربة من القصر ايضاً ، فقد أنمت مجموعاتها انماء مطرداً بأن اشترت ، في جميع انحاء العالم اليوناني ، المخطوطات المعروضة للبيع وبتنظيم استنساخ المخطوطات الاخرى . وقد سهّل ذلك انتاج البردي الذي كان وقفاً على مصر تقريباً . فبلغت محتوياتها ، منذ السنة ٢٨٥ ، على ذمة الرواة ، ٢٠٠ ٠٠٠ « مجلد » اي لفافة من البردي ، و ٧٠٠ ٠٠٠ في السنة ٤٨ قبل المسيح ، حين شبّ فيها حريق في ايام قيصر فأتى على جزء منها . وكان هنالك بالاضافة الى هذا العدد ، حوالى ٥٠ ٠٠٠ مجلد في دار كتب ثانية كانت منذ بطليموس الثاني ملحقة بمعبد سيرابيس . وقد عين الملك لدار الكتب موظفين كثيرين دفع لهم اجورهم : فتسلّم أمانتها شعراء من امثال ابولونيوس الرودسي وعلماء من امثال ايراتوستينوس .

حذت سلالات اخرى حذو اللاجيين الاولين . ولكن تحقيقاتها لم تبلغ مثل هذه الاهمية وهذه العظمة . ولم تؤسس واحدة منها متحفاً آخر : وليس ما أطلق عليه هذا الاسم في عهد متأخر ، أي في ايام الامبراطورية الرومانية ، سوى مؤسسات بلدية للتعليم العالي . غير ان جميع البلاطات قد حاولت ، عن طريق الفوائد المادية ، اجتذاب الكتبة والفلاسفة والعلماء . أضف الى ذلك ان بعض الملوك أسسوا وتعهدوا دوراً للكتب أيضاً . فكان للسلوقيين مكتبتهم في انطاكية ، عاصمتهم السورية . ولكن اهم مكتبة قامت في برغاموس ، وقد أنماها الاطاليون إنماء مطرداً أيضاً : وعلى الرغم من ان البرديات ما زالت اكثر المواد استعمالاً ، فلا يمكننا هنا إلا ان نذكر بالجلد « البرغاموسي » الذي اشتق منه اسم (*Parchemin* الرق) والذي لم يكن اختراعه ، من جهة ثانية ، لا اكتشافاً ولا احتكاراً برغاموسياً . وكانت مجموعات هذه المكتبة قد بلغت ٢٠٠ ٠٠٠ مجلد حين أهداها انطونيوس لكليوباتره تعويضاً عن الاضرار التي لحقت بمكتبة الاسكندرية بفعل الحريق .

لم تكن نصرة عظماء هذه الارض شيئاً جديداً: فقد سبق لمستبدي العهد القديم ان تعهدوها. اما الشيء الجديد فكان هذه الطريقة في فهمها وممارستها اي في وضع وسائل العمل والبحث تحت تصرف المستفيدين منها . ولا يكفي احترام الشؤون الفكرية ، المنزه عن كل غـــاية ، لتبرير تضحيات الملوك المالية . ولكن المجد الباطل وحده لا يكفي لذلك ايضاً ، في حال ان الاهميـــة السياسية المولاة لتوجيه الدراسات العليا ليست موضوع بحث . اجل لقد ادخلت بذلـك وثبة نافذة على بعض الابحاث التي كانت مستحيلة بدون هذه المؤسسات والتي ولدت من وجودها وكان لها أثرها على الحركة الفكرية في مجموعها . ولكن هذه الابحاث ، بحد ذاتها ، بقيت عادمة الاثر سياسياً ولم يكن باستطاعتها خدمة المثالية والبرنامج الملكيين .

٣ – الشغف الفكري والروح العلمية

الألسنية والعلم الواسع

ان المقصود في الدرجة الاولى هو ما نعرّف عنـــه اليوم بالالسنية والعلم الواسع .

استلزم جمع المخطوطات تنسيقها ودعا لمقاربتها ولاختيار افضل الدروس ولتوضيح النصوص بكل ما من شأنه ان يسهل فهمها . وكان هذا الجمع والبحث والتعليق متفقاً والطرائق التي سبق لارسطو ومعاونيه ان اعتمدوها . اما انشاء دور الكتب ، ان هو جعل هذا العمل اشد الحاحاً ، فانه قد بسّطه ايضاً بجمعه قسماً من المواد اللازمة للمقارنة وجمع المعلومات وجعلها في متناول اليد . وقد قام بهذا العمل رجال من الطراز الاول ، فكرس له بعضهم كل نشاطهم واشتهر بعضهم الآخر ، من امثال كليماخوس وايراتوستينوس ، في حقول اخرى ايضاً .

من نافل القول انهم انقطعوا بالتفضيل الى الملاحم الهوميروسية التي افضت اهميتها في الحياة المدرسية وفي ثقافة الاغريق العامة الى الاكثار من نسخها المغلوط فيها او المحشوة بالتذييلات في اكثر الاحيان والتي جعلت في الوقت نفسه الحاجة الى التوضيح امراً ملحاً . فأنجز عمـــل عظيم جداً بنشاط ومعرفة ، وذوق سليم غالباً ، يثير الاعجاب : فانتهى الشرح الالسني الى النقـــد الادبي . وغدا اسم احد امناء دار الكتب في الاسكندرية ، ارسطارخوس ، اسطوريا من هذا القبيل : وان ما نقراءاه من مؤلفاته المندثرة ، في « دروس الندوات » المتـــأخرة ، لينمّ عن ألمعيته الفائقة ؛ فهو انما أثار معاضل كثيرة لا يزال العلماء المكبون على دراسة هوميروس يحاولون حلّها ، غير قادرين على اهمال شكوكه واحكامه .

يمكن القول نفسه عن الخطب ، بسبب الاهمية المولاة لعلم البيـــان ، وعن نصوص اخرى كثيرة . وقد وضعت اذ ذاك – ولعب ارسطارخوس فيهـــا دوراً كبيراً – « القوانين » الاسكندرية ، اي مجموعات المؤلفين المعتبرين قدوة يقتدى بها ومجموعات مؤلفـــاتهم التي اعتبرت اصلية . ونحن مدينون لهذه الجهود التي لم تعرف الكلـل ليس بالمحافظة على نصوص صحيحة جهد

المستطاع فحسب ، بل بتعليقات تجلو غموض مقاطع كثيرة . فقد وضع كلياخوس وحده ١٢٠ « مجلداً » تؤلف جدولاً بكل الادب اليوناني كما تمثل في ايامه في المكتبة الاسكندرية ، مورداً فيها نبذة تاريخية عن حياة كل مؤلف ولائحة بمؤلفاته ومعلومات تاريخية عنها . ثم اكمل خلفاؤه هذا الجدول .

قادت مثل هذه الابحاث بصورة حتمية الى دراسات نظرية وعملية في علم البيان وعلم الصرف والنحو وفقه اللغة وعلم تاريخ الازمنة . وقد يتطلب تعداد الاسماء الجديرة بالذكر ، في هذا المجال ، صفحات كاملة . فانتهل رواد الندوات في العهدين الروماني والبيزنطي باستمرار ، مما جمعه هؤلاء المؤلفون بفضل عملهم الجليد ، معلومات ذات قيمة عظيمة ، مضيفين اليها احياناً ملاحظات واخطاء شخصية . ولنكتف باسم واحد هو احد اعظم الاسماء ان لم يكن اشهرها من غير الاختصاصيين : ديديموس الاسكندري ، معاصر شيشرون وقيصر — اذ ان انطلاقة اوائل العهد الهليني قد دامت طويلاً . ان هذا الرجل ، الذي لقب بـ « ذي الاحشاء القلزية » ، بسبب طول أناته في التهام الكتب وتأليفها ، قد وضع ٣٥٠٠ « مجلد » طرق فيها شتى المواضيع التي واجهها في معالجة النصوص . فلا يجوز ان نستهزىء بهذا الجامع الجموح الجريء في وضع واستخدام البطاقات ، لأن مجموعاته التي لا تخلو من الحشو والتطويل ، تحتوي على ما هو حسن لا بل ما هو جيّد احياناً . وقد كرّست ثلاثة من كتبه لخطب ديموستينس ضد فيلبوس ، وكان من شأن اكتشاف بردي دونت فيه مقاطع هامة من احد هذه الكتب المحتوي على التعليق التاريخي ، ان سجّل ، بصدد معاضل سياسة أثينا الخارجية في القرن الرابع ، حدثاً هاماً في علم التاريخ المعاصر .

لقد غدا تقليدياً ان يجمع هؤلاء العلماء الواسعو الاطلاع تحت اسم « الاسكندريين » . بيد ان نزعاتهم الفكرية لا تؤلف كل ما غدا تقليدياً أيضاً ان يعرف عنه بـ « المدرسة الاسكندرية » . اضف الى ذلك انهم لم يعيشوا كلهم في الاسكندرية وان بعضهم لم يقيموا فيها قط ؛ ولا يجوز ان ننسى ظلماً ان كراتيس العظيم ، الذي نشأ في مالوس في كيليكيا ، قد كان ، في القرن الثاني ، أمين مكتبة برغاموس ومقرباً من البلاط الاتالي . وليس من ريب مع ذلك في ان علماء الاسكندرية كانوا اكثر عدداً واوفر انتاجاً ، وبالتالي أعظم تأثيراً ايضاً : فإليهم يعود الفضل في إعطاء المثل وابتكار النهج . ولكن عملهم لم يخل من الصغارة التي برزت في منافساتهم حتى الداخلية . وكان لثقافتهم ، الكتبية الى حد بعيد ، مساوئها أيضاً . ولعل اخطر المساوىء ان هؤلاء العلماء الواسعي الاطلاع ، قد أوجدوا ، بجعلهم من كتب العهد الماضي أمثلة لا يعلى عليها ، وبحصر الطموح المعقول في الاقتراب منها ، تياراً معداً لأن يسود تدريجياً : هو تيار الاحتذاء أو بالاحرى التنظيم الذي جعل من التلقائية طرائق فشلّ بذلك الالهام الأصلي . فكانت النتائج شبيهة بتلك التي لمسناها في الفن ، إذ ان الحياة الفكرية قد تأثرت بالجفاف الذي أوجده الاعجاب المفرط بروائع الماضي والذي كبح الجموح الخلاق . اضف الى ذلك ان المؤلفات الكلاسيكية

الكبرى نفسها قد فقدت من نضارتها وقوتها المباشرة : فقدر لقراءة التعليق او الخلاصة ، او المنتخبات أحياناً ، ان تحلّ ، او انها حلّت فيما بعد ، مكان الاصل . ولكن هذه الملاحظات الانتقادية ابعد من ان تنسينا أهمية الخدمات المؤداة واتساع معارف الكثيرين من هؤلاء الباحثين وشأن الطرائق التي ثبتت صفتها العلمية — العمل الجماعي واستخدام البطاقات ووضع المراجع ؛ وملاحظة الوقائع بدقة ودرس ملابساتها والتأمل في كلّ منها لاستخلاص القوانين — والتي أتقنوها وطبقوها على الشؤون الادبية . ولم يحل شيء من هذا مبدئياً دون سلامة الذوق ورقة الحاشية اللتين احسن كبار المؤلفين التعبير عنهما، هكذا أدركت وطبقت مبادىء «المدرسة الاسكندرية» التي مثلت ثورة في الحياة الفكرية والتي لا نزال نتأثر بنتائجها حتى ايامنا هذه . فما كانت عبقرية الاغريق الخلاقة لتموت بموت حريتهم السياسية ، وما كان دورهم كمربي الانسانية ، حتى في مستقبل بعيد ، لينتهي بانتهائها .

التاريخ

نشطت البحوث التاريخية مؤقتاً نشاطاً نادراً جداً بفعل الروابط الوثيقة التي تجمع بين الاطلاع الواسع والتاريخ : فإن موجبات الشغف الفكري والروح النقدية هي هي سواء تناولت فقه اللغة ، او العلم ، او التاريخ . وان جهود المعلقين في كشف وإجلاء كنايات المؤلفات الادبية ، التي تتأصل في زمانهم ، قد قادتهم الى بحوث حول الماضي . ثم ما هي السبيل لفهم مؤلف ما دون الاستعلام عن حياة وأفعال وبيئة مؤلفه ؟ فقد سبق لارسطو وتلاميذه ان اعطوا المثل في بحوث دقيقة ونظامية تناولت كافة الحقول ، فانتهوا الى وضع كتب خصوصية ، أشبه بجداول للوقائع أحياناً ، يؤلف « دستور الاثينيين » افضل نموذج عنها في الحقل التاريخي. وتمشيا على الطريقة نفسها وانسجاماً مع الروح نفسها، —لأن الكثيرين منهم انتسبوا الى المدرسة المشائية التي أسسها ارسطو — كان عدد رجال البحث مرتفعاً جداً طيلة العهد الهليني . لا بل ان بعضهم وضعوا مجرد مجموعات من الوثائق والمراسلات والمراسيم. وانكب غيرهم بعناد على معاضل التاريخ التي من شأن حلها وحده ، قبل أي شيء آخر ، ان يوفر هيكلاً متيناً . ولم يكن هذا التعمق التقني ، من جهة ثانية، ليسجن القائم به في تخصص ضيق لأن واحداً لم يفقد الشعور بتعقد الظاهرات الفردية او الجماعية وعللها . وعلى نقيض ذلك فقد تقدم التحليل السيكولوجي تقدماً مطرداً ، ولم تحتل قط دراسات الجغرافيا الوصفية ، التي توفر المعلومات حول الاخلاق والميزات المحلية وتوضح المسافات والموارد ، ما احتلته إذ ذاك من مكانة مرموقة . وهكذا فان العلوم الثانوية المساعدة قد جمعت المواد للمؤرخ ، من كل الجهات ، وسهلت مهمته الخاصة .

وكان هنالك ، للاهتمام بالتاريخ في مفهومه العلمي ، بالاضافة الى اوساط ذوي الاطلاع الواسع ، جمهور كبير تؤلفه تلك البورجوازية الوسطى التي كثيراً ما أتينا على ذكرها . فان انتشارها قد اكثر من القراء الراغبين في الاستطلاع والتفكير وأوجد في الوقت نفسه رأياً عاماً أقل انقساماً منه في الماضي بفعل تخوم المدن. فازدادت الدعاوة السياسية، التي اعتُمدت منذ زمن

يعيد ، واذا ما اتخذت هذه الدعاوة غالباً أشكالاً لا تتفق مع التاريخ ، فعلينا ان نرى في ذلك شهادة في القوة الفكرية التي تمتع بها من استهدفتهم هذه الدعاوة . وهكذا نشأ مثلاً نمط جديد هو نمط المذكرات التي وضعت كمذكرات او كروايات للأحداث العظيمة التي اشترك فيها المؤلف. فظهر كثير منها حول حملة الاسكندر ، لا سيما مذكرات الملك بطليموس الأول . ثم أصدر رجال دولة آخرون مذكراتهم ايضاً: الأثيني ديمتريوس الفاليري، وبيروس ملك الأبير، وأراتوس الحاكم الرئيسي في الاتحاد الآخي ، في القرن الثالث. ولكن مشاغل البورجوازيين وذوي الاطلاع الواسع ، في حقل الثقافة ، قد توافقت في غير هذا الاهتمام بالتاريخ السياسي . فمن حيث انتماء الاغريق الى حضارة حاولت جاهدة المحافظة على سلامتها امام الحضارات الشرقية ، كان من الطبيعي ان يعيروا اهتماماً متزايداً ، حتى في الماضي ، لمظاهر هذه الحضارة التي أوحت لهم المزيد من العُجب الحلال . فلمعت من ثم اضواء جديدة في الحركة التاريخية آنذاك وظهرت وتقدّمت دراسات جديدة كرّست للتطور الفكري او الفني . وكان لذلك مغزاه الكبير ، أقله ضمنياً : فان جعل التاريخ يقوم بمهمة نقل وتعليل احداث الحياة الفكرية كان معناه ان هذه الحياة ، في نظر الشعب ، توازي في اهميتها منازعات الدول ؛ وان مفكراً كبيراً او فناناً كبيراً يوازي رجلاً سياسياً او قائداً عسكريا . وهكذا فان التاريخ — وهذا في الغالب دوره العملي ، إن لم يكن دوره المثالي — قد اسهم في ان قوّى ، بواسطة هيكل داخلي ، الشعور القومي او ما يقوم مقامه ، اي وحدة اناس تشدهم ، فوق الحدود ، لغة واحدة وتفكير منطقي واحد وتربية فكرية واحدة ، واذواق واحدة ، اي ، بكلمة موجزة ، وحدتهم الأدبية .

كل هذا يفسر قوة العمل المنجز آنذاك والاستقبال الطيب الذي صادفه ، وبكلمة موجزة ، تقدم الشغف التاريخي الذي هو الشرط الاول لتقدم التاريخ . بيد انه بقي بعيد المنال . فقد احتوت مجموعات الرسائل كثيراً من الزيف ، حتى المفتضح احياناً ، ويواجه النقد في ايامنا ، اكثر من مرة ، مشكلة الحكم في صحة المقاطع الاخرى التي يشك فيها كثيراً . ويصح القول نفسه في مجموعات المراسيم التي لم تصل الينا على كل حال ويبدو انها لم تكن كثيرة العدد : وقد يستهويا ان توجه اللوم لذوي الاطلاع الواسع في ذاك العهد لأنهم لم يلجأوا إلا نادراً الى مستندات المحفوظات ، او اقله الى الكتابات التي عرضت عدداً كبيراً منها على مرأى الجماهير . وقد أدخلت المذكرات ، بفعل تحديدها نفسه ، تشويهاً دفاعياً على الوقائع واسبابها الحقيقية . وأثر علم البيان، بصورة حتمية، في المؤرخين ، حتى ان الخطب التي استمروا في نسبتها الى بعض الاشخاص لم يكن لها ما يبررها ، كما هي الحال عند توسيديد ، اجمال حالة عامة او عرض اسباب قرار ما : فغدت في اغلب الاحيان قطعاً صنعية جوفاء للأبهة فقط. ثم ان السعي وراء الأثر التصويري او المسرحي الخليق بأن يسلّي القراء او يشجيهم قد جعل من الانتاج التاريخي انتاجاً أدبياً بمعناه الازدرائي .

غير ان الرصيد الاجمالي ، مع كل ذلك ، يبقى ايجابياً الى حدّ بعيد . فقد ادخل النظام على

التأريخ القديم ، عن طريق البحث عن تواقت ولاية الملوك او القضاة ، في اللوائح المحلية : فنفذ ايراتوستينوس على هذا الصعيد عملاً مجيداً وكان له الفضل في التأكيد ان التاريخ اليوناني ، قبل الشروع بوضع لائحة الفائزين الاولمبيين ، في السنة ٧٧٦ ، يفتقر الى الاروم . وقد ازدادت دراسات التخصص . فعلى غرار أثينا ، استمالت سبارطة ودولا اخرى او مناطق اخرى من اليونان عدداً من الباحثين الشغفين بأصلهم وبماضيهم . ووضع عيرهم التراجم ، وهي لون جديد ، تأثر الى حدّ بعيد بالتقريظ الخطابي الذي نشأ عنه . ووضعت تواريخ للفن وللعلوم المختلفة والفلسفة والأدب : فمن اغرب الدلائل على سعة اطلاع بعض رجال ذاك العهد ان احد النقاشين الذين سبق لهم واشتغلوا في برغاموس ، انتيغونس الكاريستي (من جزيرة اوبيا) ، قد ألّف ايضاً تاريخاً للفن وتاريخاً لاهم الفلاسفة منذ ارسطو . ثم اقتضى بعد هذا كله القيام بمحاولة تأليفية في وصع تاريخ للحضارة : فكيف لا نذكر اسم ديكيارخوس المسيني الذي كان الاول في الاقدام على هذه المحاولة ، باسم « حياة اليونان » ، غير متورع من الارتقاء الى ابعد الأزمنة رسوخاً في القدم ؟

لم نأت ، عن قصد ، على ذكر اسماء كثيرة ، على الرغم من وفرة ما نعرفه منها ، وحتى من المجد الذي أحاط ببعضها في العصور القديمة . فهي ليست جميعها في الحقيقة سوى عناوين لمؤلفات مفقودة ، او لمؤلفات لم يبق منها ، في احسن الحالات ، سوى مقاطع صغيرة جداً . وليس من شك في ان ما حققه المؤرخون الهلينيون كان عظيماً ، ولكنه اهم ، مادياً ، واضعف ، أدبياً ، من ان تنقلها الينا الاجيال اللاحقة . فقد اكتفت هذه الاجيال بأن انتهلت منه ، لأن كل ما كان بالامكان عمله لجمع ذكريات الماضي والحيلولة دون ضياعها قد انجز عملياً في هذا العهد. وقد استفاد المؤرخون واللغويون وغيرهم فيما بعد ، دونما ملل ، مما غدا ملكاً مشتركاً . وها نحن ننتهل اليوم ، بواسطتهم ، من هذا الملك المشترك نفسه ، سعداء بانهم أشاروا احياناً الى المصادر او اقتطعوا بعض الاستشهادات .

فشاءت الصدف مع ذلك ان يصلنا قسم كبير من مؤلفات بوليب . ولكن هذا الواقع ليس وحده ما يرغمنا على اعتبار بوليب خير مؤرخ في هذه القرون الثلاثة .

لجأ في اسلوبه الأدبي الى صياغة الكلام وفاقاً للطريقة الرسمية آنذاك التي يزيد من ارتباكها ما تنطوي عليه من تعابير مجرّدة وصيغ بطيئة . وكثيراً ما تناول موضوع الاخلاق معتمداً في ذلك قواعد اخلاقية غير شاملة أملتها على كل حال مفاهيم فلسفية تطورت ولم يجهد هو ، او لم يتسع له الوقت ، للتوفيق بينها . وقد اتبع في عرض موضوعه تصميماً صارماً ، سنة فسنة ، ومنطقة فمنطقة ، وفاقاً لنظام جغرافي معين. وشغف بفن الحرب فوجد لذة خاصة في سرد تفاصيل الهجمات المفاجئة . بيد ان الدقة التي تباهى بها لم تكن إلا ظاهرة احياناً ، وعلى الرغم من تأكيداته ومن امتيازه عادة عن المصادر الاخرى ، فانه لم يخل قط من الخطأ والتحيز . فقد

صدرت عنه هفوات عرضية عموماً وخطيرة احياناً حتى في موضوع جغرافية البلدان التي زارها مثلاً . ولم يتمكن من ان يتجرد من مواطنيته الآخية وبورجوازيته الآخية وحتى انتمائه الى فئة من فئات البورجوازية الآخية .

ولكن هذه النقائص تتلاشى امام صفاته . فان نظريته في التاريخ ، التي لم يأل جهداً في عرضها واتقانها واعادة النظر فيها ، قد أصبحت نظرية علمية . اراد اللجوء الى جميع مصادر الاستطلاع بما فيها الدرس الشخصي للبلاد وحتى لمنطقة معينة فيها . واراد تاريخاً لا يكون صحيحاً ودقيقاً فحسب ، بل « عملياً » ايضاً ، اي قميناً بتربية الانسان النشيط الذي لم يميزه عن الانسان الثاقب المصمم على تعليل عمله المباشر واكتشاف المعنى الكامن في سلسلة من الاحداث . فقد اعترضته اذن معضلة الاسباب ، واذا هو لم يتمكن طيلة حياته كمؤلف ، وبالتالي في جميع مؤلفاته ، من السير في المنطق البشري حتى اقصاء الاثر الإلهي — اي اثر إله الحظ — فانه لم يلجأ اليه كتفسير يائس ، لأن الصلة الوثيقة ، في تعاقب الاحداث ، بين العلل الطبيعية ومعلولاتها ، كانت موضوع بحثه المستمر . ولم يكتف بالظواهر ولم يتأثر بمجادلات الدعاوات المتقابلة ، بل دعا الى التمييز ، وميّز هو نفسه ، بين الاسباب البعيدة والاسباب القريبة والحجج التي تخفي الاسباب الحقيقية . وادرك معنى تطور المجتمعات حتى بلغ منه ان توصل الى نظرية « دورية » تتعاقب بموجبها الملكية والارستوقراطية والديموقراطية وتؤدي حتماً في هذا المجال من واحدة الى اخرى لأنها ، كلها ، تفسد حتماً عند التطبيق . وهو لم يبتكر كل هذا ابتكاراً على كل حال ، لأن هذا الرجل الرفيع الثقافة قد نقل ما جاء به عن الفلاسفة وواضعي النظريات الذين سبقوه ، دون ان يتوصل الى نظام متلاحم جداً . ولكن واحداً غيره لم يفكر بمثل هذا الحزم في ان يستخلص ، مما نقله ، النتائج لدراسة التاريخ .

اضف الى ذلك ان الفضل يعود له ، من حيث انه عاش طيلة الارباع الثلاثة الاولى من القرن الثاني ، في انه ادرك الاهمية العامة التي انطوت عليها الاحداث التي شاهدها او لعب فيها دوراً ثانوياً احياناً وصمم على درسها كمجموع . وقد حدمته مصائب حياته نفسها في هذا الدرس . فقد ارغم على ان يعيش ١٧ سنة منفيا في ايطاليا حيث تقرب الى شيبيون اميليانوس وتعرف الى الاوساط الحاكمة في روما ، فاستطاع من ثم في روما ، لا ان يجمع جزءاً كبيراً من مستنداته فحسب ، بل ان يتأمل في الاحداث المتفرقة ويجد الصلة القائمة بينها . وهكذا اتصحت له هذه الحقيقة التي شاهد حيله تحقيقها ، بين السنة ٢١٨ والسنة ١٦٨ اولا ، وبين السنة ١٤٦ والسنة ١٣٣ ثانياً وبصورة اكمل ، اعني بها وحدة العالم المتوسطي تحت سيطرة روما . ولمح اهمية تلك الثورة السياسية والعسكرية التي انتزعت من الاغريق لا استقلالهم فحسب بل فهمهم للعالم نفسه والمقياس الذي قاسوه به ، لأنها قد اثبتت لهم ضيق الآفاق التي عاشوا فيها وحقارة تحقيقات كافة الفاتحين الذين تمكنوا من معرفتهم ، بعد ان كانوا يعتبرونها بعيدة وعظيمة جداً . فان

الامبراطورية العالمية التي اكتفى اعظم الرجال بأن يحلموا بها كانت في طريق التحيز امام ناظري البورجوازي الآخي الذي احفظـــه الثورويون السبارطيون والمستلبون الايتوليون . وهو قد آمن بحتمية مراحلها الاخيرة لأنه استحال عليه التفكير بأن الفارتيين سيستولون على شطر كبير من تراث الاسكندر الاقليمي . بيد انه ادرك ترابط الاحداث ولمس من نفسه القدرة على تحديد عللها . فأخذ على نفسه اذ ذاك ان يبين ، وفاقاً لتحديده الخاص ، « كيف وبفعل اي نظـــام حصلت السيطرة على كل الارض المأهولة تقريبـــاً التي امست — وهذا حدث فريد من نوعه — ملك امبراطورية واحدة هي امبراطورية روما » . ولعل خير اكرام يجب تأديته لبوليب هو الاعتراف بأنه ، بعد تصميم هذا المشروع العظيم ، لم يكن دونه مستوى .

النقدم العلمي والتقدم التمي

في الاشكال الجديدة للحياة الفكرية ، اي فقه اللغـــة والعلم الواسع وحتى الدراسات التاريخية الى حد بعيد ، يبرز اثر الروح العلمية . وقد برزت هذه الروح ابداً في ما مضى ؛ ولكن الجدة في دورها النافذ السريع واعتماد طرائقها في ما كان متعلقاً من قبل بالادب حين يفكر احـــدهم بالاهتمام له . ومن الطبيعي انها اوحت باستمرار الابحاث العلمية التقليدية التي ساعد شمول التغنب الفكري والانعامـــات الملكية على مواصلتها بنشاط وسهولة متزايدة ، وقد احتلت الاسكندرية ابـــداً ، في هذا الحقل ، المركز الاول لأن ملوكها تفوقوا على غيرهم ثروة وكرماً . ولذلك فان الطابع الازدرائي الذي ارتداه اسم « المدرسة الاسكندرية » في الكلام الدارج لا مبرّر له في كافة الحقول تقريباً : ولا مبرر له في هذا الحقل بنوع خاص . وان اسم ايراتوستينوس وحده لكاف لاقصاء تهمة الانحطاط الموجهة الى الحركة الفكرية التي ازدهرت آنئذ بازاء قصور اللاجبين . ويكفي لذلك ايضـــاً ان تشريح حشث الموتى قد اجري فيها لأول مرة بصورة صحيحة . فقد اقتضى لذلك جرأة استقصاء وتجهيز مواد لم يعرفا كلاهما من قبل .

بفضل هذه الظروف المؤاتية احرزت بحوث العلماء نجاحات تلفت الانظار . ومما يدعو الى الدهشة هنا ، كما في جميع العصور القديمة ، ان هذه النجاحات العلمية لم تؤد الا الى القليل القليل من التطبيقات العملية . فما زال الاهتمام بهذه الاخيرة معتبراً دون شأن العالم ومقامه . بيد ان الطب وحده قد نجا من هذا الحكم الذي ليس من المعقول ، في الحقيقة ، ان يصدر عليه . ولكن ارخميدس لم يرض الا في ظروف استثنائية بالقيام بأعمال المهندسين . فهو لم ينزل مركبـاً الى البحر ، بواسطة جمهار من المكر والعتل ، الا اكرامـاً للملك السيراكوزي ، هيرون الثاني ، وبعد ان نسب اليه العجز عن تحقيق ذلـــك ؛ ولم يصمّم الآلات المدهشة الا سعياً وراء فك الحصار عن سيراكوزا . وكان كل ذلك في نظره ، كما يؤكد بلوتارك ، « لعباً هندسية تلهّى بهـا لتمضية الوقت » . فتفسر هذه العقلية تأخر « الفنون الآلية » التي لا تتطلبها سوى الحاجـــات الحربية تقريباً والتي تستلزم التجربة والاختبار . اجل لقـــد صنعت مراكب ضخمة ؛ ولكن

المركب الجبار « سيراكوزيا » الذي كان يتسع لثلاثة آلاف طن من البضائع ، ولستمائة بحار وثلاثمائة جندي ينعمون فيه براحة تامة ، تخلص منه هيرون الثاني باهدائه لأحد اللاجيين ، بعد ان اتضح له عدم جدواه .

يجب في الحقيقة ان لا ننظر الى نتائج هذا التلمس المتردد بعين الاحتقار . وقد اقتصرت العصور القديمة حتى بيزنطية على نقل او تطبيق التحقيقات الهلينية . ولم تحرز تقنية صناعة السفن اي تقدم بين ايدي الرومان ، لا بل انها ما لبثت ان اقصرت طموحها على طراز الـ « تريريم » التي لا تختلف عن « تريير » الاغريق في القرن الخامس ، مع انهم صنعوا سفناً افضل منها منذ القرن الرابع ، ولاسيما في مستهل العهد الهليني ؛ ومرد ذلك الى ان روما ، بعد ان انهت فتوحاتها ، لم تصطدم بأية قوة بحرية كبيرة . وقد احرز الشرق الهليني نجاحات فائقة في حقل تجهيز المرافىء ، لا سيما في الاسكندرية حيث لم يكن برج فاروس سوى العنصر الاهم في مجموعة بقيت زمناً طويلاً دون منافس . وشيد هيرون الاسكندري بعد ذلك مسرحاً للتماثيل المتحركة ، وموزعين وحجاباً آليين ؛ وابتكر « فستقية » — تلك التي سيعرضها جان جاك روسو امام الفلاحين السافويين — توصل الى استخدام قوة البخار فيها . احل لم تكن كل هذه الابتكارات سوى مجرّد ألاعٍ او بالاحرى حيل تتيح لبعض السحرة — المشعوذين استثمار سرعة التصديق المفرطة عند الشعب . ولكن تحققت اكتشافات مفيدة ايضاً . فقد استخدم لولب لا نهاية له ، اخترعه ارخميدس ، لتجفيف قعر السفن والاراضي المصرية بعد الفيضان . واكتشفت المطحنة المائية ، فحث احد الشعراء ربات البيوت على التضحي في نومهن لأن عرائس الينابيع اخذت على نفسها القيام بعملهن ؛ ولكن استخدام هذه الآلة العجيبة كان أبعد من ان يصبح عاماً . وان ما يلفت النظر بالتالي هو انه لم يتحقق سوى حد ادنى من تخفيف الشقاء البشري . اما الافتراض الذي افترضه ارسطو والذي بدا له غير قابل التحقيق على كل حال — « لو ان كل آلة تنفذ مهمتها بناء على أمر او اشارة ... ولو ان المكوك يسج وحده والمضرب يعزف وحده على القيثارة ، لاستغنى المهندسون عن العمال والاسياد عن العبيد » — ، فلم يخرج عن اطار المستحيلات التي لم يحلم بها احد . وبدلاً من ان يتماشى العلم والتقنية ، نراهما يستمران في تجاهل بعضهما البعض ، لا بل نرى التقنية عائدة في احتقار العلم .

انطلاقة العلوم

كان من شأن هذه اللامبالاة ان أبقت الادوات الضرورية للعلماء في حالة بدائية . فاضطروا ، بسبب حرمانهم من أدوات القياس ومن المجهر والمرقب ، الى الاعتماد على حواسهم ، وعلى عقلهم بنوع خاص . وهذا ما يطبع النتائج المحرزة بمزيد من العظمة .

وكان العالم المعروف قد اتسع اتساعاً نادراً . ففي الوقت الذي تخطى فيه الاسكندر ايران ، متقدماً في تركستان والهند ، قام المرسلياني بيتياس بدورة حول اوروبا الغربية . فبلغ المصائق الدانمركية والطرف الشمالي للجزر البريطانية . وحين روى ما علمه عن شمس نصف الليل والمحيط

المتجمد الشمالي ، اتهمه الرأي العام بالمخرقة والهذر؛ ولكن بعض العلماء قد استفادوا من رواياته . ولم يخاطر الملاحون اليونانيون بعد ذلك بنفسهم في السفر نحو الغرب البعيد الذي أقام القادسيون أنفسهم حجاباً لا يركن اليهم عند مداخله . ولكن الملوك الهلينيين أوفدوا اكثر من بعثة الى بحر قزوين — الذي لم يستكشف كله على كل حال — والهند والجزيرة العربية والبحر الاحمر وأعالي النيل. فنشر بعض هؤلاء الأفّاقين رواية اسفارهم، مما افرح الجماهير الشغفة بكل غريب عجيب. غير ان الجغرافية العلمية قد أفادت الى حد بعيد من الجغرافية الوصفية . وليس سوى الافتقار الى الادوات ، في ما يبدو ، ما يفسر عدم تقدير الحقائق التي تراءت فترة من الزمن ؛ بيد ان ترائيها مما يثير الاعجاب .

فان ملاحظة حركة المد والجزر الهامة في المحيطات قد جعلتهم يواجهون بشكل جديد معضلة اسبابها . فاكتشف بعضهم ، كبيتياس مثلاً ، انها مرتبطة بالقمر ، ولم يتمكن احد من بعدهم ان ينفي ذلك . غير ان الرأي لم يستقر على رفض دور الارياح التي نسب اليها ارسطو هذه الظاهرة : ومردّ ذلك ان علم الفلك لم يكن بعد علماً صحيحا .

وكانت كروية الارض امراً معترفاً به ؛ فسعوا سعياً حثيثاً لتحديد قياساتها . وقد حقق ايراتوستينوس في هذا الموضوع لباب الامر ، ويعود اليه الفضل في اعتماد ابسط الطرق . فانطلق من اعتقاده بان اسوان تقع على خط الطول نفسه الذي يمر في الاسكندرية التي تفصلها عنها مسافة ٥٠٠٠ غلوة، واكتشف ان أشعة الشمس، في موعد انقلابها الصيفي ، تنحدر اليها عمودياً بينما تنحرف هذه الاشعة ، في الاسكندرية ، عن الخط العمودي مكونة معه في انحرافها زاوية تعادل ٥٠/١ من محيط الدائرة : فان المسافة بين المدينتين ، بالتالي ، تعادل ٥٠/١ من خط الطول . أجل لم تخل هذه الطريقة من الاخطاء : فان اسوان تقع في الحقيقة على مسافة ٥٠ كيلومتراً تقريباً الى الشمال من دائرة السرطان ، والاسكندرية على ثلاث درجات الى الغرب من خط الطول الذي يمر في اسوان ؛ أضف الى ذلك انه كان من الصعب قياس المسافة التي تفصل بين المدينتين . واذا ما افترضنا ان التنقيحات التقريبية التي أدخلها ايراتوستينوس على معطياته العددية جاءت صحيحة ، يبقى علينا ان نعرف ما هي الغلوة التي استند اليها عندما انتهى الى خط طول قياسه ٢٥٠ ٠٠٠ غلوة ، او ٢٥٢ ٠٠٠ غلوة بحسب « سترابون » . وما كان النقص النهائي ليتجاوز ٦٢٥ كيلومتراً في حساب الاول او ٣١٠ كيلومترات في حساب الثاني على ٤٠ ٠٠٠ كيلومتر ، اي ما يعادل ١٫٥٦ او ٠٫٧٧ ٪ . ولكن علوتين اخريين كانتا معتمدتين ايضاً تؤديان ، لو استند اليهما ، الى فوارق اكبر . ومهما يكن من الامر ، فان الطريقة جديرة بكل اعجاب .

بفضل هذا التقدم ، بذلت الجهود في وضع الخرائط . فجمعت ، في سبيل هذا الهدف ، المعلومات الوجيزه المتوفرة حول المسافات . وفكر هيبارخوس ، في القرن الثاني ، بمراقبة

النجوم لتحديدخطوط العرض كخطوط الطول؛ ولكن الضرورة كانت تقضي بمقارنة الساعات، في حال ان آلات قياس الوقت لم تكن بعد مكتشفة . ومنذ القرن الثالث ، قام ايراتوسثينوس بمجهود تأليفي عظيم فتوصل ، بواسطة الاحداثيات الحسابية ، الى وضع خريطة عامة « للمسكونة » تلفت النظر ، على الرغم مما تخللها من اخطاء ، في ما يتعلق فيها بالسواحل المتوسطية وآسيا الصغرى ، بينما لا تزال مبسطة جداً في ما يتعلق بالمناطق الاخرى . ثم ان معرفة المحيط الهندي ، ورحلة بيتياس ، والاعتقاد السائد بأن بحر قزوين ليس مقفلاً من الشمال ، بدت لبيتياس مصداقاً للنظرية القديمة القائلة بوجود محيط واحد دائري وبأن الاراضي المعروفة تؤلف حلقة حول البحر المتوسط الذي ليس سوى بُحيرة وسطية ؛ وهو قد افترض ، من جهة ثانية ، وجود قارة اخرى مماثلة في المنطقة المعتدلة الجنوبية . اجل لا يعود اليه الفضل في الطلوع بنظرية المناطق ؛ ولكن علم الفلك أتاح له ان يرسم للمرة الاولى وبشكل صحيح تقريباً الدائرة القطبية ودائرة الانقلاب وخط الاستواء . واذا قيل ان ايراتوسثينوس يحتل المركز الثاني كلغوي ومؤرخ وشاعر ، فانه يبدو في نظر المعاصرين ، مسيطراً دون منازع على عهده في حقل الجغرافية العلمية .

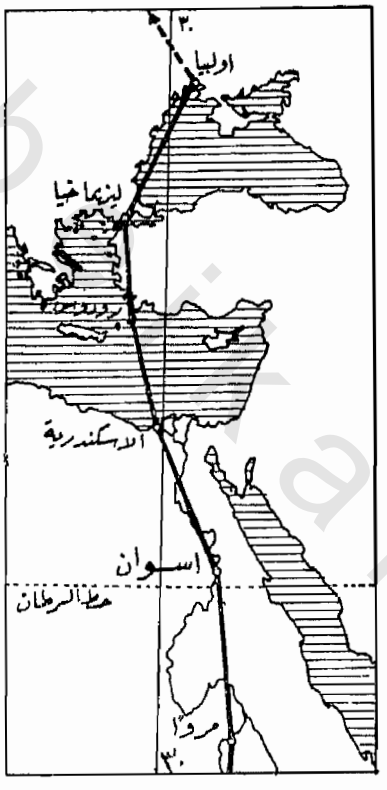

الشكل ٣٠ ـ خط طول الاسكندرية كما رسمه ايراتوسثينوس

لا ريب في ان علم الفلك قد استفاد من الملاحظات المتكدسة في المعابد البابلية . ولعل تفسير هذه الملاحظات العلمي بلغ في الشرق نفسه شأواً بعيداً : فان كيدينو ، الذي يطلق عليه الاغريق اسم كيديناس ، كان عالماً حقيقياً ، حتى ولو لم يكتشف مبادرة نقطة الاعتدال التي تنسب الى هيبارخوس ايضاً . بيد ان تحقيقات علماء الفلك اليونانيين ، على الرغم من اجهاض حدسهم العبقري ، لجدير مع ذلك بكل اعتبار . فهم قد رفضوا نظرية الافلاك المجوفة التي طلع بها افدوكسوس في القرن الرابع . واقترح ارسطارخوس الساموسي في القرن الثالث نظاماً تكون الشمس نقطة الدائرة فيه تبناه في القرن الثاني اغريقي بابلي يدعى سلوقوس : اي ان الارض والسيارات تدور حول الشمس خلافاً للظواهر ولكافة الشروح السابقة . ومما يلفت النظر ان هذا الافتراض لم يكن ليتفق مع الملاحظات التي سمحت بها الوسائل التقنية آنذاك .

لذلك فانه قد أثار معارضة الفلاسفة – ولم يتردد احد رؤساء المدرسة الرواقية في ان يتهم بخرق القدسيات كل من يجرؤ على ازاحة « مركز العالم » – واكثرية العلماء ايضاً من أمثال ارخميدس وهيبارخوس . واحتال هذا الاخير في تحسين النظام المقابل الذي يجعل من الارض مركز العالم والذي بقي بمثابة عقيدة ايمانية حتى كوبرنيك : ولم يكرس احد سواه ما كرسه من انتباه « للظواهر » ، وقد وضع جدولاً بأكثر من ٨٠٠ نجم ثابت . ولكن مبدأه بالذات ، بسبب حالة التقنية ، حتّم عليه الخطأ على هذا الصعيد .

اما في حقل الرياضيات ، فقد أخضع اوكليدس الهندسة ، او بالاحرى الجبر الهندسي ، لقواعد قياسية مترابطة دائمه . ولكن بعض العلماء الآخرين تفوقوا عليه عبقرية . ولعل اعظمهم حقاً هو ارخميدس الصقلي الذي مرّ مروراً على الاقل في الاسكندرية. فقد أراد ان ينوّه النقّاش على مدفنه بما اعتبره هو اهم اكتشافاته : نسبة ٢ الى ٣ القائمة بين حجم الكرة وحجم الاسطوانة التي تماسّ ضلوعها الدائرة . بيد ان رصيده ينطوي على اكتشافات اخرى كثيرة ، في الرياضيات والطبيعيات ، إذ انه وضع بصورة خاصة مبادىء حساب الكمية الصغرى وعلم توازن السوائل وضغطها . ويجب ايضاً ان نذكر على الأقل اسم ابولونيوس البمفيلي المنشأ الذي اهتم ، الى جانب النظريات الفلكية ، بدرس قيمة (π) والقطع المخروطي وتجاوز فيهما ما حققه ارخميدس نفسه .

واستفاد علماء النبات والحيوان من الاتصال بالعوالم الغريبة واستوقفا انتباه مدرسة ارسطو بنوع خاص فوضع ثيوفراستوس ، خلفه المباشر ، « جغرافية النباتات » ومؤلفاً في « علل النباتات » ، فاحرزا بعض التقدم . ولكن علماء التشريح في الاسكندرية اقدموا بجرأة على تشريح جثث الموتى وحتى اجسام المجرمين الاحياء كما جاء في التقليد . وهكذا توصل « هيروفيلوس » ، قبل « هارفي » بـ١٩ قرناً ، الى ان يكتشف ان الشرايين لا تنقل الهواء بل الدم الذي يدفعه القلب . ثم عاد ايراسيستراتوس الى الهواء غير معترف بوجود الدم الا في حالة الحمّى ؛ ولكنه ميّز في الجهاز العصبي الذي تراءى لسلفه بين اعصاب الحركة واعصاب الاحساس. ولم يتردد الجراحون في اجراء عمليات هامة : فان ايراسيستراتوس نفسه لم يحجم عن التعرض للكبد . وقد اعتمدت مدرستان طبيتان ، عملياً ، طرائق الشفاء والصحة التي اطراها هؤلاء العلماء. ولكن مدرسة ثالثة فاقتها في النهاية : فقد عرّفت عن نفسها بأنها « اختبارية » واهملت التشريح والنظرية واكتفت بالبحث عن الادوية وتوصلت احياناً الى اكتشاف ادوية هامة ولكنها ارتكبت ايضاً اخطاء هي أقرب الى السحر منها الى الطب . لذلك صادف السحر نجاحاً متزايداً لدى جمهور المرضى حين لم يدفعهم ايمانهم القلق للاتكال على الاحلام التي يوحي بها والمعجزات التي يجترحها الآلهة الشافون : اسكليبيوس وسيرابيس، وامحوتب بن هابو في أخربة المعبد الذي شيدته حتشبسوت في دير البحري منذ ١٥٠٠ سنة قبل المسيح .

باستطاعتنا ان نرى في هذا الزيغان ، الذي لم يكن وحيداً من نوعه ، اكثر من حدث

عارض . فان الحركة العلمية في العهد الهليني ، لأعظم حركة علمية نشاطاً وحياة وتنوعاً وانتاجاً في كافة العصور القديمة . ففي حقول الجغرافية وعلم الفلك والرياضيات والتشريح والفيزيولوجيا ، طلعت باكتشافات ووضعت نظريات كتب للعالم المتحضر ان يتمشى على اخطائها نفسها قروناً طويلة . ولم يسبق للفكر البشري ان يربط ، كما انه لن يربط قبل زمن طويل ، بمثل هذا الايثاق ، بين التصميم على التجريد المنطقي وبين هوى المعارف العملية أي الخضوع للواقع . ولكن عجز التقنية قد حدّ من فاعليته لأن هذا العجز قد حال ، عملياً ، دون اللجوء الى الطريقة الاختبارية أولاً والبحث عن تطبيقات نجاحاتها العملية ثانياً . ولذلك فلم تصب هذه النجاحات سوى نخبة مثقفة محدودة العدد نسبياً ، وان كانت ارفع عدداً من ذي قبل . ولكنها لم تصب عامة الشعب حتى المتأدبين منها ، لا سيما وان نزعاتهم المخالفة الصوابهم ، وهي أقوى منها في أي زمن مضى ، لم تكن لتجعلهم يقدرون صرامة الروح العلمية . هذا هو مصدر الجاذب الذي استسلموا له بسهولة ، أعني به جاذب ما هو مستغرب ولا سيما جاذب السرّ الصعب المنال . وهكذا فان العلوم الطبيعية انحرفت نحو وصف الغرائب النباتية او الحيوانية او المعدنية التي قد تكون صحيحة أو لا تكون والتي كثيراً ما ينسبونها الى قوى فائقة الطبيعية . وهكذا انحرف علم الفلك نحو التنجيم ، كما دعته الى ذلك السوابق البابلية . وهكذا انحرف الطب نحو المعجزة والسحر ، فتحطمت الانطلاقة العلمية الصحيحة وحلّت محلها في غالب الأحيان شعوذة رخيصة هي أبعد من ان تبقي على النفوذ الذي تمتع به كبار الاسكندريين في القرن الثالث وان تنقله الى خلفائهم .

٤ — المدارس الفلسفية والألوان الأدبية

الفلسفة

لازم العلم اليوناني الفلسفة منذ نشأته . ولكن الفلسفة نزعت ، بفعل التقدم الذي أحرزته ، الى ان يكون لها قوام مستقل . ولذلك تراخت الصلة بينها دون ان تنفصم : ولم تلعب مدرسة ارسطو دور الحافز الا في البداية ولبعض العلوم أو بالأحرى لبعض الاساليب العلمية فقط .

بقيت أثينا المركز الرئيسي للنشاط الفلسفي . ففيها قامت الاكاديمية الافلاطونية والكلية المشائية المرتبطة بارسطو ، متمشيتين على نظام جمهوري تنتخبان بموجبه ممثليها . وفيها أيضاً القى الفينيقي القبرصي زينون دروسه في «الاغورا» تحت «الرواق» (*Stoa*) الذي كان في الاساس من اطلاق اسم «الرواقية» (*Stoicisme*) على تعاليمه وتبعة مذهبه ، وفيها ايضاً جمع الاثيني ابيقور تلاميذه في الحديقة التي ما زالت اسماً لمدرسته . أجل لا نستطيع الكلام عن احتكار أثيني ؛ فكان لكل من هذه الجماعات فروعها في الخارج ، كما ان جماعات اخرى لم تتخذ من أثينا مركزاً رئيسياً لها . ولكن الفلاسفة وتلاميذهم ، مع ذلك ، لم يكونوا في أي مكان آخر اكثر عدداً منهم في أثينا . ولم يحظوا في أي مكان بالاكرام الذي حظوا به فيها . فقد عين احد الملوك

الاطاليين ، في السنة ١٥٩ ، أمين دار الكتب في برغاموس، كراتيس المالي، سفيراً له في روما ، وهو مشهور بسعة علمه فوق شهرته برواقيته،ويعتبره سترابون واحداً من اثنين — الثـــاني هو ارسطارخوس — حلّقـــا في علم الصرف والنحو . ولكن الأثينيين عينوا ، في السنة ١٥٥ ، رؤساء المدارس الفلسفية الهـامة ، للدفاع عن قضيتهم امام مجلس الشيوخ الروماني ، على الرغم من انهم ثلاثة اجانب : كرنياد الكيريني من الاكاديمية ، وكريتولاوس الفـاسيلي من الكلية ، وديوجين البابلي من المدرسة الرواقية. وهكذا فقد غدت أثينا ، دون ان تقدم الدولة مساعدات مالية للأساتذة ، مركزاً لمعهد فلسفة لا يضاهيه مركز آخر حتى آخر العصور القديمة .

وإنما المقصود هو التعليم لا الخلق والابتكار . ومـما يثبت سنى التعليم وشهرته انه كثيراً ما يشبه المحاضرات حيث تلعب النصائح البيـــانية دورها ؛ اما الفلاسفة الذين يختارهم الاثينيون سفراء لهم في الخارج فقد كانوا في الحقيقة ، من هذا القبيـــل ، من المرتبة الاولى . ولكن النظريات الفلسفية ، بعد الازدهار الذي عرفته في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الثالث ، فقدت الكثير من اخصابها . ولم يبق سوى الحرارة الاولى التي استطاع العهد الهليني بفضلها تنمية التراث الذي استلمته من العهد الكلاسيكي .

وبديهي انه نمّاه بتحويله إياه ، وليس عجيباً ان نرى ، في النزعات العـامة لهذه الحركة ، انعكاس الظروف الجديدة . وبلغ من بعض المدارس ، كالمدرسة الكلبية (الوقحة) ، والمدرسة الرواقية ، مراوغةً ، ان نادت « بالعالمية » مبينة المضادة بين « العالم » و « المدينة » ومستخلصة بذلك نتيجة توسع الاطارات السياسية . وقد قادتها وفرة وخلوص الاتصالات بين الشعوب وبين الحضارات — فان اكثر من فيلسوف كان شرقي المنشأ على الرغم من اعتماد اللغة اليونانية — الى ان تكتشف مبدئياً أخوّة البشر دونما تمييز عنصري او قانوني : غير ان المبـــدأ لم يطبَّق قط عملياً . ولكن ما يلفت الانظار حقاً هو ان علم المعقولات قد بدا أقل استهواء في تلك الأيام المضطربة التي ضلّ فيهـا الانسان طريقه . فان ما حاولوا تحديده بنوع خاص هو المثل الأعلى للانسان الحكيم ، سرّ السعادة الحقيقية ، في علم أخلاقي وعمـــلي أقرب الى آراء السفسطيين وسقراط منه الى آراء افلاطون وارسطو .

لم تترك الاكاديمية والكلية أثراً يذكر في هذا العهد. اجل لقد تهافت عليهما طلاب كثيرون؛ وكان دور الكلية كبيراً في نشأة ونموّ العلم الواسع ؛ ولكنهما كلتيهما حصرتا نشاطهما في تدريس وتفسير تعاليم مؤسسيها . ويبرز الاهتمام الحقيقي في غير مكان .

استمرت المدرسة الكلبية بعد ديوجين ، وأضاف عبدان سابقـــان ، « بيون » البورستيني وميديوس السوري ، الى وعظها ، كمتسولين تائهين ، نفوذ مؤلفاتها التي لم تراع سخريتهـا السامة لا الآدميين ولا الآلهة : فغدت « مقـــارعات » (*Diatribes*) الاول واهاجي (*Satires*) الثاني في الاساس من لون أدبي عرف الكثير من الاتباع في العـالم اليوناني ، وفي روما بعد ذلك .

ولكن وراء هذه الظواهر الخارجية التي تتعارض تعارضاً عنيفاً وكافة المصطلحات ، ووراء هذا التظاهر بالوقاحة التي بلغت حدّ التعثير المقصود ، أخفى اولئك الذين لم ينحدروا الى الشعوذة ، مثلاً أعلى نبيلاً جداً للحكمة والتصميم على الجهد ، يرمز اليه هيراكليس ، للتحرر من الأهواء وممـا ليس هو بجوهر الطبيعة البشرية .

وشرعت المدرسة الارتيـابية ايضاً ، مع بيرون الذي تتبع الاسكندر في حملته على آسيا ، في الحث على دستور حياتي . فشددت ، في الاغضاء والخضوع للعـادات ، على اتزان الروح ، والصراع التحريري ضدّ الاشياء ، وعدم الاضطراب ، وهناءة الحياة . ولكن هذا الدستور قد ارتكز الى حقيقة فاز بها المنطق فغدت مذهباً ، وأعلن الارتيابيون ان الحكم يخطىء كما تخطىء الحواس . لذلك يجدر ارجاء الحكم والاعتصـام بالصمت امام منازعات الفلاسفة الذين جعلهم « تيمون » ضحكة للناس باستهزائه بروّاد المتحف الاسكندري وبحروب العقائديين الكلامية . ويبدو ان هذا الانتقاد اللاذع كان له أثره في الاكاديميـة ؛ ومهما يكن من الامر ، فانه قد خدم التقدم العلمي بإيلاء الوقائع اهمية دونها اهمية النظريات وبالحث على ملاحظتها بتواضع .

بيد ان مذهبين جديدين تفوقا الى حد بعيد على كافة المذاهب الاخرى بامتداد واتساع ومدّة أثرهما في أوساط اجتماعية متنوعة ، حتى خارج الأوساط الفكرية .

كان ابيقور ، باشعاعه الشخصي ، وبالمثـل البطولي الذي أعطاه في آلام المرض ، في نظر تلاميذه ، المعلّم الذي لم ينقطعوا ، في العالم اليوناني وروما ، عن ترداد وتفسير حِكَمه والتأمل فيها . واذا هو كوّن رأياً في العالم وعلم الطبيعة ، فانه لم يفعل ذلك ، في ما يظهر ، إلا لتحرير الانسان من خوفه الوهمي من الآلهة . انه لم ينكر وجودهم بل دورهم في الأمور التي تهم الانسان ، وجعلهم يعيشون في بطالة دائمة ابعدت صفة ما فوق الطبيعة . واناط كل شيء بالمصادفة واعتبر الاجساد والأرواح مجرّد كتل ذرات . وقد تبنى ابيقور بذلـك معظم نظرية ديموكريت الابديري . أما ما أدخله عليها بنوع خاص فهو حركة عامة للذرات من فوق الى تحت تفرضهـا الجاذبية وتنوعها انحرافات طفيفة جـداً عن خط الهبوط العمودي ووثوب الذرات بعد مسّها الكتل المتكوّنة . ويستلزم الموت في نظره انحلال الكتل : فليس بالتالي من حياة ثانيـة ويجب ان يزول الرعب الذي توحيه كما يجب أن يزول الرعب الذي يوحيه الآلهة .

فليس بعد ذلك ما يعترض سلوك حياة تصبح اللذة هدفهـا الطبيعي . ولكن مقياس اللذة الحقيقية هو عدم الشهوة والألم . فقد أعلن ابيقور : « لسنا نستهدف لذات الفسّاق ، لاولا اللذات التي يوفرها الاستمتاع » . ولذلك فان ثالبي ابيقور ، من امثال هوراس الذي أسمى نفسه « خنزير قطيعه » ، قد تنكروا دونما خجل لكل تعليم أخلاقي لا يوصي حتى بالافراط في اللذات . أمـا الحكيم فكان عليه أن يعيش « متستراً » ، دون طموح ، مُرضياً شهواته الطبيعيـة والضرورية معاً بأبسط شكل اذ أن الخبز الأسود والماء يكفيان لذلك ، ومكدّساً الحواس الطيبة المعدّة

لأن تستحيل ، في الذكرى ، « لذّة مستقرة » لا تستدعي، على نقيض « اللذة العابرة » ، تجدد النهوه ، ومن شأنها وحدها القضاء على الألم . وكانت تعاليم المعلم وأمثاله ، لهذه الغاية ، وافرة حداً ، تؤلف ارشادات عملية هي في مجموعها نظام دقيق جداً: وكان من شأن تطبيق هذا النظام أن يوفر ، في هناءة الأحاديث الحميمة ، ملاذاً ثميناً وأمناً في خضم الاضطرابات التي تهزهز سائر البشرية .

أما الرواقية فقد انكرت المصادفة التي لم ترد ان ترى فيها سوى ما لا يمكن تفسيره . وقد نظرت الى العالم كما الى كل ينظمه ويحركه عقل إلهي ، منطلقة ، كما فكر بذلك هيراكليت من قبل ، من النار الأولية . وكان الانسان نفسه في نظرها ، عالماً صغيراً منسجماً مع الكون ، مركباً من جسد تغلغلت فيه روح هي نفثة نارية متجملة بالذكاء . فتطابق تأليه الكائنات هذا والتفاؤل المطلق اذ أن كل شيء فيه يناسب تسلسلاً عقلياً . ولكن القدرية على نقيض ذلك ، لم تناف وعلم الأخلاق ، اذ أن واجب الفرد قائم في أن « يعيش وفاقاً للطبيعة » أي بحسب نظام العالم بالذات، حتى يتوق الى الكمال . ويؤمن الانسان السعادة ، بموجب تعاليمها، باحتقار كافة الخيرات وكافة الآلام وكافة المشاعر، أي بالخضوع الى العقل الذي يتيح له ممارسة الفضيلة: وان هو فعل ذلك ، فانه يكون غنياً في فقره ، وحرّاً في عبوديته ، وسعيداً على الرغم من المرض والتعذيب وحتى الموت .

اقتصى في الواقع تحسين هذا المثال الالزامي المتشامخ ، بالمزيد من البراهين اللبقة. فقد أقروا بأن هنالك بعض الخيرات ، في المنطقة المتوسطة بين الرذيلة والفضيلة ، كالصحة والقوّة والجمال والفرح ، ليست خليقة بالاحتقار . ثم ان الرواقية ، على نقيض الابيقورية ، لم توص باللامبالاة حيال الشؤون السياسية : فان نظام العالم قد حال دون ذلك ، كما أنها قد حثت على الجدّ والنشاط باسم العقل والواجب . فاستطاعت بذلك اجتذاب التبعة والابقاء عليهم ، وقد بذل بعضهم جهداً كبيراً وبرهنوا أحياناً عن نبل نادر كي يكونوا أهلاً لمعتقداتهم . وعلى نقيض الابيقورية أيضاً ، لم تنزو الرواقية في عقيدة ضيقة تحدّدها تعاليم مؤسسها زينون . فبعد هذا الأخير استحق شرقي آخر هو كريسبوس الكيليكي لقب « المؤسس الثاني للرواق » ؛ ونستطيع الكلام في القرن الثاني، مع « بانايتيوس » الرودسي ، عن الرواقية « الوسطى » كما يصح بعد ذلك الكلام عن الرواقية « الحديثة » . ومنذ العهد الهليني ، قبل كاتون الاوتيكي ، خصم قيصر، كان هنالك رواقيون جمهوريون نشيطون ، بينما كان هنالك أيضاً ، قبل الامبراطور الفيلسوف ماركوس أوريليوس بزمن بعيد ، ملك واحد على الأقل موسوم الى حد بعيد بالتعليم الرواقي ، هو المقدوني انتيغونس غوناتاس . وهكذا استطاع الرواق أن يترك أثراً كبيراً جداً بفضل رغبته في العمل بين الناس وبفضل مرونته في التفسير : ويحتل تبشيره بالجهد العقلي الطوعي الناصب مركزاً هاماً في التراث الذي تركته لنا العصور القديمة .

الادب

لعل الحركة الفكرية تكشفت حينذاك عن انها أقل ما تكون انتاجاً مفيداً في حقل الأدب . أجل كان الأدب في الحقيقة مخصاباً ومتنوعاً وبديعاً . ولا ريب أيضاً في اننا لا نعرف جيداً مؤلفات هذا العهد التي فقد اليوم معظمها على الرغم من بعث بعضها بفضل دراسة البرديات التي كان لها شأنها الكبير في اشهار كلّيماخوس وهيرونداس وميناندروس . ولكننا نتراءى النزعات العامة مع ذلك ، واذا نحن لم نستطع انكار الأثر الذي كان للحضارة الهلينية ، في الحقل الأدبي وجميع الحقول الأخرى ، على الحضارة الرومانية في آخر عهد الجمهورية وأوائل عهد الامبراطورية ، فانه يبدو لنا ان هذا الاثر قد افتقر الى الاستمرار والإعراق . ولا تشابه البتة بينه وبين الاثر الذى تركته الفنون والفلسفة . ولا تشابه أيضاً بينه وبين اصالة وأهمية تقدم الروح العلمية وانتصاراتها .

صمم الادب الهليني في الحقيقة على أن يكون جديداً ، وقد حدث ان توفق الى ذلك . وقد حاول ذلك في جميع الاتجاهات باحثاً عن الجدّة في النوع والوزن والعاطفة والطابع . ولعل عيبه بالضبط ان الافراط قد سيطر على صيغته وتصنعه ورقّته . فمن حيث انه اقصي ، بفعل الظروف الجديدة للحياة السياسية والاجتماعية ، عن الجماهير الشعبية ، فقد اتجه الى جمهور مفرط في الرقة أحياناً ، لا سيما في بطانة الملوك . ثم ان العلم الواسع والتأنق في الكلام وقفا له بالمرصاد فلم يقو على الدفاع عن نفسه ضدهما .

النثر

ويبدو الانحطاط ، على كل حال ، أحلى وضوحاً في النثر منه في الشعر .

قد يجدر بنا ان نستذكر هنا بعض المؤلفين الذين سبقت الاشارة اليهم . ولعل أعظمهم شهرة من الناحية الادبية — إذ انه الوحيد ، في الواقع ، الذي بلغت مؤلفاته ، التي عرفت الحياة ، شهرة حقيقية — هو بوليب . ولكن مرد شهرته الى المعنى لا الى المبنى الذي تثقله الصيغ والمفردات المجردة في ما صحت تسميته بـ « الرطانة السياسية »، رطانة دواوين ومراسيم ذاك العهد . اما اللغويون وذوو العلم الواسع والعلماء والفلاسفة فليسوا أهلاً باستيقافنا . فالصفات الادبية ما كانت لتضر بمؤلفاتهم . ولكن ان هي لم تتحلّ بها ، فان صفاتها التقنية تجيز لنا ان لا نغالي في اتهامهم بالتقصير .

عانت الفصاحة سكرات الموت ، لمصلحة علم البيان الذي أقصر على الصيغ النظرية، المطبقة بتصنع على المواضيع الوهمية ، ما كان في الاصل ابحاث واكتشافات فنٍ في خدمة المعتقدات الراسخة . أضف الى ذلك زوال ذلك الميل الى وضوح نافذ قارب الجفاف ببساطته الذي كان في الاساس من اهمية ليزياس ، وتلك الجملة الطويلة المتناسقة التي اشتهر بها ايزقراط او تلك القوة الثابتة التي اتصف بها ديموستينس . هذا كان الثمن المحتم لتعميم ثقافة متوسطة وزعها التعليم دون ان يجهزها بما يلزمها ضد النتائج اللماعة الصنعية القادرة على التأثير والافتتان . ومنذ منتصف القرن الثالث بررت الفصاحة المعروفة بالـ « آسيوية » ، المفخمة تارة والمفصّلة اخرى، والمتكلفة

والموزونة ابداً . وعادت فيما بعد ، في عهد الامبراطورية ، الى تقليد كبـــار الكلاسيكيين . ولكنها أثارت اعجـــاب الرومان . فان هؤلاء ، حين كانوا يقصدون أثينا او رودس لتلقي دروس تفتقر الى الذوق السليم ، كان عليهم في أواخر العهد الجمهوري ، في روما ، ان يعالجوا مواضيع سياسية وقضـــائية حقيقية . ولم يتوفر هذا الحظ لأساتذتهم الذين لم يكن فيضهم ليستطيع الازدهـار إلا على ما وصفه احد معـــاصري اوغسطس ، دينيز الهاليكارناسي بالـ « غباوات » .

مارس بعض المؤلفين نوعاً قريباً من القصة ، وربما شجعهم على ذلك النجاح المستمر الذي عرفتـــه بعض مؤلفات كسينوفون ، لا سيما الـ « كيروبيديا » . فليس بعيداً عن القصة مثلاً كتاب « افيميروس » الذي تخيّل فيه بلاداً اسطورية استمرت فيها ذكرى حياة الآلهة اليونانيين البشرية والملكية . وليست بعيدة عن القصة ايضاً تلك « العجائب الخارقة » التي تنقل القـارىء الى بلاد تجمد الكلمات فيها شتاء ، او « الشماليات » ، او « المصريات » ، وكلها مؤلفات مجهولة لمؤلفين من الصف الثاني تكفي أسماؤها للدلالة على نزعتها . وهي ، من حيث فقدان عقدة القصة فيها ، قد حيّرت القارىء بادخال الخيال على الواقع ؛ وساومت على عيائه من حياته اليومية ومن رغبته في الانفلات . فشقت الطريق بذلك أمام القصة الحقيقية التي لم تظهر إلا بعد زمن . ومنذ القرن الأول أقدم شاعر لم تصلنا قصائده ، هو بارثانيوس الذي اقتيد أسيراً الى روما ، على تأليف « آلام الحب » ، وهي مجموعة ثرية من ٣٦ قصة نقلها عن مؤلفين مختلفين . وقد قصد من وراء ذلك تقديم مواضيع رثائية لشاعر روماني نعم هو بحمايته . ولم يكن هذا الشاعر الروماني اوفيد بالذات : واذا حقق هذا الاخير هدفاً مماثلاً ، فان ذلك لدليل على النجاح الذي احرزه المثـــال الأدبي الهليني لدى المؤلفين اللاتين . ثم ان معظم هذه القصص قد حلّت عقدها حلاً مسرحياً ، وان هذه المجموعة ، التي احتل فيها العشق مركزاً كبيراً ، لخليقة بأن تعتبر تمهيداً للون الحكاية . اجل انها في الحقيقة تباشير مترددة وركيكة أدبياً ؛ ولكن الأدباء الذين تعرضوا لهـا لم تعوزهم الرغبة في التجديد ، لا ولا الاحساس الثاقب بكل ما من شأنه ان يرضي جمهوراً كبيراً .

الشعر

أما الشعر فيبدو أفضل تمثيلاً .

ليس من الأهمية بمكان في الحقيقة ذلك اللون الشعري الجديد ، او المجدد بالاحرى — إذ ان العهد القديم قد اعتمده لعلم الاخلاق وللاهوت المرتبط بالعلم حينذاك — والمتلائم مع أوساط فكرية توسع الروح العلميـة فيها نطاقه الى أبعد حدّ ، اعني به الشعر التعليمي المخصص لعرض المعارف العلمية . فظهرت قصائد من هذا اللون في مواضيع الزراعة — ودعيت « بالجيورجية » (الفلاحية) — والطب والنباتات المعدّة لتحضير العقاقير والثعـابين السامة . الخ ... ولكن مؤلفاً واحداً ، بين هذه المؤلفات جميعها ، قد عرف شهرة عظيمة وأثار حماس أجيـــال كثيرة حتى في روما نفسها ، اعني به ذاك الذي خلّفه اراتوس الكيليكي السولي المنشأ . فلم يصلنـا من

هذا اللغوي الذي نشر مؤلفات هوميروس وعلق عليها ، ومن هذا الرواقي المقرب الى الملوك الذين تباروا في محاولة اجتذابه دون جدوى رابقائه في بلاطاتهم ، سوى قصيدتين فحسب : الاولى في علم الحوادث الجوية ، والثانية ، وهي الأشهر ، وهو مدين لها بمجده ، اعني بها « الظواهر » التي تصف النظام السماوي مفسرة إياه وفاقاً لنظريات افدوكسوس الفلكية التي كان قد فات زمانها حين تم وضعها في النصف الاول من القرن الثالث . اما النظم فيتصف بالمهارة وحتى بالظرف ، وتستوقف القارىء احياناً بعض الاستطرادات الخرافية والفلكية او البحرية . ولكن هذا الانتباه لا يلبث ان ينهكه العياء في كافة المقاطع الاخرى التي يتعاقب فيها هذا القدر من الابراج دون ان يبرز مرة واحدة ، لدى المؤلف ، أقل تأثير شعري عميق يحيش به مثل هذا الموضوع حتى للعالم . وان الاعجاب الاجماعي الذي أثاره هذا المؤلف العبوس الجاف ، حتى في أوائل القرون الميلادية ، لسرّ مغلق لا يمكننا إدراكه .

نرى الجهد والمعارف الجدية ، الاسطورية او الشاملة ، في مؤلفات شعراء آخرين لم ينضب الهامهم بسبب ذلك . وهؤلاء هم شعراء البلاط او الندوة . تغذوا بالنظريات الجمالية والمطالعات المختلفة ، فأحيوا الكناية التي بالغوا فيها ، حتى الغموض احياناً ، رغبة منهم في جعل القراء يشعرون بلذة ادراك معناها . اما ممثلهم الهزلي ، على هذا الصعيد ، فهو ليكوفرون — ولكن أي ليكوفرون ؟ ومتى ألّف ؟ أفي أوائل القرن الثالث ام في اوائل القرن الثاني ؟ — الذي وفر كتابه « الكسندرا »، وهو مجموعة نبوءات اسندها الى « كسّاندر » الطروادية ، للمفسرين القدماء ولعدد اكبر من المفسرين المعاصرين ، سلسلة من الأحاجي المستبعدة . ولكن الإيجاز يفعل فعله ، عند افضلهم ، كما ان خلوص ظرفهم ورقة ابتكارهم لا يبقيان دونما تأثير .

ان اطرفهم دون منازع هو كلياخوس الذي حدّد له اللاجيون معاشاً ، وهو فيلسوف كبير وشاعر بلاط ماهر ، في تملّق الملكة ارسينوي وأخيها الذي هو زوجها ، بطليموس فيلدلفوس ، وفي التغني بـ « شعر بيرينيس » ، ولكنه الى ذلك مؤلف أناشيد ومراثٍ وملاحم صغيرة وأهاجٍ ولواذع . كان شغفاً بالأساطير والحوادث المجهولة ، يبذل الجهد في اكتشافها في الأدب القديم وتقاليده المحلية ، ويصل بينها وبين نشأة مدينة او عائلة او احتفال غريب . فقد درج على القول : « لا أسلك طريقاً تسير عليها الجماهير ، ولا اشرب من ينبوع عمومي ، فكل ما هو عمومي تقز منه نفسي » . ولكن هذا الباحث عن الغرائب كان عالماً بأصول الوزن وماهراً في إيجاد التعبير النادر ومتمتعاً بحذاقة خارقة . اجل يجوز ان نأخذ عليه عدم تلقائيته لأن ابتكاراته على كثير من الأرابة والتصنع ؛ ولكنه يثير الاعجاب ابداً بمرونته ويحدث ، في افضل ما سلم من مؤلفاته ، الأناشيد الموجهة الى بعض الآلهة على الطريقة الهوميروسية ، ان يعبر عن عاطفة دينية ليست بالعاطفة المتكلفة . واذا كان نفسه قصيراً ، فان في قصائده الصغيرة لطابعاً وسحراً .

بعد قطيعة صاخبة ، وجه سيلاً من التهكم الى احد تلاميذه ، ابولونيوس الذي أراد الانتساب

الى « رودس » ، على الرغم من ولادته في الاسكندرية ، امتنـــاناً منه لحسن الوفادة الذي صادفه في هذه المدينة حين اضطر لمغادرة البلاط اللاجي . اما سبب المأساة فهو بالضبط ملحمة «الارغونوط» التي بدت أبياتها الستة آلاف وكأنها لا نهاية لها في نظر الاستاذ الذي تباهى بكراهيته « للقصائد الطويلة طول الأنهار » . وقد روى ابولونيوس فيها مغـــامرات رحلة « جازون » ورفاقه ، على المركب « ارغو » ، الى بلاد « الكولخيد » ، بحثاً عن الجزّة الذهبية . فاستخدم بجد أساليب الملحمة الهوميروسية وأدخل على روايته ، عند كل سانحة ، معطيـــات فلكية وجغرافية وطبية أو سحرية، وعرض بتفاخر تقنية وعلماً في غير محلّها . أما ما يشفع بالمؤلّف ويسمه بطابع جديد ، يؤسفنا ان يكون كلياخوس تنكّر له ، فهو شخص « ميداي » ودقة التحليل السيكولوجي التي امتاز باتقانها في وصف تكوّن الحب وصراعه واضطرامه وانتصاره النهائي في هذه النفس الفظة والحيية معاً .

أقام ثيوكريت السيراكوزي في الاسكندرية أيضاً – ولكن لمدة أقصر على كل حال ، لأنه عاش في كوس أيضاً – ، واذا هو امتدح بطليموس الثاني وبيرينيس ، فانه لم يهمل طلب حماية سيد وطنه ، هيرون الثـــاني . لم يصلنا منه ، بالاضافة الى بعض الاهاجي ، سوى مجموعة من المختارات يبلغ عددها الثلاثين تقريباً تعرف باسم « قصائد زهرية » . ولا يعني هـــذا الاسم سوى « قصائد صغيرة » ، ويعود الفضل للنجاح الذي أحرزه بعضها في صفة « الراعوية » التي أضيفت اليها فيما بعد . وانه لنجاح حلال في الحقيقة . أجل لم يخلق ثيوكريت لوناً جديداً بهذه القصائد، واذا ما وجدنا القوّة وطابع المأساة أحياناً، فاننا نلمس ، أحياناً أخرى كثيرة، بعض التفه لدى أبطاله الريفيين الذين أرضوا بعض المفرطين في الرقة الشغفين بالحياة الريفية . ولكنه ، بالاضافة الى مهارته في نظم الشعر واتقـــانه اللهجات – الايونية والدورية والايولية – المتنوعة التي يظهر التصنع في استعمالها ، معجباً صادقاً بالطبيعة ، يحس بالعـــاطفة الدينية الشعرية التي تنبعث منها ، وقادراً على الشعور بعذوبتها وشهوانيتها وفظاظاتها وعلى إظهارها للقـــارىء بفن بالغ في الدقة . ومن الخطأ الاعتقاد بسذاجتـــه . فان سحر الطبيعة التي يحن اليها في المدينة يؤثر فيه تأثيراً قوياً ينفذ الى اشعاره . ومن شأن التصنع الاصطلاحي الذي لم يتمكن مقلدوه الكثيرون التخلص منه ، ان يزيد ، بالمقابلة ، من حدّة الاحساسات والعواطف التي لم تقض عليها أبحاثه كأديب نبيه جـــداً .

بدلاً من تعداد أسماء أخرى لمؤلفين كثيرين ولمؤلفات كثيرة أيضاً ، نرى الاقتصار ، بعـــد هؤلاء، على لون يميز نجاحه وصنعته التقنيه وطبيعته نفسها الشعر الهلّيني المتوسط تمييزاً كافيا . سبق لكلياخوس وثيوكريت ان ألفوا أهاجي قصيرة ، فحذا حذوهما كثيرون . واشتقت هذه القطع الشعرية من الكتابات القياسية التي دُرِجَ على حفرها منذ زمن بعيد على المدافن أو النذور واستوجبت مهارة كبرى للتعبير عن عاطفة لها قيمتها في أشعار معدودة وللابقاء على بداهتها .

ولم يكن الحذاق قليلي العدد ، لا ولا القراء المستعدون لتقدير نجاحاتهم حق قدرها . لذلك ظهر من هذه القطع عدد لا يحصى في جميع المواضيع : الغرامية ، والنذرية ، والمدفنية ، والاخلاقية ، والجدلية ، الخ. وظهرت حتى القطع الوصفية المكرسة لأحقر واقع أحياناً ، واقع المهن وادوات العمل مثلاً . وألفوا منها مجموعات مختارة ظهرت أولاها باسم « التاج » في أواخر القرن الثاني ، ثم خلفتها بعد ذلك بزمن بعيد ، في بيزنطية ، المختارات البلاطية . أجل ليست هذه المختارات بالمؤلف الكبير ، ويستحيل مطالعتها مطالعة متواصلة . ولكنه من المستطاب ، بفضلها ، استعادة ذكرى البيئة « الاسكندرية » مع رشاقتها في الكلام والوزن وبراعتها في الابتكار وثقافتها الواسعة وسحرها وروح نكتتها ورقتها الشهوانية أو الشفوقة .

المسرح والمهزلة الايمائية

أظهر علم اللغات المكانة التي احتلها المسرح في الحضارة الكلاسيكية والروائع الشعرية التي تدين له بوجودها. فحاولوا استعادة نفس ذلك العهد العظيم بمحاولة تأليف التمثيليات الفاجعة أو المآسي الانتقادية. وامتحن كلياخوس قلمه فيها وأحرز سبعة مؤلفين غيره ، في نظر الاختصاصيين ، شهرة كافية لضمهم تحت اسم « الثريا » . اتقن هؤلاء جميعهم درس نماذج الزمن الماضي ؛ واكتشفوا مواضيع مهمة في الميثولوجيا التي تفوقوا على كل من سواهم في فهمها أو في التاريخ البعيد — كان هنالك تيمستوكليس - والقريب؛ ولم تعوز الارابة واحداً منهم. بيد ان واحداً منهم لم يتوصل الى ان يعيد الى المأساة حياتها وان يفرغ في قالبها إلهاماً مميزاً . فما زالت تمثيليات أوريبيد تستأثر بالنجاح وقد أعادت تمثيلها في كل مكان الجمعيات « الديونيسية » في البناء الضخم التي حرصت كل مدينة على تشييده . ولنذكر هنا ان « كاهنات باخوس » قد مثلت في السنة ٥٣ قبل المسيح في اراتاكسا ، عاصمة ارمينيا ، لمناسبة عرس ابن ملك الفارتيين وشقيقة الملك الأرمني ، بحضور الملكين : كان هذان « البربريان » المعجبان بالحضارة الهلينية يلجآن اذن الى اوريبيد والى الممثلين اليونانيين لاعلاء شأن الاعياد السلالية . فهل من برهان أفضل على انتشار الحضارة اليونانية وعلى جاذب المأساة التي هي أكثر ابتكاراتها تميزاً وعلى التوافق بين اوريبيد والأجيال اللاحقة الذي استمر طيلة قرون وقرون .

أما المهزلة ، كما تصورها ارسطوفانوس ومعاصروه ، فأبعد من ان يمكن اعادة تمثيلها : فمن حيث هي انتقاد ملؤه التلميح الى الحوادث التي عاصرت التأليف ، يستحيل فهمها دون تفسير مستفيض . أضف الى ذلك ان لون المهزلة نفسه لم يكن لينسجم مع ذلك العهد . فان عنفها الجدالي وهواها الجامح يتنافيان واللطف الجديد الذي تحلى به مجتمع هذّب ذوقه تقدم الثقافة واليسار . وكذلك فان « المهزلة القديمة » تفرض ديموقراطية تعي سيادتها وتتحلى بقسط من التساهل ترضى معه بان يُسخر من مناقشاتها وبأن يوجّه الانتقاد اللاذع حتى الى زعمائها : فقد زالت الآن هذه الظروف السياسية . فأصبح من الواجب ان تتطور المهزلة حتى تعرف البقاء ، وهي قد توفقت الى ذلك ، منذ أواخر القرن الرابع ، مع مينانذروس الاثيني الذي نعرفه اليوم

معرفة مباشرة بنبذ وافرة وصلت الينا عن طريق البرديات وأخرى بلغتنا عن طريق الهزليين اللاتين، لا سيما « بلوت » .

تفسر شخصية مينانذروس نفسها اكثر من نزعة في مؤلفاته . فان الثروة التي أتاحت له ، في البيره ، الاستمتاع بحياة بهجة ، دون الاضطرار للنزول عند اغراءات بطليموس الثاني ، ليست بغريبة عن تفاؤله المتساهل . بيد ان تفاؤله هذا لم يخل من البصيرة : فقد كان على شيء من السخرية وحتى السويداء احياناً . ولكن جميع شعراء « المهزلة الحديثة » أحسنوا في الدرجة الاولى مراقبة وتصوير الحياة التي اكتنفتهم. فهل كانت عقد مهازلهم نفسها حقيقية؟ يجب علينا كي نعطي حكمنا في ذلك ، ان لا ننسى ان اهمال الاولاد ما زال حينذاك عادة سائدة وان المؤلف والجمهور لم يهتموا ، بصدد الخاتمة ، إلا لأن تكون ناجحة فحسب . وكان من الواجب ان تراعي الخاتمة الناحية الاخلاقية ايضاً لأن حياء غريباً فرض بعض المصطلحات : فليس من « حب يوناني » مثلاً ، على الرغم من أن الحب ، في غير مكان ، كان موضوعاً أدبياً كما يتضح من قصائد ثيوكريت الراعوية ؛ وليس من زنى نسائي أيضاً ، واذا حدث أن سقطت احدى الفتيات في زلة ، يجب ان تسوّى الأمور في النهاية بالتي هي أحسن . ولكن درس الطبائع والأمثلة الاجتماعية كان أهم من العقدة وطفورها الصنعي . فاقتبس مينانذروس طبائعه وأمثلته عمّن هم حواليه ، الاغنياء والفقراء ، الاسياد والعبيد ، الشيوخ والشبان ، والبغايا والأمهات . ومن السهل علينا ان نهتدي حتى في مهزلة القرن الثامن عشر الى المزيد من ورثة الامثلة التي أوجدها : العاشق المتقلب ، المسرف والحريص ، مستثمر عيوب الغير ، المتحدلق ، الطفيلي، العبد الوجل والوقح. ولكن هذه الامثلة لم تكن عنده على شيء من التبسيط . فهو قد اهتم بها بعطف انساني ولوّن سيكولوجيتها بدقة وألف منها معرضاً بلغ من تنوعه وأمانته أن أحد المفسرين القدامى قد تساءل عما اذا كان هو الذي قلّد الحياة او الحياة هي التي قلدته .

مارست صقليا وايطاليا اليونانية منذ زمن بعيد لوناً مسرحياً آخر يختلف كل الاختلاف ، مشاهده قصيرة ، يقلّد المأساة أحياناً ، لا ينطوي على عقدة، يتصف بالفظاظة العنيفة وبالقذارة أحياناً . ومنذ القرن الخامس اقتبس بعضهم أشخاصهم عن الطبقات الشعبية الدنيا رغبة منهم في الاقتراب أكثر فاكثر من المشاهدين . فنشأ عن هذه المهازل المضحكة فيما بعد لون أدبي جديد ، هو « المهزلة الإيمائية » التي وضعت نثراً في البداية وشعراً فيما بعد . فهنالك ثلاث مهازل ايمائية بين « راعويات » ثيوكريت ، وأتاحت لنا البرديات بنوع خاص الوقوف على اثنتي عشرة منها لهيروندا س الذي يضيف اسمه سنى الموهبة الشعرية الى الشهرة الطبية التي يتمتع بها وطنه ، جزيرة كوس ، مركز مدرسة ابقراط .

اعتمد هيروندا س شعراً « ذا وتد مجموع أعرج » اعتمده من قبل أحد هجائيي القرن الرابع. ولكنه لم يعبأ بالاخلاقيات ، جاعلاً من الواقعية شغله الشاغل . فان أشخاص مهازله الصغيرة

الذين لا يتجاوز عددهم الاربعة ينتمون الى الطبقة الحقيرة في حياتها اليومية : الام التي تطلب الى معلم المدرسة ان يضرب ابنهـــا الشقي ، وزبن الاسكاف ، و « السمسارة » التي تصرفها امرأة شريفة بدون غضب لا يجدي ، وغير ذلك مما هو أقبح. كلها تمثيليات صغيرة تفيض كلاماً مبتذلاً وقويحة وثرثرة وتدهش بمهارة الوصف . نرى فيها الحياة الشعبية البورجوازية كما هي في أيامنـا تقريباً . فهل كانت هذه المهازل معدّة للتمثيل ؟ نحن نميل الى الاعتقـــاد بأنها أعدّت للقراءة المسلّية القمينة وحدها باكتشاف وتذوق النوايا الخفية التي ترخر بها ألاهي كاتب آثر على اللوحة الكبيرة لوحة صغيرة يستطيع اتقان كل جزء من أجزائها .

الخـــاتـمة

مهام ونجاح الحركة الفكرية

من نافل القول ان هـذه الخلاصة ليست كاملة . ولكن الغموض الذي أملاه علينا جهلنا أو ضرورات عرض الموضوع لم يستطع إخفاء طفوح ثروة الحركة الفكرية الهلّينية . وقـــد حالت ثروتها في نفسها دون وحدتها . ويجب الاعتراف بأن التناقضات قـــد جرّأتها . فهي قد أعجبت بروائع وحتى بمحاولات القرون الكلاسيكية التي حذت حذوها عن قصد ووفاقاً لخطة مرسومة ، دون ان تتنكر لشيء مـــن الماضي ؛ ولكنها عن قصد أيضاً انحرفت عنها بدافع بعض النزعات الجديدة . ومن حيث انها نعمت مادياً وأدبياً بحماية وتشجيع النخبة ، فقد توجب عليها ارضاؤها بأفراط لم يكن مجرّد إثرة ؛ ولكنها ارتكزت أيضاً الى شيء آخر هو أهم الى حد بعيد لأنه عملياً مرتكز كل النظـام الهليني : ثقافة واسعة متوسطة كان عليها هي ان تدافع عنها وان تنشرها . وانتهت في القمة الى ندوات من هواة دقة الفكر وحدّة التصوّر، ولكنها لم تستطع إهمال الدرجات الدنيا من الهرم الاجتماعي، ــ لأنها انتهلت منها في كل جيل قوى جديدة ــ تلك الطبقات البشرية المتزايدة عدداً وانتشاراً جغرافياً يوماً بعـــد يوم والمتمتعة باستعدادات وقابليات فكرية متنوعة جداً ، منذ التعليم الابتدائي تقريباً حتى مشارف أسمى المعارف وحتى تجارب ونشاط الواقفين على أسرار الفنون . فكان عليها بالتالي واجبات متشعبة : المحافظة ، والبحث عمـا هو جديد ، والتعميم في أفضل معانيه .

بيد ان اختلاف هذه المهام وتناقضها الظاهر على الأقل لم يشلّ عملها : فهي قد حاولت في كل مكان ونجحت في أكثر من حقل. فكيف نستطيع التنسيق بين قيم لا تخضع في جوهرها للقياس ؟ ولكننا بالرجوع الى الوراء نرى ان أبعد نجاحاتها تأثيراً وفعالية وشهرة لعله في الحقيقة نجـاحها في حقل التربية : فكل شيء في هذا الموضوع تقريباً ، باستثناء بعض المراكز المحظية ، كان

بحاجة لأن يخلق خلقاً . وعلى الرغم من صعوبات الارتجال ، أعدّت ووفرت الاطارات التربوية لجميع درجات التعليم ؛ فاستطاعت من ثم ، بفضل تعليم الموهوبين ، تأمين من يحل محل باعثيها أنفسهم . وبفضلها حافظ الاغريق أينما وجدوا ، وعلى مستوى كريم عموماً ورفيع جداً هنا وهناك ، على الثقافة التي كانت في الأساس من وحدتهم وعزهم . أضف الى ذلك ان هذه الثقافة قد استمالت عناصر بشرية جديدة : ومنذ عهد باكر أناب بعض البلديين المستغرقين من آسيا الصغرى وسوريا — فينيقيا عن اليونان القديمة . وبذلك استطاع رجال الفكر في العهد الهليني ، في آن واحد ، انقاذ ما أمكن انقاذه من الماضي وأغوا التراث الذي صار اليهم وحضروا المستقبل .

حضّروا المستقبل في الشرق، لأن الحضارة اليونانية ، التي استلمت بيزنطية إرثها فيما بعد ، لم يحافظ عليها إلا في الجزء المتوسطي من فتوحات الاسكندر . ولكنهم حضروه في الغرب أيضاً وبصورة أكثر جلاءً ، لأن العالم الهليني ، بسبب تفوق حضارته الفكرية والفنية معاً قد غدا مهذب روما .